

التصوف المنشأ والمصادر

تأليف
د. حسام الدين طهيري

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

جميع الحقوق محفوظة للإدارة

الطبعة الأولى
١٩٨٦ء — ١٤٠٦هـ

الناشر
الإدارة تيجان السنن

المكتبة الرئيسية، ٥٠- لوريمال- لاهور- باكستان
المكتبة الفرعية، ٤٧٥- شادمان- لاهور- باكستان

البراقش ٥٤٠٧٢-٢٢٥٢٥٣-٤١٣١٢-٤١٣١١

طبع
قوى پریس۔ ٥٠- لوريمال- لاهور

إِهْدَاء ..

أَسْرَحِي النَّزَى لَلَّذِي نَزَلَهُ لِيُذَكِّرَ اسْمَهُ كَيْدًا يَضِيعُ أَجْرُهُ
يَهْدِي سَمِي هُمُومِي وَآلَهُمِي، وَيَغْفِرُ وَرَأْيِي فِي فَوَائِدِ الزَّمَانِ
وَأَرْثُوهُ وَفَعَلَ سِرِّيهِمْ وَكَرِيمِ .

أَنَا لَمْ تَعَيَّ غَيْبُهُمْ وَسَلَامُهُمْ
فَمَنْ أُنْقُذُ إِلَى اللَّهِ حَارِي حَسْرَةً

أَهْدِي إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ أَحْتَرِّمُهَا لِيُخَوِّصَهُ، وَحُبًّا
لِسَمَائِلِهِ، وَتَقْدِيرًا لِمَوْلَانِغْفُهُ، وَوَفَاءً لَلْإِخْلَاصِ، وَارْتِجَازًا لِنَزَائِلِهِ.

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

حمداً لله على نعمه الظاهرة والباطنة كما يليق بجلاله وجنابه ، وصلاة وسلاماً على رسوله خير النبيين وأشرف المرسلين ، ومن تمسك بسنته ، وعرض عليها بالنواجز ، واهتدى بهديه من أصحابه وأهل بيته وأتباعه إلى يوم الدين ، وبعد : فإننى قد اشتغلت بكتابى هذا منذ أمد غير قصير ، أقدم عليه تارة وتأخر عنه أخرى ، متردداً بين الاحجام والاقدام .

ولكننا لما رأينا احتياج الناس إلى معرفة هذه الفئة من الناس وأفكارها وآرائها ومعتقداتها ، وكونهم مترددين مذبذبين فى تقييمها ووضعها فى مكانها اللائق الصحيح ، خرجنا من ترددنا وتذبذبنا خائفين من وعيد الله وتهديده :

﴿ وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾^(١) .

و ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾^(٣) .

ويعلم الله انه لم يكن هذا التحفظ للحفاظ على نفسى وعرضى ومالى لكونها مهددة من قبل الضالين ، الغالين ، والمبطلين المنتحلين ، الذين اكتشفنا أمرهم وكشفناه للناس واهتدينا إلى خباياهم وخفاياهم فظهرناها أمام الآخرين ، وعرضنا صورتهم الحقيقية بازالة نقاب التقية والتستر عن وجوههم ، واماطة اللثام عن أسرارهم وعقائدهم وتعاليمهم الأصلية الحقيقية ، لأن نفسى وجسمى ومالى وعرضى جعلتها فداء لوجه ربى وابتغاء مرضاته :

﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين ﴾^(٤) .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٧١ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٦٣ .

فنفسى وعرضى ومالى فداء شريعته تعالى وسنة نبيه وصفيه ، خير البرية :
فان أبى ووالدتى وعرضى لعرض محمد منكم وقاء
وكان ذلك مسلك أحبائه ورفاقه وتلامذته ، أصحابه الراشدين وآله الطاهرين
والمتبعين لهم باحسان :

فدت نفسى وما ملكت يمينى فوارس صدقوا فيهم ظنونى
وإن التحفظ لم يكن حرصا على نفس وعرض ومال ، فان لكل شيء قدرا ،
وان أجل الله لات ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون ﴾ (٥).
﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ (٦).
و ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (٧).

كنت أظن أول الأمر أن بعض الغلاة هم الذين أساءوا إلى التصوف
والمصوفية ، وأن الغلو والتطرف هو الذى جلب عليهم الطعن وأوقعهم فى التشابه مع
التشيع والشيعة ، ولكننى وجدت كلما تعمقت فى الموضوع ، وتأملت فى القوم
ورسائلهم ، وتوغلت فى جماعاتهم وطرقهم ، وحققت فى سيرهم وتراجهم - انه لا
اعتدال عندهم كالشيعة تماما ، فان الاعتدال فيهم كالعنقاء فى الطيور ، والشيعة لا
يعد شيعة إلا حين ما يكون مغاليا متطرفا ، وكذلك الصوفى تماما ، فمن لا يعتقد
اتصاف الخلق بأوصاف الخالق ، لا يمكن أن يعد صوفيا ووليا من أولياء الله .

ومن الطرائف أن ظننى ذلك كأن يجعلنى ويحثنى على أن أسمى مجموعة الكتابة
عن المتصوفة (التصوف بين الاعتدال والتطرف) ولكننى لما كتبت وجدت أن هذا
الاسم لا يمكن أن يناسب تلك المجموعة من الناس لعدم وجود الاعتدال مع محاولتى
أن أجده لأدافع عنهم وأجادل ، وأبرر بعض مواقفهم ، وأجد المعاذير للبعض
الأخرى ، ولكننى بعد قراءة الطويلة العميقة العريضة لكتب الصوفية ومؤلفات
التصوف ، وجدت نفسى ، إما أن أجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وأتبع
كل شيطان مريد - ولا جعلنى الله منهم - وأما أن أقول الحق ولا أخاف فى الله لومة

(٥) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٨ .

(٧) سورة المائدة الآية ٣٨ .

لائم، وأتقى الله وأكون مع الصادقين - وجعلنى الله منهم ورزقنى الاستقامة والثبات عليه .

أما بعد : فهذا كتاب جديد نقدمه إلى القراء فى موضوع جديد وقديم ، جديد حيث أنه يبحث عن التصوف والصوفية ، وقديم لأنه من نفس السلسلة التى كتبنا عنها وعاهدنا الله عز وجل أن نكتب ونتحدث عنها ، ونتكلم فيها ، ونزنها بميزان الكتاب والسنة ، ونضعها فى معيار النقد والتجزئة والتحليل مادامنا أحياء نستطيع الكتابة والخطابة ، ومادام فى أناملنا قدرة على إمساك القلم ، وفى اللسان رفق للتفوه والتكلم ، لنؤيد الحق وندعمه ، ونعلى كلمته ونرفع علمه ، ولنبطل الباطل ونرد عليه ، ولندحض شبهاته ونفند مزاعمه .

وإننا كنا نقصد أول ما بدأنا فى الكتابة عن التصوف أن نقدم دراساته فيه بصورة كتاب متوسط الحجم لا يزيد على ثلاثمائة صفحة ، ويشتمل على تاريخ التصوف ، بدايته ، منشأه ومولده ، مصادره وتعاليمه ، عقائده ونظامه ، سلسله وزعمائه وقادته ، ولكننا رأينا بعد المضى فى الكتابة أن الأمر يتطلب أكثر من كتاب ، وعلى الأقل كتابين .

الأول يشتمل على نشأة التصوف ومصادره ، وقُل من تطرق إليها بتفصيل ، وكل الكتاب الذين بحثوا التصوف مروا عليها كعابر سبيل مع أن أهمية المصادر والمآخذ لطائفة وجماعة لا تقل عن أهمية تلك الجماعة وأفكارها ، بل قد تزيد عليها بفارق كبير حيث إن المصادر والمآخذ كثيرا ما تحسم النزاع فى معتقدات وعقائد ، وتجعل تلك المعتقدات والعقائد تابعة لتلك المصادر .

وعلى هذا فقد فصلنا القول فى ذلك ، فى كتاب مستقل نضعه اليوم بين أيدي الباحثين والقراء راجين أن ينال رضاهم ، ولعلنا سدنا بذلك ثغرة كانت فى احتياج لأن تسد ولو أنها تتطلب المزيد ، كما أننا نلن أننا فى بحثنا عن مصادر التصوف استطعنا أن نضع النقاط على الحروف ، وخاصة بمقارنة النصوص والعبارات عند الأخذ بالنصوص والعبارات عند المأخوذ عنه ، ومقارنة المقتبس بالمقتبس منه ، من الكتب المعتمدة والمصادر الموثوق بها لدى الاطراف المعنية كلها ، وخاصة فى الباب الثالث عن التصوف والتشيع .

ومع اعترافنا باننا قد سُبِقنا إلى هذا البحث من قبل بعض الباحثين الذين كتبوا فى هذا الموضوع سيجد القارئ ويلاحظ الباحث أننا أضفنا إليه أشياء

واستدركنا عليهم أشياء كثيرة في مختصرنا هذا لم يتطرق واحد منهم إليها ، مع المقارنة الواضحة ، والمشابهات الصريحة ، والموافقات الجلية ، والنصوص الكثيرة من كلا الطرفين بدون تصنع وتكلف واستنتاج بعيد واستشهاد شارد غريب ، وأعرضنا عن الأشياء التي كان يمكن ايداعها وإيرادها في هذا المبحث ، ولكن بالكلفة والاستنباط فاخترنا ما لا يسع أحدا إنكاره .

فنحن استدركنا على السابقين مباحث هي أكثر أهمية وأكبر وزنا وأعظم شأنًا مما اشتركنا في إيرادها ، ولم يذكرها البتة ، من اشتراك الشيعة والصوفية في اجراء النبوة بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ونزول الوحي ، واثيان الملائكة ، وتكليم الله إياهم ، وعدم خلّو الأرض من شخص به ثبات الأرض ووجودها ، وعدم قبول العبادة بدونها ، وتفضيل الوصى والولى على النبى ، ونسخ الشريعة ، ورفع التكليف ، وإباحة المحظورات واثيان المنكرات وغيرها من المواضيع الهامة العديدة ، فالحمد لله على ذلك .

وكذلك يجد القارىء في الباب الثانى من هذا الكتاب عند بحثنا عن المسيحية باعتبارها أحد المصادر الهامة للتصوف أننا قد انفردنا بإيراد نصوص مسيحية أصلية لمقارنتها بالنصوص الصوفية شهادة على الآخذ والمأخوذ عنه .

وقد اخترنا في هذا المبحث مسلكا ذا أبعاد ثلاثة .

أولاً : لا نكتفى بإيراد النص الصوفى بل نورد معه النص الذى يشابهه من الديانات الأخرى على خلاف ما تعودده الكتاب ثقة منهم بأن القارىء والباحث يعرف ذلك ، فليس بضرورى أن يكون القارىء متخصصا في هذا الموضوع حتى يكون له المامة بنصوص تلك الديانات .

ثانياً : أوردنا تأييدات من قبل الباحثين والكتاب من المسلمين والمستشرقين الذين اشتغلوا في دراسة التصوف باعتبارها شهادات خارجية بعد الشهادات الداخلية الناتجة من مقارنة النصوص نفسها .

وثالثاً : جمع النصوص من المتصوفة المتقدمين والمتأخرين المشهورين بالاعتدال والموثوق بهم لدى العامة ، وكذلك نصوص الآخرين من المتصوفة غير المعتدلين وغير الغلاة أيضا .

وحاولنا أن تكون هذه النصوص من الكتب المختلفة والمتفاوتة زمنا ومنهجيا كي يكون الموضوع شاملا كاملا ، وافيا شافيا قدر الاستطاعة ، وعلمه لم يجتمع هذا العدد

من النصوص في مختصر آخر مثل مختصرنا هذا .

فالحمد لله الذى بتوفيقه ومدده وتأييده تتم الأعمال وهوولى الهداية والرشاد .
ويجدر بنا أن نذكر ههنا أن الكتاب الثانى سيشتمل على عقائد وتعاليم صوفية كما
يشتمل هذا الكتاب على أصلها ومنشأها ومصادرها ، وليس معنى هذا أن هذا
الكتاب خال عن معتقداتهم ، بل ان أعظم قسط منه يشتمل على العقائد
والمعتقدات وإننا لم نبحث عن مصادر التصوف وماآخذه تاريخيا وسردنا لذلك شهادات
وتوثيقات ، بل أوردنا فيها أوردنا عقائد القوم ، الخاصة بهم ، وتعاليمهم التى امتازوا
بها عن غيرهم ، ثم ذكرنا عمن أخذوا هذه المعتقدات ، واقتبسوا هذه التعاليم ،
واحدة بعد واحدة على أنها شهادات داخلية ، فعلى ذلك هذا الكتاب مع عنوانه
« المنشأ والمصادر » لم يبحث فى الحقيقة والأصل إلا العقائد والمعتقدات ، بهذا لا
يكون هذا الكتاب موضوعيا صرفا ، بل يؤدى رسالته لبيان حقيقة هذه العصابة من
الناس وكنهها ولا رجاء الأمور إلى نصابها ، ووضع الأشياء فى محلها ومقاديرها ،
وذلك هو العدل .

والنقطة الأخرى التى أشرنا إليها قبل قليل ، ونريد أن نركز عليها هى أننا ما
بنينا حكمنا ، ولا وضعنا احتجاجنا واستدلنا إلا على المتصوفة المشهورين
المعروفين ، والموثوق بهم المعتدلين لدى الجميع ، وذلك أيضا استهادا ، لا
استدلالا ، كما يلاحظ الباحث اننا لم نورد فى كل هذا القسم من الحلاج ، ولا من
طائفته وجماعته رواية واحدة ، لا استدلالا ولا استهادا ، كى لا يتهمنا متهم أننا
اخترنا الغلاة ورواياتهم للحكم على التصوف ، لانه فى رأينا كما قلنا أنفا لا اعتدال
فى التصوف ولدى المتصوفة ، اللهم إلا الزهاد الأوائل فانهم ليسوا منهم ، ولا هؤلاء
من أولئك .

فان التصوف أمرزائد وطارىء على الزهد ، وله كيانه وهيته ، نظامه
وأصوله ، قواعده وأساسه ، كتبه ومؤلفاته ورسائله ومصنفاته ، كما ان له رجالا وسدنة
وزعماء وأعيانا .

فان الزهد عبارة عن ترجيح الآخرة على الدنيا ، والتصوف اسم لترك الدنيا
تماما .

والزهد هو تجنب الحرام ، والاقتصاد فى الحلال ، والتمتع بنعم الله بالكفاف ،
وإشراك الآخرين فى آلاء الله ونعمه وخدمة الأهل والاخوان والخلان .

والتصوف تحريم الحلال ، وترك الطيبات ، والتهرب من الزواج ومعاشرة الأهل والاخوان ، وتعذيب النفس بالتجوع والتعري والسهر.

فألزهد منهج وسلوك مبني على الكتاب والسنة ، وليس التصوف كذلك ، لذلك احتيج لبيانهِ إلى (التعرف لمذهب أهل التصوف) و(قواعد التصوف) و(الرسالة القشيرية) و(اللُّمَع) و(قوت القلوب) و(عوارف المعارف) وغيرها من الكتب ، وسيأتى تفصيل ذلك في الكتاب القادم إن شاء الله .

فعندما نكتب نكتب عن هذا المذهب أى مذهب التصوف لا عن الزهد ، لأن الزهد كما ورد في حديث الترمذى « ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاعه المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » لأن الله تعالى يقول : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (٨)

وهذا الأمر أى عدم وجود الاعتدال في التصوف ينطبق على التشيع ، وهذا هو القدر الآخر المشترك بينهما لأننا في بحثنا الطويل في التشيع لم نجد طائفة يمكن أن توصف بالاعتدال ، فالغلو والتطرف من لوازم مذهب التشيع كما قاله الرجالى الشيعى المشهور ، المامقانى في تنقيحه ، فكذلك التصوف لا يعرف إلا الغلو والتطرف .

فالله أسأل أن يجعلنا أمة وسطا حقا ومن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، يتمسكون بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، ويعضون عليها بالنواجذ ، ويدافعون عن حرمة الله وحرمة رسوله ، وأعراض أصحاب محمد وأهل بيته ، ويذبون عن المسلك القويم المستقيم ومنهج السلف الصالحين ، ويردون كيد الضالين المنحرفين ، ومكر المبطلين المنتحلين ، لا يهابون جموعهم المتكاثرة ، وأحزابهم المتكالبية ، وفرقهم المعاضد بعضها بعضا ، ويقولون للغاضبين الناقمين الحاسدين ما قاله أصفياء الله وأخياره ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنتظرون . إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ (٩) . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

احسان الهى ظهير

ابتسام كاتيج - شادمان - لاهور

فبراير ١٩٨٦ الموافق

جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ

(٨) فتاوى شيخ الاسلام ج ١٠ ص ٦٤١ ط الرياض (٩) سورة الأعراف الآية ١٩٥ ، ١٩٦

آلْبَابُ الْأَوَّلِ

التَّصَوُّفُ نَشَأَتُهُ، تَارِيخُهُ وَتَطَوُّرَاتُهُ

الفصل الأول

إن الاسلام دين البساطة ودين الفطرة التي فطر الناس عليها، أنزله الله على قلب سيد الخلق لهداية البشر.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾^(١).

وأمر سبحانه جلّ وعلا أن يتمسك به، ويقدمه إلى الناس ليعرفوه ويتمسكوا به بدورهم.

وأنه عبارة عن الاقرار بوحدانية الله عز وجل لا شريك له، والشهادة بأن محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، وإقامة الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة بعد مرور عام على ملاك النصاب، وكذلك صوم شهر رمضان من اثني عشر شهرا، وحج البيت ان استطاع إليه سبيلا، كما ورد في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام أنه جاء يوما من الأيام يسأل النبي ﷺ الاسلام، فقال:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلا»^(٢).

أو كما ورد في حديث أعرابي جاءه صلوات الله وسلامه عليه فقال له: «دلّني على عمل إذا عملته دخلت الجنة».

قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والذي نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئا ولا أنقص منه. فلما ولى، قال النبي ﷺ: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»^(٣).

(١) سورة التوبة الآية ٣٣

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

أو بتعبير آخر أن الإسلام يعبر عن التمسك بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ ، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ ، وقضاء حياة مثل ما قضاها رسول الله ، واختيار الطرق والسنن التي اختارها أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كما أمر به الرب تبارك وتعالى في كلامه المحكم :

﴿أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾^(٤) .

﴿أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾^(٥) .

﴿من يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾^(٦) .

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي

العظيم﴾^(٧) .

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٨) .

﴿من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾^(٩) .

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم

الآخر﴾^(١٠) .

﴿واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم

تعملون﴾^(١١) .

وأوامر الله ورسوله ، وكذلك نواهى الله ونواهى رسوله موجودة محفوظة في الكتاب والسنة ، الكتاب المنزّل على سيد البشر وخاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه ، المعبر عنه بالذكر الحكيم والفرقان الحميد والقرآن المجيد ، الذي جعله الله شفاء وهدى ورحمة للمؤمنين ، وسنة رسول الله المعبر عنها بالحكمة في قوله جل وعلا : ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ وبالحديث النبوى الشريف ، ما ثبت عنه وصح من أقواله وأفعاله وتقريراته ، الكتاب والسنة اللذين ذكرهما الرسول ﷺ في قوله حيث خرّص أمته ، وحثهم على التمسك والتشبث بهما قائلا : «تركتم فيكم أمرين لن

(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٢ .

(٥) سورة الأنفال الآية ٢٠ .

(٦) سورة الأنفال الآية ١٣ .

(٧) سورة التوبة الآية ٦٣ .

(٨) سورة الحشر الآية ٧ .

(٩) سورة الأحزاب الآية ٧١ .

(١٠) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(١١) سورة لقمان الآية ١٥ .

تصلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله» (١٢).

ثم ربي أصحابه وتلامذته في ظلهم وضوئهما تربية نموذجية لكي يكونوا قدوة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ومثلا عليا لمن أراد أن يهتدى بهدى الله جل وعلا وهدى رسوله ﷺ. فكانوا صورة حية لتعاليم الرب تبارك وتعالى وإرشادات رسوله ﷺ متبعين مقتدين، غير مبتدعين محدثين، متقدمين بين يدي الله ورسوله، مبتغين مرضات الله، ومقتفين آثار رسول الله ﷺ، مهتدين بهديه، سالكين بمسلكه، متتهجين منهجه، غير باغين ولا عادين، ولا مفرطين ومفرطين في أمور دينهم ودنياهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (١٣).

وكان خيار هؤلاء كلهم - وكلهم خيار الخلق أجمعين - أصحاب بيعة الرضوان الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت وهم في الحديبية، فأنزل الله لهم البشرى برضوانه وجعل يده فوق أيديهم: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ (١٤).

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ (١٥). وفاقهم في المنزلة والشأن أهل بدر، الذين اطلع الله عليهم فقال: «اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة» (١٦).

وزاد على هؤلاء فضلا ومنقبة ومكانة من رفعهم الله بتبشيريه إياهم بالجنة واحدا واحدا بالاسم والمسمى على لسان نبيهم الناطق بالوحي، الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، الصادق المصدق صلوات الله وسلامه عليه، العشرة المبشرة ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾.

ولو أنه زادهم رفعة وعظمة من قال في حقهما سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه: «خير الخلائق بعد نبي الله أبوبكر ثم عمر» (١٧).

(١٢) رواه مالك في الموطأ.

(١٣) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(١٤) سورة الفتح الآية ١٨.

(١٥) سورة الفتح الآية ١٠.

(١٦) متفق عليه.

(١٧) هذا الحديث رواه البخارى عن على، وأطرف من ذلك أن هذا الحديث ورد في الكتب الشيعية أيضا - انظر لذلك كتابنا الشيعة وأهل البيت.

فمن أراد أن يرى الإسلام متجسداً في شخصهم، وذواتهم، وخلقهم، وعباداتهم، وأقوالهم، وأفعالهم، فلينظر إلى هؤلاء، فإنهم كانوا ممثلي الإسلام الصحيح، الكامل، غير المشوب بشوائب البدع والمحدثات، والخرافات والضلالات التي لحقت بالإسلام بعد أدوار وأطوار، فإنهم كانوا تلامذة المدرسة الإسلامية الأولى التي كان أستاذها والمعلم فيها سيد ولد آدم، المحفوظ بحفظ الله، والمعصوم بعصمة الله، والمؤيد بوحى الله، والهادى إلى الصراط المستقيم. ﷺ.

ولأجل ذلك حصر الله رضاه والدخول في الجنة لمتابعيهم بإحسان لكل من أتى بعدهم، ﴿والذين اتبعوههم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ (١٨).

فهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لأنهم هم الذين حُب إليهم الإيمان وكرِه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون. وهم القدوة الحسنة، والمحك والمعيار لمعرفة الحق من الباطل، واهدى من الزيف والضلال.

فكل عمل يخالف عملهم، وكل قول يعارض قولهم، وكل طريق في الحياة يناهض طريقهم مردود مرفوض مطرود، لأنهم شاهدوا من رسول الله ما لم يشاهده غيرهم، وسمعوا عن نبي الله ما لم يسمعه الآخرون، ورباهم من لم يرب هؤلاء، وتعلمذوا على من لم يتلمذ عليه أولئك، فهم أشبه الناس في أقوالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وعباداتهم، وعباداتهم ومعاملاتهم، ومعاشرتهم ومعاشهم برسول الله صلوات الله وسلامه عليه من غيرهم، فلذلك أمر المؤمنون باتباعهم، وإلى ذلك أشار نبي الرحمة ﷺ في قوله «ما أنا عليه وأصحابي» حيث جعلهم معه على طريقة واحدة ومنهج واحد، ولم يُدخل في هذا الاختصاص أحداً غيرهم، ولم يخصهم بهذه المزية والفضيلة إلا بأمر من الله وإيعازه حيث أنزل عليه في محكم كتابه أن يقول: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (١٩).

ولم يرد من قوله (ومن اتبعني) آنذاك إلا أصحابه ورفاقه، تلامذته الراشدين، وأوفياؤه الصادقين، الهادين المهديين رضى الله عنهم أجمعين.

ففى ضوء الكتاب والسنة، وأسوة الرسول وسيرته، وعمل أصحابه وحياتهم

(١٨) سورة التوبة الآية ١٠ .

(١٩) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

توضع وتوزن أعمال المسلمين المتخلفين وأقوال من جاء بعدهم ، فما وجد لها سند ودليل يحكم عليها بالصحة والصواب ، قطع النظر عن صدرت عنه ، ومن وردت . وما لم يعاضدها الكتاب ولم تناصرها السنة ، ولم يوجد لها أثر في حياة الصحابة وأفعالهم يحكم عليها بالفساد والبطلان ، سواء وردت من صغير أو كبير ، تقى أو شقى ، لأن « أحسن الكتاب كتاب الله ، وخير الأمور أوسطها ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » (٢٠) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٢١) .

وإن المسلمين للزمون أن يؤمنوا بأن الله لم يترك خيرا لأمة محمد ﷺ إلا وقد بينه لرسوله ﷺ ، ولا شرا إلا وقد نبهه عليه ، ثم رسول الله ﷺ لم يكتف ببيانه ، ولم يقصر في تبليغه إلى الناس ، فأخبر الخلق بكل ما أخبر عن الله عز وجل لصالحهم وفلاحهم ، ولم يخص شخصا دون شخص ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ (٢٢) .

وكان مأمورا من الله بأن يبلغ كل ما نزل إليه ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ (٢٣) .

كما ان المسلمين مطالبون أيضا أن يؤمنوا بأن الدين قد كمل في حياة رسول الله ﷺ ، ولم يتوفه الله إلا بعد اتمام الإسلام ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٢٤) .

ومن يعتقد أن شيئا من الدين ولو صغيرا بقى ولم ينزله الله على نبيه ، أو لم يبينه صلوات الله وسلامه عليه فإنه لا يؤمن بكمال الدين على رسوله ﷺ ، ولا تمام الإسلام في حياته ، لأنه بدون هذا ينقص الدين ولا يكمل ، وهذا معارض لقول الله عز وجل ، ومناف لختم نبوة محمد صلوات الله عليه وسلامه عليه .

ويتضح بذلك جليا أنه لا بد من الاعتقاد أن كل شيء لا يوجد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليس من الدين - وهو محدث وبدعة وضلالة ، وهذا هو الصحيح

(٢٠) رواه أبو داود .

(٢١) متفق عليه .

(٢٢) سورة التكوين الآية ٢٤ .

(٢٣) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٢٤) سورة المائدة الآية ٣ .

الثابت عن الله وعن رسوله - أما اعتقاد انه من الدين وأن الدين لم يكمل بعد، فهذا هو عين الكفر والضلالة، وقائله ليس من المؤمنين والمسلمين بالاتفاق، فلا بدّ من أحد الأمرين، أما هذا أو ذلك، ولا يمكن الجمع بينهما. ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ (٢٥).

﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير﴾ (٢٦).

ومن هذا المنظور والرؤية نرى التصوف، وننظر في الصوفية، ونبحث في قواعده وأصوله ونحقق أسسه ومبادئه، مناهجه ومشاربه، هل لها أصل في القرآن والسنة، أو سند في خيار خلق الله أصحاب رسول الله الذين هم أولياء الله الحقيقيون الأولون من أمة محمد، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم﴾ (٢٧).

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. ييشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم﴾ (٢٨).

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (٢٩).

فإن كان كذلك فعلى المؤمنين كافة الاقرار والتسليم، والتمسك والالتزام، وليس لهم الخيار في الترك أو القبول، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا﴾ (٣٠).

وأيضا: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسلياً﴾ (٣١).

(٢٥) سورة الأنفال الآية ٤٢.

(٢٦) سورة التغابن الآية ٢.

(٢٧) سورة الأنفال الآية ٧٤.

(٢٨) سورة التوبة الآية ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٢٩) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٣٠) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

(٣١) سورة النساء الآية ٦٥.

وشمل قول الله عز وجل في الآية القرآنية الأخرى أصحاب نبيه ﷺ لكونهم قدوة متبعين بعد الله ورسوله حيث قال :

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ (٣٢).

وما لم يكن كذلك فتركه واجب، والالتفات إليه حرام، بقطع النظر عن ما عمله به.

ويمثل ذلك قال الامام أبو إسحاق الشاطبي في اعتصامه :

«(والثاني) إن الشريعة جاءت كاملة لا تحتل الزيادة ولا النقصان، لأن الله تعالى قال فيها: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾.

وفي حديث العرياض بن سنارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «تركتمكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» الحديث.

وثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا وهذا لا يخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وقامها من كل وجه، لم يبتدع ولا استدرك عليها. وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً.

(والثالث) إن المبتدع معاند للشرع ومشاق له، لأن الشارع قد عين لمطلب العبد طرقاً خاصة علي وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد

وأخبر أن الخير فيها، وأن الشرفي تعدّيا - إلى غير ذلك، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين. فالمبتدع رادُّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثمَّ طرقاً أخرى، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ماعينه بمتعين، كأن الشارع يعلم، ونحن أيضاً نعلم. بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه علم ما لم يعلمه الشارع.

وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع فهو كفر بالشرعية والشارع، وإن كان غير مقصود، فهو ضلال مبين.

والى هذا المعنى أشار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، إذ كتب له عدى بن أرتاة يستشيريه في بعض القدرية، فكتب إليه:

«أما بعد فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره وأتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنّها من قد عرف ما فى خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضى به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ، قد كفوا وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل كانوا فيه أحرى. فلئن قلتم: أمر حدث بعدهم، ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سنتهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا منه ما يكفى، ووصفوا منه ما يشفى، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فقلوا وأنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم».

ثم ختم الكتاب بحكم مسئلته.

فقوله: «فإن السنة إنما سنّها من قد عرف ما فى خلافها» فهو مقصود

الاستشهاد.

(والرابع) إن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهى للشارع، لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجرى على سننها، وصار هو المنفرد بذلك، لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون. وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس. ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام.

هذا الذى ابتدع فى دين الله قد صير نفسه نظيراً ومضاهياً، حيث شرع مع

الشارع، وفتح للاختلاف باباً، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفى بذلك» (٣٣).

وبعد هذه التوطئة المختصرة والمهمة نجحنا ننتقل إلى المقصود والمطلوب، وهو معرفة التصوف والصوفية، وجعل الشرع حاكماً عليهما، وعرض آرائهما وأفكارهما عليه. وبالله التوفيق.

(٣٣) الاعتصام للشاطبي ص ٤٨ إلى ٥١ ط مطبعة السعادة مصر.

الفصل الثاني

أَصْلُ التَّصَوُّفِ وَاشْتِقَاقُهُ

قبل أن نبحث في التصوف ونشأته وتاريخه نريد أن نذكر أصل اشتقاقه، من أين اشتق؟ وكيف كان اشتقاقه؟ واختلاف الباحثين فيه والصوفية أنفسهم أيضا، ولقد سئل الشبلي: لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟.

فقال: «هذا الاسم الذي أطلق عليهم اختلف في أصله وفي مصدر اشتقاقه» (٣٤).

ولا زالوا مختلفين فيه حتى اليوم.

فلقد نقل الطوسي أبو نصر السراج (٣٥) في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي، عن صوفي أنه قال:

«كان في الأصل صفوى، فاستقل ذلك، فقيل: صوفي — وبمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناد: هو مأخوذ من الصفاء» (٣٦).

وينقل الكلاباذي أبو بكر محمد الصوفي المشهور (٣٧) عن الصوفية أقوالا عديدة في أصل هذه الكلمة واشتقاقها، فقال:

قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء أثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفت الله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته.

وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتقاء همهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائرهم بين يديه.

(٣٤) «أبحاث في التصوف» للدكتور عبد الحليم محمود، المدرجة في مجموعة مؤلفاته ص ٥٥ ط دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى ١٩٧٩ م.

(٣٥) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي الملقب بطاوس الفقراء، توفي في رجب سنة ٣٧٨ هـ.

(٣٦) انظر «كتاب الجمع» ص ٤٦ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠ م.

(٣٧) هو أبو بكر محمد الكلاباذي الملقب بتاج الاسلام، قيل في شأن كتابه (التعرف): لولا التعرف لما عرف التصوف (مقدمة كتابه).

وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ .
وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف .

وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم ، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا ، فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الأخدان ، وساحوا في البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأعروا الأجساد ، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه ، من ستر عورة ، وسد جوعة .

فلخرجوهم عن الأوطان سموا غرباء .

ولكثرة أسفارهم سموا سياحين .

ومن سياحتهم في البرارى وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سباهم بعض أهل الديار «شكفتية» والشكفت بلغتهم : الغار والكهف .

وأهل الشام سموهم «جوعية» لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة ، كما قال النبي ﷺ «بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه» .

وقال السرى السقطى ، ووصفهم فقال : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرقى .

ومن تخلّاهم عن الأملاك سموا فقراء .

قيل لبعضهم : من الصوفي؟ قال : الذي لا يملك ولا يُمَلِك . يعنى لا يستره الطمع .

وقال آخر : هو الذى لا يملك شيئاً ، وإن ملكه بذله .

ومن لبسهم وزيّهم سموا صوفية ، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسّه ، وحسن منظره ، وإنما لبسوا لستر العورة ، فتجزّوا بالخشن من الشعر ، والغليظ من الصوف .

ثم هذه كلها أحوال أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين ، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ووصفهم أبوهريرة وفضالة بن عبيد فقالا : يخرجون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين . وكان لباسهم الصوف ، حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه المطر .

هذا وصف بعضهم لهم، حتى قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ: إنه ليؤذيني هؤلاء أما يؤذيك ربهم؟ .

ثم الصوف لباس الأنبياء، وزئ الأولياء.

وقال أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ «إنه مرُّ بالصخرة من الروحاء سبعمون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت العتيق» .

وقال الحسن البصري: كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر، ويأكل من الشجرة، ويبيت حيث أمسى .

وقال أبو موسى: كان النبي ﷺ يلبس الصوف، ويركب الحمار، ويأتى مدعاة الضعيف .

وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم إلا الصوف .

فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا، ولبسهم وزيم زى أهلها، سمو صُفِيَّةً وصوفية .

ومن نسبهم إلى الصفة والصف الأول فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها، صفى الله سره، ونور قلبه .

قال النبي ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح»، قيل: وما علامة ذلك يارسول الله؟ قال «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

فأخبر النبي ﷺ أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه .

وقال حارثة حين سأله النبي ﷺ: ما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت بنفسى عن الدنيا، فأظلمات نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون .

فأخبر أنه لما عزف عن الدنيا نور الله قلبه، فكان ما غاب عنه بمنزلة ما يشاهده . وقال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى عبد نور الله قلبه فليتنظر إلى حارثة، فأخبر أنه منور القلب» .

وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف .

وهذا أيضا من أوصاف أهل الصفة، قال الله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ .

والتطهر بالظواهر عن الأنجاس، وبالبواطن عن الأهجاس .
وقال الله تعالى : ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ . ثم لصفاء
أسرارهم تصدق فراستهم .

قال أبوأمامة الباهلي رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه
ينظر بنور الله » .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ألقى في روعى أن ذا بطن بنت خارجة ،
فكان كما قال .

وقال النبي ﷺ : « إن الحق لينطق على لسان عمر » .

وقال أبو أويس القرنى هرم بن حيان حين سلم عليه : وعليك السلام يا هرم بن
حيان ، ولم يكن رآه قبل ذلك ، ثم قال له : عرف روحى روحك .

وقال أبو عبد الله الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق
فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في أسراركم ويخرجون من هممكم .

ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو في الصف
الأول ، لأن هذه أوصاف السابقين .

قال النبي ﷺ : « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب » ثم وصفهم
وقال : « الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يكوون ولا يكتوون ، وعلى ربهم
يتوكلون » .

فلصفاء أسرارهم ، وشرح صدورهم ، وضياء قلوبهم : صحت معارفهم بالله ،
فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل ، وتوكلا عليه ، ورضاً بقضائه .

فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ، ومعانى هذه الأسماء كلها في أسامى القوم
وألقابهم ، وصحت هذه العبارات وقربت هذه المآخذ .

وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر ، فإن المعاني متفقة لأنها إن أخذت
من الصفاء والصفوة كانت صفوية .

وإن أضيفت إلى الصف أو الصفة كانت صَفِيَّة أو صُفِيَّة ، ويجوز أن يكون
تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية ، وزيادتها في لفظ الصفية والصُفِيَّة إنما كانت
من تداول الألسن .

وإن جعل مأخذه من الصوف: استقام اللفظ، وصحت العبارة من حيث اللغة.

وجميع المعانى كلها من التخلّى عن الدنيا وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور وصفة للسباق.

وقال بشار بن الحسن: الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصافاه، وعن نفسه برأه، ولم يرده إلى تعمّل وتكلف بدعوى.

وصوفي على زنة عوفى، أى عافاه الله فعوفى وكوفى، أى كافاه الله فكوفى، وجوزى، أى جازاه الله، ففعل الله به ظاهر في اسمه والله المتفرد به^(٣٨). هذا ما تحبّط به الكلاباذى من الخلط والغلط قطع النظر عن ضعف أكثر الروايات التي ساقها وسردها.

ويكتب من الصوفية المتقدمين أبو العباس أحمد بن زروق^(٣٩) في كتابه قواعد التصوف: وقد كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف، وأمسى ذلك بالحقيقة خمسة. الأول: قول من قال: من الصوفة، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

الثاني: انه من صوفة القفا، للينها، فالصوفي هين لين كهى.

الثالث: أنه من الصفة، إذ جعلته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة.

الرابع: انه من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى سمي الصوفي

الخامس: انه منقول من الصفة لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. وهذا

(٣٨) «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذى ص ٢٨ إلى ٣٤ تحقيق محمود أمين النواوى الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.

(٣٩) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن زروق: علم من أعلام الصوفية، وإمام من أئمة أهل الحقيقة (انظر الصفحة فوقانية لكتاب قواعد التصوف).

هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه» (٤٠).

وقال أبو نعيم الأصبهاني المتوفى ٤٣٠ هـ في حليته :

واشتقاقه من حيث الحقائق التي أوجبت اللغة فانه تفعل من أحد أربعة أشياء، من الصوفانة، وهي بقلة رعناء قصيرة، أو من صوفة وهي قبيلة كانت في الدهر الأول تميز الحاج وتخدم الكعبة، أو من صوفة القفاء وهي الشعرات النابتة في متأخره، أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن» (٤١).

وقال مرجحا كونه مأخوذا من الصفاء :

«اشتقاقه عند أهل الاشارات والمنبئين عنه بالعبارات من الصفاء والوفاء» (٤٢).

وذهب إلى هذا الرأي فريد الدين العطار المتوفى ٥٨٦ هـ تقريبا نقلا عن بشر الحافي (٤٣).

وكذلك الصوفي الهندي فريد الدين الملقب بكنج شكر المتوفى ٦٦٩ هـ (٤٤).

ولكن السهروردي الذي فصل القول في هذا يرى رأيا آخر، وهو أنه مشتق من الصوف ولبسه، فاليكم ما قاله في كتابه (عوارف المعارف) في الباب السادس تحت عنوان : ذكر تسميتهم بهذا الاسم :

«أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، وقال أخبرني والذي، قال أخبرنا أبو علي الشافعي بمكة حرسها الله تعالى، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم، قال أخبرنا أبو عبد الله المخزومي، قال : حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك، قال : كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة

(٤٠) «قواعد التصوف» لابن زروق الطبعة الثانية ص ٢٩٣ ط ١٣٩٦ هـ مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة،

أيضا «لطائف المنن» لابن عطاء الله الأسكندري ط مطبعة حسان مصر، أيضا «الدر =

= الثمين، والمورد المعين» لمحمد بن أحمد المالكي ج ٢ ص ١٦٩ ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤ م. أيضا «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» لأحمد بن عجيبة الحسني ط مصطفى البابي الطبعة الثالثة ١٩٨٢ م.

(٤١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للأصبهاني ج ١ ص ١٧ ط دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ.

(٤٢) نفس المصدر.

(٤٣) «تذكرة الأولياء» للعطار ص ٦٨ ط باكستان.

(٤٤) انظر «أسرار الأولياء» ص ١٢٩ ط باكستان الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م.

لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون ألبيت الحرام».

وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصري رضى الله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف، ووصفهم أبوهريرة وفضالة بن عبيد فقالا: كانوا يخرجون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث. وقال بعضهم: إنه ليؤذنى ريح هؤلاء، أما يؤذيك ريحهم! يخاطب رسول الله ﷺ بذلك، فكان اختيارهم للباس الصوف لتزكهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا للملاذ النفوس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال «تصوف» إذا لبس الصوف، كما يقال «تقمص» إذا لبس القميص.

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يفيدهم وصف ولا يحسبهم نعت، وأبواب المزيد علماً وحالاً عليهم مفتوحة، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم، فلما تعذر تقيدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم، نسبوا إلى ظاهر اللبسة. وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم، وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم، وأيضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره. ولما كان الاعتزاء إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه . . وقعت الإشارة إلى زيمهم ستراً لحالهم وغيره على عزيز مقامهم ان تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية.

وفيه معنى آخر: وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى إن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل،

ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ، والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بهذا أنفع وأولى، وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال إنهم سمو صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سمو صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم، وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى، فالقول بأنهم سمو صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع، ويقرب أن يقال: لما أثروا الذبول والخمول والتواضع والانكار والتخفى والتوازي، كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها، فيقال «صوفي» نسبة إلى الصوفة، كما يقال «كوفي» نسبة إلى الكوفة، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد.

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال حدثنا أبو علي بن إسماعيل بن محمد، قال حدثنا الحسن بن عرفة، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكفه من صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكى.

وقيل: سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوي، فاستقبل ذلك وجعل صوفياً. وقيل سمو صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ الآية، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حال أولئك لكونهم مجتمعين متألفين متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن «تلاوته» وكان

رسول الله ﷺ يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وقوله تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ ونزل في ابن مكتوم قوله تعالى : ﴿عيس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ وكان من أهل الصفة ، فعوقب النبي ﷺ لأجله ، وكان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لا يتزعزعه من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يارسول الله أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر ثم قال : ما بال أقوام يقولون احرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به ، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز ، وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه ، قال : أخبرنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثي قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال حدثنا محمد بن محمد ابن سعيد الأنماطي ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد ابن علي الترمذي ، قال حدثني سعيد بن حاتم البلخي ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : وقف رسول الله ﷺ يوماً على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضياً بما هو فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة» .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمونهم في خراسان شكفتية ؛ لأن «شكفت» اسم الغار ، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصالح فسمى قوماً أبراراً وآخرين مقربين ، ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون ، والمحبون ، واسم الصوفي مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ ، وقيل كان في زمن التابعين .

ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معي أربع دوانيق يكفيني ما معي ويشيد هذا ما روى عن سفيان أنه قال لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية (٤٥).

فهل هناك تعارض وتناقض أكثر من ذلك ؟ .

ورجح الرأي الأخير أبو المفاخر يحيى الباخرزى (٤٦).

ونجم الدين كبرى (٤٧) رجع كون كلمة التصوف مشتقة من الصوف ، وأضاف « بأن أول من لبس الصوف آدم وحواء . لأنها أول ما نزل في الدنيا كانا عريانين ، فنزل جبريل بالخرروف فأخذ من الصوف ، فغزلت حواء ونسجه آدم ولبسناه ، وكذلك موسى عليه السلام لبس الصوف ، وأن يحيى وزكريا ونبينا محمدا ﷺ أيضا كانوا يلبسون الصوف .

ونسبة الصوفي إلى الصوف ، واذ ألبس الصوف طلب من نفسه حقه ، لأن الصوف مركب من الأحرف الثلاثة : الصاد ، والواو ، والفاء ، فيطلب من الصاد العبر والصلابة والصدق والصلاة ، ويطلب من الواو الوفاء والوجد ، وبالفاء الفرج والفرح (٤٨).

ومن الطرائف أن نجم الدين كبرى هذا زاد على الآخرين حيث بين ألوان الصوف الذي يلبسه الصوفية على اختلاف أوصافهم وأحوالهم فقال :

« إن الذي قهر نفسه وقتلها بسيف المجاهدة والمكابدة ، وجلس في مآتم النفس ، عليه أن يلبس الصوف الأسود ، وإن كان ثابا عن المخالفات وغسل ملبوس عمره بصابون الانابة والرياضة . ونقى صحيفة قلبه عن ذكر الغير فعليه الصوف الأبيض ، وإن كان من الذين أجتازوا العالم السفلى ، ووصل العالم العلوى بهيمته

(٤٥) «عوارف المعارف» للسهروردي عبد القاهر بن عبد الله ص ٥٩ إلى ٦٣ ط دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

(٤٦) انظر لذلك كتاب «أوراد الأحناب وفصوص الأداب» لأبي المفاخر يحيى الباخرزى المتوفى ٧٣٦ هـ ج ٢ ص ١٤ باهتمام أفاشار ط . طهران ١٩٦٦ م .

(٤٧) هو أبو عبد الله أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الله خوارزمي المشهور بنجم الدين كبرى الملقب بالطامة الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ وله مؤلفات كثيرة في اللغة الفارسية واللغة العربية .

(٤٨) «آداب الصوفية» لنجم الدين كبرى (فارسي) ص ٢٨ ط كتاب فرشى زوار هجرى قمرى ايران

فعليه أن يلبس الصوف الأزرق، لأنه لون السماء»^(٤٩).

ويترشح أيضا من كلام أبي طالب المكي^(٥٠) في قوته بأنه أيضا من الذين يرجحون اشتقاقه من الصوف، حيث يورد رواية مكذوبة على رسول الله ﷺ أنه قال:

ألبسوا الصوف، وشمروا، وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء»^(٥١).

ولكن القشيري أبا القاسم عبد الكريم^(٥٢) ردّ على هذا الرأي وذاك، حيث قال في رسالته:

«فأما قول من قال: إنه من الصوف، ولهذا يقال: تصوّف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمّص إذا لبس القميص، فذلك وجه. ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

ومن قال: انهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ، فالنسبة إلى الصفة لانحىء على نحو الصوفي.

ومن قال: إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة.

وقول من قال: انه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف»^(٥٣).

وأما الصوفي الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى ٨٩٨هـ فلقد ذكر في نفحاته أنه مأخوذ من الاستصفاء، مستدلاً بكلام الصوفي المشهور عبد الله بن خفيف أنه

(٤٩) نفس المصدر.

(٥٠) هو أبو طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي، قيل فيه: هو شيخ الصوفية وأهل السنة، المتبحر في التفسير وغيره من أهل العلم وله تفسير كبير، وكتابه «قوت القلوب» كتاب جليل (الصفحة الأولى من كتابه) توفي سنة ٣٨٦هـ ببغداد.

(٥١) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي ج ٢ ص ١٦٧ ط المطبعة الميمنية مصر ١٣١٠هـ.

(٥٢) هو أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري الشافعي قيل فيه: هو الإمام مطلقا، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب... لسان عصره، وسر الله في خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة (مقدمة كتاب الرسالة القشيرية ص ١٥)، وقال عنه أبو الحسن الباهرزي: لو ارتبط إبليس في مجلسه لتاب (دعوى القصص)، توفي سنة ٤٦٥هـ.

(٥٣) الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ج ٢ ص ٥٥٠ ط مطبعة حسان القاهرة ١٩٧٤.

قال: الصوفي من استصفاه الحق لنفسه تودّداً (٥٤).

وقريباً من ذلك قال قبله صوفي فارسي آخر، وهو عبد العزيز بن محمد النسفي: إن التصوف مأخوذ من الصفوة (٥٥).

ولقد ذكر في أصل التصوف واشتقاقه أقوال أخرى، منها ما ذكرها الامام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، والامام ابن تيمية، عند ذكرهما التصوف والصفوة، واللفظ للأول:

«قد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة. وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل وملازمة الفقر فإن أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله ﷺ وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ وقيل أهل الصفة. والحديث بإسناد عن الحسن. قال بنيت صفة لضعفاء المسلمين فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير. وكان رسول الله ﷺ يأتيهم فيقول: السلام عليكم يا أهل الصفة. فيقولون: وعليك السلام يا رسول الله. فيقول كيف أصبحتم. فيقولون بخير يا رسول الله. وبإسناد عن نعيم بن المجر عن أبيه عن أبي ذر قال كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل فيبقى من بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤثرنا النبي ﷺ بعشائه فتتعشى فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ. ناموا في المسجد.

قال المصنف: وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة. وإنما أكلوا الصدقة ضرورة. فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا، ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط لأنه لو كان كذلك لقليل صفي، وقد ذهب إلى أنه من الصوفانية وهي بقلّة رعناء قصيرة. فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء وهذا أيضاً غلط لأنه لو نسبوا إليها لقليل صوفائي. وقال آخرون هو منسوب إلى صوفة القفا. وهي الشجرات النابتة في مؤخرة كأن الصوفي عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق (٥٦).

(٥٤) نحات الأنس (الفارسي) للجامي ص ١٢ إيران ١٣٣٧ هجري شمسي.

(٥٥) كشف الحقائق لعبد العزيز النسفي بتحقيق وتعليق الدكتور أحمد مهدوي ص ١٢٠ ط طهران

١٣٥٩ هجري قمرى.

(٥٦) تليس ابليس لابن الجوزي المتوفى ٥٩٧ ص ١٥٧ دار القلم بيروت، أيضاً الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ط دار الفتح القاهرة ١٩٨٤ م، أيضاً تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية صادق نشأت ص ٦٠، ٦١ ط مكتبة النهضة المصرية.

وقيل : ان أصل التصوف منسوب إلى صوفة ، فيقول ابن الجوزي :

قال أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ : قال : سألت وليد بن القاسم : إلى أى شيء ينسب الصوفي .

فقال : كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة ، انقطعوا إلى الله عز وجل ، وقطنوا الكعبة ، فمن تشبه بهم فهم الصوفية ، قال عبد الغني : فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر بن أخى تميم بن مر^(٥٧) .

وبمثل ذلك ذكره أهل اللغة والمعاجم^(٥٨) .

وهناك البعض الآخرون من المتقدمين والحديثين أدلوا بدلوهم ، وأبدوا رأيهم في هذا ، فمن المتقدمين البيروني أبو الریحان المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، الذي نسب التصوف إلى سوفيا اليونانية ، معناها الحكمة ، فلقد لخص كلامه صادق نشأت نقلا عن كتابه (ذكر ما للهند من مقولة مقبولة أو مردولة) ، وهذا نصه :

«إن قدماء اليونان أى الحكماء السبعة مثل سولن الأثيني وطاليس المالمطى كانوا يعتقدون قبل تهذيب الفلسفة بعقيدة الهنود ، بأن الأشياء إنما هي شيء واحد وكانوا يقولون ليس للإنسان فضل على الجماد والنبات إلا بسبب القرب إلى العلة الأولى في الرتبة ، وكان بعضهم يعتقد أن الوجود الحقيقي هو العلة الأولى نفسها لأنها غنية بذاتها وما سواها محتاج في الوجود إلى الغير فوجودها في حكم الخيال والحق هو الواحد الأول فقط ، ويقول في أعقاب هذا التفصيل . وهذا رأى السوفية وهم الحكماء ، فإن «سوف» باليونانية «الحكمة» وبها سمي الفيلسوف «بيلاسويا» أى محب الحكمة ، ولما ذهب في الاسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم ، ولم يعرف بعضهم اللقب فنسبهم للتوكل إلى الصفة وأنهم أصحابها في عصر النبي ﷺ ، ثم صحف بعد ذلك فصير من صوف التيوس وعدل أبو الفتح البستي عن ذلك أحسن عدول في قوله :

تنازع الناس في الصوفي واختلوا قدما وظنوه مشتقا من الصوفي
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

وكذلك ذهبوا إلى أن الموجود شيء واحد وأن العلة الأولى تترأى فيه بصور

(٥٧) تلييس ابليس لابن الجوزي الباب العاشر ص ١٥٦ .

(٥٨) انظر لسان العرب لابن منظور الأفيقي ج ٩ ص ٢٠٠ ط دار صادر بيروت ، والقاموس المحيط للفيروز

آبادي ج ٣ ص ١٦٩ ط مصطفى البابي الحلبي ، أيضا أساس البلاغة للزغشري ص ٢٦٢ ط احياء المعاجم العربية القاهرة .

مختلفة وتحمل قوتها في أبعاضه بأحوال متباينة توجب التغاير مع الاتحاد، فكان فيهم من يقول أن المنصرف بكليته إلى العلة الأولى متشبهها بها على غاية امكانه يتحد بها عند ترك الوسائل وخلع العلائق والعوائق وهذه آراء يذهب إليها الصوفية لتشابه الموضوع وكانوا يرون في الأنفس والأرواح أنها قائمة بذواتها قبل التجسد بالأبدان معدودة مجندة تتعارف وتتناكر» (٥٩).

وهذا القول قال فون هامر المستشرق الألماني، وعبد العزيز اسلامبولي، ومحمد لطفي جمعة من الحديثين (٦٠).

بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة (صوفي) والكلمة اليونانية (صوفيا)، وكذلك لوجه الشبه الموجود بين كلمة (تصوف) و(تيوصوفيا)، وأن كلمتي صوفي وتصوف أخذتا من الكلمتين اليونانيتين (سوفيا) و(تيوصوفيا) إلا أن نولدكه أثبت خطأ هذا الزعم كما أيده في ذلك نيكلسون، وماسينيون، وبالإضافة إلى البراهين القوية الأخرى التي أقامها نولدكه، فإنه يدل على أن (س) اليونانية نقلت إلى العربية كما هي سينا، لا صادًا كما أنه لا يوجد في اللغة الآرامية كلمة تعدّ واسطة لانتقال سوفيا إلى صوفي» (٦١).

فهذا هو الاختلاف الواقع في أصل لفظة التصوف واشتقاقها، ولذلك اضطر الصوفي القديم على الهجويري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ إلى أن يقول:

«إن اشتقاق هذا الاسم لا يصح من مقتضى اللغة في أي معنى، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشترك منه» (٦٢).

وبمثل ذلك قال القشيري في رسالته:

«ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق» (٦٣).

كما أنه مما لا شك فيه أنه لا يصح ولا يستقيم اشتقاقه من حيث اللغة إلا من

(٥٩) الكتاب المذكور ص ١٦ ط ليزيك نقلا عن تاريخ التصوف في الإسلام ترجمة عربية لصادق نشأت ص ٦٧، ٦٨.

(٦٠) انظر التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق لركى مبارك ج ١ ص ٥١ ط دار الجليل لبنان، أيضا أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٥٣.

(٦١) انظر تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص ٦٧، ٦٨.

(٦٢) كشف المحجوب للهجويري ترجمة عربية دكتورة اسعاد عبد الهادي قنديل ص ٢٣٠ ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م.

(٦٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري ج ٢ ص ٥٥٠ دار الكتب الحديثة القاهرة.

الصوف، ولو أنه هو اختيار الكثيرين من الصوفية وغيرهم كالطوسي، وأبى طالب المكي، والسهروردي وأبى المفاخر يحيى باخرزي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن خلدون من المتقدمين.

والاستاذ مصطفى عبد الرزاق، والدكتور زكي مبارك، والدكتور عبد الحلیم محمود، والدكتور قاسم غنى، ومن المستشرقين مرجليوس، ونيكلسون، وماسينيون، ونولدكه وغيرهم من المتأخرين، مع انكار ذلك من أعلام الصوفية وأقطابها كما مرّ سابقاً.

ومن الطرائف أن الدكتور زكي مبارك استشهد القشيرية على ردّ من جعل اشتقاق التصوف من الصفاء بالقشيري، واستند إلى قوله قائلاً:
«وقد استبعد ذلك القشيري وهو من أقطاب الصوفية»^(٦٤).

مع أنه هو نفسه يورد بعد أسطر من هذا الاستشهاد والاستناد رأيه في الموضوع بأن التصوف مأخوذ من الصوف، مع أن القشيري ردّ على هذا كما ردّ على ذلك.
وأطرف من ذلك أن السراج الطوسي من متقدّمي الصوفية هو الآخر من يرجح نسبة التصوف إلى الصوف كما مرّ سابقاً، ولكنه نفسه يردّ كلامه حيث يذكر عن يحيى بن معاذ الرازي أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره، ثم كان في آخر عمره يلبس الخبز واللين . . . وأن أبا حفص النيسابوري كان يلبس قميصاً خزا وثياباً فاخرة، ثم ذكر: وآداب الفقراء في اللباس أن يكونوا مع الوقت إذا وجدوا الصوف أو اللبدة أو المرقعة لبسوا، وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا»^(٦٥).

هذا ومثل هذا كثير في كتب الآخرين من الصوفية المتقدمين منهم والمتأخرين. ولا بأس بنقل عبارات مختصرة عن مصطفى عبد الرزاق حيث يقول:

أما أصل هذا التعبير فالأقاويل فيه كثيرة:

فمن مرجح أنه لفظ جامد غير مشتق كالقشيري.

ومن قائل: أنه مشتق من الصفاء أو الصفو.

ومن قائل: أن اللفظ مأخوذ من الصوف لأن لباس الصوف كان يكثر في

الزهاد.

(٦٤) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك ج ١ ص ٥١.

(٦٥) انظر اللمع للطوسي ص ٢٤٩.

وقال قائلون : إن الصوفية نسبة إلى الصفة التي ينسب إليها كثير من الصحابة . . . لكن النسبة إلى الصفة لا تنجىء على الصوفي، بل على الصفي .
وتم أقوال ضعيفة أخرى، كالقول بأن الصوفي نسبة إلى الصف الأول، لأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمناجاة .

وكالقول بأنهم منسوبون إلى صوفة القفا .
أو منسوبون إلى صوفة بن مروان .

وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف، وأن المتصوف مأخوذ منه أيضا، فيقال : تصوف إذا لبس الصوف^(٦٦) .
وأظن أن هذا الذي أوقع أحد الكتاب في التصوف في بحار الحيرة، وجعله مضطرا إلى أن يردد بعد ملاحظة هذه الاختلافات الكثيرة في أصل كلمة التصوف واشتقاقها، ونقل أقوالهم فيه .

«هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى أمام من يسألهم عن معنى اسمهم . . . وهذا دليل على أمر من أمور ثلاثة، أما أن التصوف سر، وأما أنه أمر خلافي بحث، وأما أنه متعدد الجوانب كالفن الغنى، وسوف نترك للقارئ أن يجد الجواب بنفسه»^(٦٧) .

(٦٦) التصوف لمصطفى عبد الرزاق ص ٥٧ إلى ٦٢ ط دار الكتاب اللبناني بيروت .

(٦٧) بحار الحب عند الصوفية لأحمد بهجت ص ٣٢ ط المختار الإسلامي القاهرة .

الفصل الثالث

تعريف التصوف

ولا يقل اختلاف الصوفية في اختلاف تعريف التصوف عن اختلافهم في أصله واشتقاقه، بل ازدادوا تعارضا وتناقضا فيه كثيرا، ولقد ذكر صوفي فارسي قطب الدين أبو المظفر منصور بن أردشير السنجي المروزي المتوفى سنة ٤٩١ هـ أكثر من عشرين تعريفا (٦٨).

وكذلك السراج الطوسي (٦٩).

والكلا باذى (٧٠).

والسهروردي (٧١).

وابن عجيبة الحسني (٧٢).

وأما القشيري فلقد ذكر في رسالته أكثر من خمسين تعريفا من الصوفية المتقدمين (٧٣). كما ذكر المستشرق نيكلسون ثمانية وسبعين تعريفا (٧٤).

وليس معنى ذلك أن هذا العدد هو الأخير في تعريف التصوف، بل ذكر السراج في لمعه أن تعريفاته تتجاوز مائة تعريف (٧٥).

وقال السهروردي: «وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول» (٧٦).

(٦٨) انظر مناقب الصوفية فارسي ص ٣١ وما بعد باهتمام محمد تقى دانش بيوه وايرج أفشار طهران ١٣٦٢ هجرى قمرى.

(٦٩) انظر اللمع للطوسي ص ٤٥ وما بعد.

(٧٠) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ وما بعد.

(٧١) انظر عوارف المعارف ص ٥٣ وما بعد.

(٧٢) انظر ايقاظ الهمم ص ٤ وما بعد.

(٧٣) انظر الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٥١ وما بعد.

(٧٤) انظر في التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة عربية للدكتور أبي العلاء العفيفي ص ٢٨ وما بعد ط القاهرة.

(٧٥) كتاب اللمع للطوسي ص ٤٧.

(٧٦) عوارف المعارف للسهروردي ص ٥٧، أيضا نشر المحاسن الغالية لليافعى ج ٢ ص ٣٤٣.

وقال الحامدى: «الأقوال الماثورة في التصوف قيل: انها زهاء ألفين» (٧٧).

ونختار من هذه التعريفات الكثيرة بعضها نموذجا للقراء والباحثين، فينقل السراج الطوسى أن الجنيد سئل عن التصوف، فقال: «أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة».

وقال سمنون في جواب سائل سألته: أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء.

وقيل لأبى الحسين أحمد بن محمد النورى: من الصوفى؟

فقال: من سمع السماع وأثر بالأسباب» (٧٨).

وينقل القشيري عن الجنيد أنه قال: «التصوف عقدة لا صلح فيها».

وأیضا: هم أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم.

وعن أبى حمزة البغدادى أنه قال: علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة.

وعن الشبلى أنه قال: التصوف برقة مخرقة.

وعنه أنه قال: التصوف هو العصمة عن رؤية الكون» (٧٩).

ونقل منصور بن أردشير عن الحسين بن المنصور أنه قال في جواب من سألته عن الصوفى: هو وحدانى الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحدا» (٨٠).

ونقل محمد بن إبراهيم النفزى الرندى عن أحد الصوفية: أن الصوفى من كان دمه هدرا، وملكه مباحا» (٨١).

وذكر السلمى عن أبى محمد المرتعش النيسابورى أنه سئل عن التصوف، فقال: الاشكال والتلبس والكتمان.

وذكر عن أبى الحسين النورى أنه قال: التصوف ترك كل حظ النفس» (٨٢).

(٧٧) الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدى نقلا عن مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف، لمحمود النواوى

ص ١١.

(٧٨) اللمع للطوسى ص ٤٧ وما بعد.

(٧٩) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٥٠ وما بعد.

(٨٠) مناقب الصوفية لمصور بن أردشير ص ٣٣.

(٨١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية للنفزى الرندى ج ١ ص ٢٠٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم

محمود والدكتور محمد بن الشريف ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠ م.

(٨٢) طبقات السلمى ص ٣٨.

ونقل الكلاباذى وعبد السلام الأسمر الفيتورى عن الجنيد أنه سئل عن
التصوف، فقال:

تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات
البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم
الحقيقية.

وذكر عن سهل بن عبد الله التستري أنه سأل رجل: من أصحاب من طوائف
الناس؟

فقال عليك بالصوفية، فإنهم لا يستكثرون، ولا يستنكرون شيئا، ولكل فعل
عندهم تأويل، فهم يعذرونك على كل حال.
وعن يوسف بن الحسين أنه قال:

سألت ذا النون: من أصحاب؟ فقال: من لا يملك، ولا ينكر عليك حالا من
أحوالك، ولا يتغير بتغيرك وإن كان عظيما، فانك أحوج ما تكون إليه أشد ما كنت
تغيرا^(٨٣).

وذكر المهجورى أن الصوفى هو الفانى عن نفسه، والباقى بالحق قد تحرر من
قبضة الطبائع، واتصل بحقيقة الحقائق.

ونقل عن الجنيد أنه قال: التصوف نعت أقيم العبد فيه، قيل: نعت للعبد أو
نعت للحق؟

فقال: نعت الحق حقيقة، ونعت العبد رسما.

وعن الشبلى أنه قال: التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن الغير،
ولا غير^(٨٤).

وذكر عبد الرحمن الجامى أن الصوفى هو الخارج عن النعوت والرسوم. ونقل
عن أبى العباس النهاوندى أنه قال: التصوف بدايته الفقر^(٨٥).

وذكر العطار عن أبى الحسن الخرقانى أنه قال: «ان التصوف عبارة عن الجسم
الميت والقلب المعدوم والروح المحرقة.

(٨٣) التعرف للكلاباذى ص ٣٤، ٣٥، أيضا الرصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتورى ص ٣٧ ط مكتبة
التحاج طرابلس ليبيا الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

(٨٤) انظر كشف المحجوب للمهجورى ص ٢٣١ وما بعد.

(٨٥) نفحات الأنس للجامى (فارسى) ص ١٢.

وأنه قال:

ان الخلق كله مخلوق، والصوفي غير مخلوق، لأنه معدوم، أو أن الصوفي من عالم الأمر، لا من عالم الخلق» (٨٦).

ونقل العطار أيضا عن الجنيد أنه قال:

«الصوفي هو الذى سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد» (٨٧).

وقال الصوفي الهندي فريد الدين الملقب بكنج شكر: «إن التصوف أن لا يبقى في ملكك شيء، ولا يبقى وجودك في مكان.

وقال: ان أهل التصوف يقيمون صلواتهم على العرش يوميا.

وقال: ان الصوفي من لا يخفى على قلبه شيء» (٨٨).

فهذه هي تعريفات التصوف والصوفية لدى أعلام الصوفية وأقطابهم أنفسهم، نقلناها من كتبهم، تضاربت فيها آراء القوم، وتعارضت فيها أقوالهم، لاجمع بينهما ولا وفاق رغم ما ادعاه بعض المتأخرين، وحاولوا التوفيق ولكن دونه خطر القتاد، لأن كل تعريف مستقل عن التعريف الآخر، وجتى التعريفات العديدة التي صدرت عن شخص واحد تباعد بعضها عن بعض كل البعد وهذا التباعد ظاهر جلي لكل من نظر فيها وقرأها قراءة تأمل وتدبر، وتحقق وتعمق.

ويجدر الإشارة ههنا إلى أن تعريفات التصوف المتعددة التي ذكرناها واخترناها من تعريفات كثيرة جدا تنبىء صراحة عن حقيقة ادعاء علاقة التصوف بالاسلام، وكونه روحه وعصارته (٨٩).

الأمر الذي سوف يفصل الكلام فيه، في الأبواب القادمة إن شاء الله تعالى.

(٨٦) تذكرة الأولياء للعطار ص ٢٨٨ وما بعد ط باكستان، أيضا أحوال وأقوال شيخ أبي الحسن الخرقاني (فارسي) الطبعة الثالثة ١٣٦٣ هجرى قمرى ايران.

(٨٧) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (أردو) تحت ذكر الجنيد ص ١٩٢ ط باكستان.

(٨٨) أسرار الأولياء ص ١٢٨، ١٢٩ ط باكستان.

(٨٩) انظر الإنسان والإسلام لمحمد طاهر الحامدي، ومقدمة التعرف لمحمود أمين النواوى.

بَدْءُ التَّصَوُّفِ وَظُهُورُهُ

إن الناس اختلفوا في بدء ظهور هذه الكلمة واستعمالها كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزي وابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيخوخ كالامام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري (٩٠).

وقال السراج الطوسي في الباب الذي خصصه للرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مستحدث: يقول في هذا الباب:

«إن سأل سائل فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العباد والزهاد والسيّاحين والفقراء، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ: صوفي، فنقول وبالله التوفيق.

الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمة، ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ، فلما نسبوا إلى الصحبة والتي هي أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال وبالله التوفيق.

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم، وقد روى عنه أنه قال: رأيت صوفيّاً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معى أربعة دنانير يكفيني ما معي.

(٩٠) الصوفية والفقراء شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥ ط القاهرة، أيضاً مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧، تليس ابليس لابن الجوزي ص ١٥٧ ط دار القلم بيروت لبنان.

وروى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذكر في الكتاب الذي جُمع فيه أخبار مكة عن محمد بن اسحاق بن يسار، وعن غيره يذكر فيه حديثاً: أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم» (٩١).

وبمثل ذلك قال السهروردي: «وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل: كان في زمن التابعين - ثم نقل عن الحسن البصري ما نقلناه عن الطوسي أيضاً - ثم قال: وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية» (٩٢).

وصرح عبد الرحمن الجامي:

«ان أبا هاشم الكوفي أول من دعى بالصوفي، ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم، كما أن أول خانقاه بنى للصوفية هو ذلك الذي في رملة الشام، والسبب في ذلك أن الأمير النصراني كان قد ذهب للقنص فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفية سرح له لقاءهما وقد احتضن أحدهما الآخر وجلسا هناك، وتناولا معا كل ما كان معهما من طعام، ثم سارا لشأنهما، فسرَّ الأمير النصراني من معاملتهما وأخلاقهما، فاستدعى أحدهما، وقال له: من هو ذاك؟

قال: لا أعرفه، قال: وما صلتك به؟

قال: لا شيء. قال: فمن كان؟

قال لا أدري، فقال الأمير: فما هذه الألفة التي كانت بينكما؟

فقال الدرويش: ان هذه طريقتنا، قال: هل لكم من مكان تأوون إليه؟

قال: لا، قال: فإنني أقيم لكما محلاً تأويان إليه، فبنى لهما هذه الخانقاه في الرملة» (٩٣).

وأما القشيري فقال:

(٩١) اللمع للطوسي ص ٤٢، ٤٣، أيضاً الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسني ص ٥٣ ط عالم الفكر القاهرة.

(٩٢) عوارف المعارف للسهروردي ص ٦٣.

(٩٣) نفحات الأنس للجامي الطبعة الفارسية ص ٣١، ٣٢ ط ايران.

اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة» (٩٤).

وأما المهجويرى فلقد ذكر أن التصوف كان موجودا في زمن رسول الله ﷺ، وباسمه، واستدل بحديث موضوع مكذوب على رسول الله ﷺ أنه قال: «من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين» (٩٥).

مع أنه نفسه كتب في نفس الباب في آخره شارحا كلام أبي الحسن البوشنجي «التصوف اليوم اسم بلا حقيقة، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم»، فكتب تحته موضعا:

«يعنى أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف، وكان المعنى موجودا في كل منهم، والآن يوجد الاسم، ولا يوجد المعنى» (٩٦).

وأما المستشرقون الذين كتبوا عن التصوف، ويعتدون من موالى الصوفية وأنصارهم، فمنهم نيكلسون فانه يرى مثل ما يراه الجامى أن لفظة التصوف أطلقت أول ما أطلقت على أبى هاشم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ (٩٧).

ولكن المستشرق الفرنسى المشهور ماسينيون يرى غير ذلك، فيقول:

ورد لفظ الصوفى لأول مرة في التاريخ في النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى اذ نعت به جابر بن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعى من أهل الكوفة، له في الزهد مذهب خاص، وأبو هاشم الكوفي الصوفى المشهور.

أما صيغة الجمع (الصوفية) التى ظهرت عام ١٨٩ هـ (٨١٤ م) في خبر فتنة قامت بالأسكندرية فكانت تدل قرابة ذلك العهد على مذهب من مذاهب التصوف الاسلامى يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة، وكان عبدك الصوفى آخر أئمتته، وهو من القائلين بأن الامامة بالارث والتعيين، وكان لا يأكل اللحم، وتوفى ببغداد حوالى عام ٢١٠ هـ.

واذن فكلمة صوفى كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة» (٩٨).

(٩٤) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٣ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وعمود الشريف، أيضا جهرة الأولين للمنفى الحسينى ج ١ ص ٢٦٩ ط مؤسسة الحلبي القاهرة.

(٩٥) كشف المحجوب للمهجويرى ترجمة عربية ص ٢٢٧.

(٩٦) أيضا ص ٢٣٩.

(٩٧) انظر في التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية لأبى العلاء العفيفى ص ٣ ط القاهرة.

(٩٨) دائرة المعارف الإسلامية اردوج ٦ ص ٤١٩ ط جامعة بنجاب باكستان، أيضا دائرة المعارف الإسلامية

الطبعة العربية مادة تصوف ج ٥ ص ٢٦٦.

وقال أيضا :

صاحب عزلة بغدادى ، وهو أول من لقب بالصوفى ، وكان هذا اللفظ يومئذ يدل على بعض زهاد الشيعة بالكوفة ، وعلى رهط من الثائرين بالأسكندرية ، وقد يعدّ من الزنادقة بسبب امتناعه عن أكل اللحم ، ويريد الأستاذ أول من لقب بالصوفى في بغداد كما يؤخذ مما نقله عن الهمذانى ، ونصه :

ولم يكن السالكون لطريق الله في الأعصار السالفة والقرون الأولى يعرفون باسم المتصوفة ، وإنما الصوفى لفظ اشتهر في القرن الثالث ، وأول من سمي ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفى ، وهو من كبار المشائخ وقدمائهم ، وكان قبل بشر بن الحارث الخافى والسررى بن المفلس السقطى «(٩٩)» .

والجدير بالذكر أن هؤلاء الثلاثة الذين يقال عنهم بأنهم أول من سمّوا بهذا الاسم ، وتلقبوا بهذا اللقب مطعونون في مذاهبهم وعقائدهم ، ورمى كل واحد منهم بالفسق والفجور وحتى الزندقة ، وخاصة جابر بن حيان ، وعبدك كما سيأتى ذلك مفصلا في محله من الكتاب إن شاء الله .

وقد سبق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية حيث قال : «إن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك» «(١٠٠)» .
ويمثل ذلك قال ابن خلدون «(١٠١)» .

فخلاصة الكلام أن الجميع متفقون على حداثة هذا الاسم ، وعدم وجوده في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين .

نعم ، كان رسول الله ﷺ أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها ، وأصحابه على سيرته وطريقته ، يعدّون الدنيا وما فيها هوا ولعبا ، زائلة فانية ، والأموال والأولاد فتنة ابتلى المؤمنون بها ، فلم يكونوا يجعلون أكبر همهم إلا ابتغاء مرضاة الله ، يرجون لقاءه وثوابه ، ويخافون غضبه وعقابه ، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه ، ومجتنبين عنها ما نهى الله عنه ، سالكين مسلك الاعتدال ، متتهجين منهج المقتصد ، غير باغين ولا عاذين . مفرطين ولا متطرفين ، وعلى رأسهم بعد رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون ،

(٩٩) التصوف لماسينيون ومصطفى عبد الرزاق ص ٥٥ ، ٥٦ ط دار الكتاب اللبناني ١٩٨٤م ، أيضا تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية لصديق نشأت ص ٦٤ ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
(١٠٠) انظر الصوفية والقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥ .
(١٠١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٦ .

وبقية العشرة المبشرة، ثم البديرون، ثم أصحاب بيعة الرضوان، ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ثم عامة الأصحاب، على ترتيب الأفضلية كما مرّ سابقا في الفصل الأول من هذا الباب.

وتبعهم في ذلك التابعون لهم باحسان، واتباع التابعين، أصحاب خير القرون، المشهود لهم بالخير والفضيلة، ولم يكن هؤلاء كلهم في غير رسول الله أسوة ولا قدوة، الذي قال فيه جل وعلا:

﴿ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (١٠٢).

والذى إذا وجد طعاما فأكل وشكر، وإذا لم يجد فرضى وصبر، وأحبّ ليس الثياب البيض، واكتسب جبّة رومية، ونهى عن التصدق بأكثر من ثلث المال، وأمر بحفظ حقوق النفس والأهل والولد، ونهى عن تعذيب النفس واتباع الجسد فوق الطاقة، وكما أنه نهى هو نفسه عن قيام الليل كله، لإراحة الجسد والبدن، وحرّض متبعيه على طلب الحلال، وطلب الحسنات في الدنيا والآخرة، ومنع الله تعالى من التعتن والتطرف في ترك الدنيا وطيباتها في آيات كثيرة في القرآن الكريم، سنورها في موضعها من الكلام إن شاء الله.

ثم خلف من بعدهم خلف فتطرفوا، وذهبوا بعيدا في نعيم الدنيا وزخارفها، وفتحت عليهم أبواب الترف والرخاء، ودرّت عليهم الأرض والساء، وأقبلت عليهم الدنيا بكنوزها وخزائنها، وفتحت عليهم الآفاق، فانغمسوا في زخارفها وملذاتها، وبخاصة العرب الفاتحون الغزاة، والغالبون الظاهرون، فحصل ردّ الفعل، وفي نفوس المغلوبين المغزوين والمقهورين، من الموالي والفرس والمفلسين وأصحاب النفوس الضعيفة المتوانية خاصة، فهربوا عن الحياة ومناضلتها، وجدها وكدها، ولجأوا إلى الخانقاوات والتكايا والزوايا والرباطات، فرارا من المبارزة والمناضلة، وصبغوا هذا الفرار والانهمام وردّ الفعل صبغة دينية، ولون قداسة وطهارة، وتنزه وقراءة، كما كان هنالك أسباب ودوافع ومؤثرات أخرى، وكذلك أيدى خفية دفعتهم إلى تكوين فلسفة جديدة للحياة، وطراز آخر من المشرب والمسلك، وأسلوب جديد للعيش والمعاش، فظهر التصوف بصورة مذهب مخصوص، وبطائفة مخصوصة.

(١٠٢) سورة الضحى من الآية ٦ إلى آخر السورة.

اعتنقه قوم، وسلكه أشخاص ساذجون بدون تفكير كثير، وتدبر عميق كمسلك الزهد، ووسيلة التقرب إلى الله، غير عارفين بالأسس التي قام عليها هذا المشرب، والقواعد التي أسس عليها هذا المذهب، بسذاجة فطرية، وطيبة طبيعية، كما تستر بقناعه، وتتقب بنقابه بعض آخرون لهدم الاسلام وكيانه، وإدخال اليهودية والمسيحية في الاسلام، وأفكارهما من جانب، والزرادشتية والمجوسية والشعبوية من جانب آخر، وكذلك الهندوكية والبوذية والفلسفة اليونانية الأفلاطونية من ناحية أخرى، وتقويض أركان الإسلام وإلغاء تعاليم سيد الرسل ﷺ، ونسخ الاسلام وابطال شريعته بنعرة وحدة الوجود، ووحدة الأديان، واجراء النبوة، وترجيح من يسمى بالولى على أنبياء الله ورسله، ومخالفة العلم، والتفريق بين الشريعة والحقيقة، وترويج الحكايات والأباطيل والأساطير، باسم الكرامات والخوارق وغير ذلك من الخرافات والترهات. فلم يظهر التصوف مذهبا ومشربا، ولم يرج مصطلحاته الخاصة به، وكتبه، ومواجيده وأناشيده، تعاليمه وضوابطه، أصوله وقواعده، وفلسفته، ورجاله وأصحابه إلا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده.

وبذلك يقول ابن الجوزى في كتابه تلبيس ابليس:

«كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام. فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعب، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها. ثم قال: وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وجعله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة... وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس عليهم ابليس في أشياء، ثم لبس على بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن التالي فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من لواه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم. وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع.

وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فهدبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماح والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم ما زال الأمر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء لابل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر. ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه فكأنهم تحايلاوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به. وهؤلاء بين الكفر والبدعة ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق. ففسدت عقائدهم. فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد. وما زال إبليس يخطبهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من روعهم في الطعام وإنسائطهم في القرآن. وقد أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن القزاز. قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري قال كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئاً يسيراً فلما مات الحاكم أبو عبد الله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه. وكان يضع للصوفية الأحاديث.

وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المردول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى. وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه من أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول - قال بعض المكاشفين - وهذا كلام فارغ وذكر فيه عن بعض الصوفية إن الله عز وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه. أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال أبو طاهر محمد بن العلاف. قال: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فأنتمى إلى مقالته وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلط في كلامه فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضر من الخالق. فبدعه

الناس وهجره فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك قال الخطيب . وصنف أبو طالب المكي كتاباً سماه قوت القلوب على لسان الصوفية وذكر فيه أشياء منكراً مستبشرة في الصفات .

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية . وذكر في حدود التصوف أشياء منكراً قبيحة ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضى الله عنهم . فذكر عنهم فيه العجب وذكر منهم شريحاً القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية الفضيل وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد .

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما . أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبد الكريم بن هوزان القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء . والبقاء . والقبض . والبسط . والوقت . والحال . والوجد والوجود . والجمع . والتفرقة . والصحو . والسكر . والذوق . والشرب . والمحو . والإثبات . والتجلى . والمحاضرة والمكاشفة . واللوائح والطوابع . واللوامع . والتكوين . والتمكين والشرعية . والحقيقة . إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه ، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفوة التصوف فذكر فيه أشياء يستحى العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول : كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة : قال وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المراد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين قال : رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها . فقبل له تصلى عليها فقال صلى الله عليها وعلى كل مليح . قال شيخنا ابن ناصر . وليس ابن طاهر بمن يحتاج به ، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الأحياء على طريقة القوم ومبلاه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه . وقال أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات . وهذا من جنس كلام الباطنية . وقال في كتابه المفصّل بالأحوال . إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء

وَنَسْمَعُونَ مِنْهُمْ أَصْوَاتاً وَيَقْتَبِسُونَ مِنْهُمْ فَوَائِدَ ثُمَّ يَتَرَقَّى الْحَالُ مِنْ مَشَاهِدَةِ الصُّورَةِ إِلَى دَرَجَاتٍ يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ النَّطْقِ» (١٠٣).

فَهَكَذَا كَوَّنَ هَذَا الْمَذْهَبُ، وَصَارَ مُسْتَقِلًّا بِمِبَادِئِهِ وَأَرَائِهِ، لَهُ مَصَادِرُهُ وَمُرَاجِعُهُ، تَعَالِيمُهُ، وَمَنَاهِجُهُ، وَسَوْفَ نَبْحَثُ فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ عَنْ مَصَادِرِهِ وَمُرَاجِعِهِ، تَعَالِيمَهُ وَرُسُومَهُ.

وَالِإِلى هُنَا نَأْتِي إِلَى آخِرِ هَذَا الْبَابِ.

(١٠٣) تَلِيْس اِبْلِيسْ لَابِنِ الْجَوْزِي ص ١٥٦ إِلَى ١٦٠ ط دار القلم بيروت لبنان.

مَصَادِرُ التَّصَوُّفِ وَمَا اخَذَهُ

إن أمر التصوف كله مختلف فيه، فكما اختلف في أصله واشتقاقه، وحده وتعريفه، بدئه وظهوره، وفي أول من تسمى به وتلقب به، كذلك اختلف في منبعه ومأخذه، ومصدره ومرجعه، فتشعبت الآراء وتنوعت الأقوال، وتعددت الأفكار. فقال قائل: إنه إسلامي بحث في أشكاله وصوره، ومبادئه ومناهجه، وأصوله وقواعده، وأغراضه ومقاصده، حتى في ألفاظه وعباراته، وفلسفته وتعاليمه، ومواجيده وأناشيده، ومصطلحاته ومدلولاته، وهذا هو ادعاء الصوفية ومن والاهم، وناصرهم، ودافع عنهم.

وقال قوم: لا علاقة له بالإسلام إطلاقاً، قريبة ولا بعيدة في اليوم الذي نشأ فيه، ولا بعد ما تطور، وهو أجنبي عنه كاسمه، فلذلك لا يفتش عن مصادره ومأخذه في القرآن والسنة وارشاداتهما، بل يبحث عنها في الفكر الأجنبي، وهو رأى أكثر السلفيين ومن نهج منهجهم وسلك مسلكهم وكذلك الفقهاء والمتكلمين من أهل السنة من المتقدمين، والأكثرية الساحقة من المستشرقين، والكثيرين من الباحثين والمفكرين المتحررين من الجمود وعصبية التقليد، من المتأخرين.

وقالت طائفة: إنه اسم للزهد المتطور بعد القرون المشهود لها بالخير كرد فعل لزخرفة المدنية وزينتها التي انفتحت أبوابها على المسلمين بعد الغزوات والفتوحات وانغماسهم في ترف الدنيا ونعيمها، ثم حصلت فيه التطورات، ودخلت أفكار أجنبية والفلسفات غير الإسلامية وذهب إلى هذا الرأي ابن تيمية والشوكاني من السلفيين وغيرهم من بعض أعلام أهل السنة، حتى الصوفية أنفسهم وبعض المستشرقين.

وقال الآخرون: إن التصوف وليد الأفكار المختلطة من الإسلام واليهودية والمسيحية ومن المانوية والمجوسية والمزدكية، وكذلك الهندوكية والبوذية، وقبل كل ذلك من الفلسفة اليونانية وآراء الأفلاطونية الحديثة، وتمسك بهذا الرأي بعض الكتاب في الصوفية من المسلمين وغير المسلمين.

فهذه هى خلاصة الاختلاف والآراء المختلفة فى أصل التصوف ومأخذه،
نناقشها فى هذا الباب، ونقدم رأينا الذى نراه من بين هذه الآراء المتعددة، بالأدلة
والشواهد، الخارجية منها والداخلية، فنقول: إن أفضل طريق للحكم على طائفة
معينة وفئة خاصة من الناس هو الحكم المبني على آرائه وأفكاره التى نقلوها فى كتبهم
المعتمدة والرسائل الموثوق بها لديهم بذكر النصوص والعبارات التى يبنى عليها الحكم،
ويؤسس عليها الرأى ولا يعتمد على أقوال الآخرين ونقل الناقلين، اللهم إلا
للاستشهاد على صحة استنباط الحكم واستنتاج النتيجة.

وهذه الطريقة ولو أنها طريقة وعرة وشائكة، صعبة مستعصية، وقل من يختارها
ويسلكها، ولكنها هى الطريقة الصحيحة المستقيمة التى يقتضيها العدل والانصاف.

وعلى ذلك عند ما نتعمق فى تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر، وأقاويلهم
المنقولة منهم، والمأثورة فى كتب الصوفية، القديمة والحديثة نفسها، نرى بونا شاسعا
بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة، وكذلك لانرى جذورها وبذورها فى سيرة سيد
الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الكرام البررة خيار خلق الله وصفوة
الكون، بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهينة المسيحية، والبرهنة
الهندوكية، وتنسك اليهودية، وزهد البوذية، والفكر الشعبوى الإيرانى المجوسى عند
الأوائل، والغنوصية اليونانية والأفلاطونية الحديثة لدى الذين جاءوا من بعدهم،
وتدل على ذلك تعريفات القوم للتصوف، التى نقلناها عن كبارهم فيما سبق^(١).

وكما تنطق وتشهد تعاليمهم التى هى بمثابة الأسس للتصوف، والضوابط لمن
يدخل فى طريقهم.

فنبداً أولاً بإبراهيم بن أدهم، وهو من الطبقة الأولى وأئمة التصوف الأوائل،
وكثيراً ما تبدأ كتب طبقات الصوفية بذكره واسمه، ولا يخلو كتاب من كتب التصوف
وسيرته.

وما يذكر بياناً لشأنه الرفيع ومكانته السامية أنه كان من أبناء الملوك وملكا بلبخ،
تزوج من امرأة جميلة، وله ولد، ولكنه ترك الملك والزوجة والأولاد، وكل ما كان
يملكه، للنساء الغيبى، أول لقاء الخضر الذى لقنه ذلك، مثل ما ترك بوذا ملكه
وزوجته، وابنه وملاذ الدنيا وزخارفها طبقاً بطبق، وحذو القذة بالقذة، خلافاً لتعاليم

(١) انظر انفصل إثنالث من الباب الأول من هذا الكتاب.

الاسلام وأسوة الرسول وسيرة أصحابه ، ولا يوجد له أى مثال في الكتاب ولا في السنة ، ولا من السلف الصالح ومع ذلك يبجل الصوفية ذكره ، ولذلك يجعلونه قدوة يقتدى ، ومثالا يحتذى ، ويفتخرون بذكره وأحواله ، مع أن أحواله تلك ليست إلا ناطقة بالبوذية المنسوخة الممسوخة التي لم ينزل الله بها من سلطان .

فنود أن نورد تلك الحكاية الصوفية الباطلة ، من التصوف القديم الأصيل ، ومن الصوفي الذي يعدّ من الأعلام والأقطاب مقارنة بقصة بوذا ، المنقولة من الكتب البوذية ، ولييان أنها تشتمل على ترهات وأكاذيب فاحشة مكشوفة تنطق بكونها مختلفة موضوعة مكذوبة ، وننقل هذه القصة من تذكرة صوفية قديمة (تذكرة الأولياء) لفريد الدين العطار ، مقتبسين ترجمتها العربية من صادق نشأت :

«إن إبراهيم بن أدهم كان ملكا لبخ ، وتحت أمرته عالم ، وكانوا يحملون أربعين سيفاً من الذهب وأربعين عموداً من الذهب من أمامه ومن خلفه ، وكان نائماً ذات ليلة على السرير ، فتحرك سقف البيت ليلاً ، كأنها يمشى أحد على السطح ، فنادى : من هذا . ؟ فقال : صديق فقدت بعيراً أبحث عنه على هذا السقف ، فقال : أيها الجاهل ، أتبحث عن البعير فوق السطح . . . ؟ فقال له : وأنت أيها الغافل تطلب الوصول إلى الله في ثياب حريرية وأنت نائم على سرير من ذهب . . . ؟ فوقعت الهيبة في نفسه من هذا الكلام ، واندلعت في قلبه نار ، فلم يستطع النوم حتى الصباح ، وعندما أشرق الصبح ذهب إلى الايوان وجلس على السرير متحيراً مفكراً حزينا ، ووقف أركان الدولة كل في مكانه واصطف الغلمان وأذنوا اذنا عاما ، فدخل رجل مهيب من الباب بحيث لم يكن لأى أحد من الخدم أو الحشم الجرأة على أن يقول له من أنت ، ولم ينبسوا ببنت شفة ، وتقدم الرجل حتى واجه سرير إبراهيم ، فقال له : ماذا تريد . . ؟ قال : أنزل في هذا الرباط ، قال : ليس هذا برباط ، إنها هوقصرى ، وإنك لمجنون ، فقال : لمن كان هذا القصر قبل هذا؟ قال : كان لأبى ، قال : وقبل ذلك ، قال : كان ملكاً لجدى . . . وقبل ذلك؟ قال : ملكاً لفلان ، قال : أوليس الرباط هو ما يحل به أحد ويغادره الآخر . . ؟ قال هذا واختفى ، وكان هو أخضر عليه السلام ، فازدادت حرقة روح إبراهيم ولوعته ، وازداد ألمه حدة نتيجة لهذه الحال ، وازدادت هذه الحال من واحد إلى مائة ضعف ، إذ أنه رأى أنه قد اجتمع ما شاهده نهارة مع ما وقع ليلاً ، ولم يعرف ممن سمع ، ولم يعلم ماذا رأى اليوم ، فقال : أسرجوا الجواد لأنى أريد الذهاب للصيد ، فقد حدث لي اليوم

شيء لست أدرج ما هو، فيا الهى إلى أين تنتهى هذه الحال...؟ فأسرجوا له جوادا، وتوجه للصيد، فكان يتجول في البرية دهشا بحيث لم يعرف ماذا يفعل، فانفصل عن جيشه وهو في تلك الحال من الدهش، فسمع صوتا في الطريق يقول له: انتبه، فانتبه، ولم يصغ إليه، وذهب وجاءه هذا النداء للمرة الثانية، فلم يعره سمعا للمرة الثالثة نفس ذلك النداء، فأبعد نفسه عنه، وسمع للمرة الرابعة من يقول: «انتبه قبل أن تنبه» ففقد صوابه تماما وفجأة ظهرت غزالة شغل نفسه بها، فأخذت الغزالة تحاطبه قائلة: انهم يعثونى لصيدك، وانك لن تستطيع صيدى، ألهذا خلقت؟ أو هذا أمرت؟ انك خلقت للذي تعمله وليس لك عمل آخر، فقال إبراهيم: ترى ما هذه الحال...؟ وأشاح بوجهه عن الغزالة، فارتفع نفس ذلك الصوت الذي كان قد سمعه من الغزالة من قربوس السرج، فوقر في نفسه الخوف والفرع وازداد كشفا، وحيث أن الحق تعالى أراد أن يتم الأمر ارتفع ذلك الصوت ثلاث مرات أخرى من حلقة جييه، وبلغ ذلك الكشف هنا حد الكمال، وانفتح عليه الملكوت ونزل، وحصل له اليقين، فابتلت الملابس والجواد من ماء عينيه، وتاب توبة نصوحا، وانتحى ناحية من الطريق، فرأى راعيا يرتدى لبادا، وقد وضع قلنسوة من اللباد على رأسه، وأمامه الأغنام، فنظر فإذا هو عبده، فخلع قباءه المزركش وتاجه المرصع وأعطاهما له، ووجهه الأغنام وأخذ منه اللباد ولبسه ووضع قلنسوة اللباد على رأسه وطفق يسير راجلا في الجبال والبرارى هائما على وجهه ينوح من ذنوبه. ثم غادر المكان إلى أن بلغ نيسابور، فأخذ يبحث عن زاوية خالية يتعبد فيها حتى وصل إلى ذلك الغار المعروف واعتكف فيه تسعة أعوام.

ومن ذا الذي يعلم ما كان يفعله هناك في الليل والنهار، انه ينبغي أن يكون رجلا عظيما ذا مادة واسعة حتى يستطيع الإقامة في مثل ذلك المكان، وصعد إبراهيم يوم خميس إلى ظاهر الغار وجمع حزمة حطب واتجه في الصباح إلى نيسابور حيث باعها، وصلى الجمعة واشترى بثمر الحطب خبزا، وأعطى نصفه لفقير وتناول النصف الآخر، واتخذ منه أبطاره وداوم صيامه حتى الأسبوع التالي، وبعد أن وقف الناس على شأنه هرب من الغار وتوجه إلى مكة، وقيل أنه بقى أربعة عشر عاما يطوى البادية حيث كان يصلى ويتضرع طوال الطريق حتى أشرف على مكة، وروى أنه كان له طفل رضيع عند مغادرته بلخ، ولما أيفع طلب من أمه أباه، فقصت الأم الحال قائلة: إن أباك قد تاه، ونقل عنه أنه قال: عندما كنت أسير في البادية متوكلا، ولم أتناول شيئا مدة ثلاثة أيام جاءنى إبليس وقال: أنت ملك، وتركت كل

هذه النعمة لتذهب جائعا إلى الحج . . . ؟ لقد كان بمقدرك الحج بعز وجلال حتى لا يصيبك كل هذا الأذى، قال: عندما سمعت هذا الكلام منه رفعت صوتي وقلت: اهي !! سلط العدو على الصديق حتى يحرقني فأغثنى حتى أستطيع قطع هذه البادية بعونك، فسمعت صوتا يقول: يا إبراهيم! ألق ما في جيبك حتى تكشف ما هو في الغيب فمددت يدي إلى جيبى فوجدت أربعة دنانير فضية كانت قد بقيت منسية، ولما رميتها جفل إبليس منى وظهرت قوة من الغيب» (٢).

وورد ذكره وحكايته أيضا في (طبقات الصوفية) للسلمي (٣).

وفي (حلية الأولياء) للأصبهاني (٤).

وفي (الرسالة) للقشيري (٥).

وفي (جمهرة الأولياء) للمنوفي الحسيني (٦).

وفي (نفحات الأنس) للجامي (٧).

وفي (طبقات الأولياء) لابن الملقن المتوفى ٨٠٤ هـ (٨).

وفي (الطبقات الكبرى) للشعراني (٩).

فهذه هي قصة إبراهيم بن أدهم، وفيها ما فيها من ترك الأهل والزوج والولد بدون جريمة ارتكبوها، وإثم اقترفوه، خلافا لأوامر القرآن وإرشادات الرسول ﷺ، المشهورة المعروفة شبهها ببوذا، وهاهي خلاصة قصته:

«وكانت قبيلة ساكياس تقطن في شمال بنارس، وهي التي ولد فيها بوذا في أواسط القرن السادس قبل الميلاد، وقد مات في سنة ٤٧٨ قبل الميلاد بعد أن عمر ثمانين عاما. وتزوج بوذا في سن التاسعة عشرة ابنة عمه، وكان في رغد وسعادة. وبينما كان يسير يوما إلى الصيد وهو في التاسعة والعشرين شاهد رجلا قد بلغ من كبر سنه منتهى الضعف والعجز، ورأى في وقت آخر شخصا مبتلى بمرض استعصى علاجه

(٢) انظر «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار ص ٥٣ وما بعد ط باكستان.

(٣) طبقات السلمي ص ١٢ مطابع الشعب القاهرة ١٣٨٠ هـ.

(٤) حلية الأولياء للأصبهاني ج ٧ ص ٣٦٧ وما بعد. ط دار الكتاب العربي لبنان.

(٥) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٤ وما بعد ط دار الكتب الحديثة - القاهرة بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

(٦) جمهرة الأولياء ج ٢ ص ١٢٥ ط مؤسسة الحلبي - القاهرة ١٩٦٧ م.

(٧) نفحات الأنس للجامي ص ٤١ الطبعة الفارسية إيران.

(٨) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٥ نشر مكتبة الخانجي - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ.

(٩) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٦٩.

ويحتمل الآلام وبعد مدة أخرى تأثر واشمأز جدا لرؤيته منظرا كريها لجثة في حالة من الفساد، وكان خادمه وصاحبه الوفي المسمى «جانا» يذكره وينبهه في كل هذه الحالات ويقول له: «هذا هو مصير حياة البشر» وشاهد بوذا أحد النساك يمر عليه وهو في منتهى الراحة والأبهة والكرامة فسأل جانا ما حال هذا الرجل..؟ فحكى له جانا تفصيلا عن أخلاق الزهاد الذين أعرضوا عن كل شيء وعن أحوالهم، وقال له: ان هؤلاء الجماعة في سير وارتحال دائم وهم يعلمون الناس أثناء سياحتهم ورحلاتهم تعاليم هامة بالقول والعمل.

والخلاصة أنه برغم اختلاف الروايات لاشك في أن ذهن هذا الأمير الشاب قد أخذ يضطرب تدريجيا وينفر من الحياة وضوضائها.

ووفد عليه رسول يوما في أثناء ازمائه العودة من الزهرة وبشره بميلاد ولد هو أول مولود له، فقال بوذا لنفسه في تلك الحالة النفسية المضطربة دون أن يشعر: «ماهى ذى رابطة جديدة تربطنى بالدنيا». والخلاصة أنه عاد إلى المدينة بينما كان المطربون يلتفون حوله. فطرب ورقص في تلك الليلة أقاربه وذوورحمه فرحا بالمولود الجديد. لكن بوذا كان من الامتعاض والاضطراب بحيث لم يكثر بتلك الأوضاع أبدا. وأخيرا نهض من فراشه في آخر الليل كمن التهمت النار داره وأوعز إلى جانا أن يحضر له الفرس ومد رأسه في هذه الأثناء إلى غرفة زوجته وولده الوحيد من غير أن يوقظهما وعلى العتبة أخذ على نفسه عهدا ألا يعود إلى داره ما لم يصبح «بوذا» أى «حكيماً مستنيراً»، وقال:

«أذهب لأعود إليهم معلما وهاديا لا زوجا ووالدا» والخلاصة أنه خرج مع جانا وهام في البرارى، وفي هذه اللحظة ظهر في السماء «مارا» أى الوسواس الكبير «ابليس أو النفس الأمارة» ووعد بالملك والعز في الدنيا بأسرها لكى يرجع عن عزمه لكنه لم يقع في شرك الوسوسة. فسار بوذا قليلا في تلك الليلة على شاطئ النهر ثم وهب لجانا جواهره وملابسه الفاخرة وأعادته ومكث سبعة أيام بلياليها في غابة ثم التحق بخدمة برهمى يدعى «الارا» كان في تلك البقعة واختار بعد ذلك صحبة برهمى آخر يسمى «أودراكا» وتعلم من هذين الرجلين حكمة وعلوم الهند كلها، ولكن قلبه لم يستقر بعد فذهب إلى غابة كانت في أحد الجبال، وهناك صحب خمسة من التلاميذ الذين كانوا يحيطون به ومارس التوبة والرياضات الشاقة ست سنين حتى اشتهر في تلك الناحية، فاعتزم لهذا أن يهجر ذلك المكان ولما قام ليذهب سقط على الأرض لشدة ضعفه

وعجزه، وغاب عن وعيه بحيث ظن تلاميذه أنه فارق الحياة، ولكنه عاد إلى رشده. فترك الرياضات الشاقة منذ ذلك الحين وأخذ يأكل طعامه بانتظام، ولما رأى التلاميذ الخمسة الذين كانوا في صحبته أنه مل الرياضة نفصوا أيديهم من احترامه وتركوه وذهبوا إلى بنارس.

أما بوذا فانه ترك ملذات الدنيا وثروتها والمقام فيها حتى ينال الضمير والطمأنينة عن طريق التعلم والفلسفة وحكمة الآخرين فلم يستطع أن ينال بتلك الرياضة والتوبة طمأنينة القلب التي كان يصبو إليها والحاصل أنه بقي حيران في أمره ذاهلا وفي نفس ذلك اليوم الذي تفرق فيه عنه تلامذته مكث بوذا تحت شجرة يتأمل ويفكر في نفسه، ماذا يعمل...؟ وأي طريق يتبع...؟ وهاجمته وساوس كثيرة وتاقت نفسه إلى الزوجة والولد والجاه والثروة والترف والنعيم، واستمر هذا الكفاح والجهد مع النفس إلى غروب الشمس. ونتيجة لهذا الكفاح اتصل «بنير فانا» وتأكد لديه أنه أصبح «بوذا» أى أنه نال الاشرار واستنار، وحينئذ نال بوذا ما كان يصبو إليه من الراحة والطمأنينة. لذلك عزم أن يبارس الارشاد. وأن يعرض رغبته على الآخرين، وكان بوذا وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره فقصده في بادئ الأمر أستاذه «الارا» و«أودراكا» ولكنه علم بعد، بأنهما قد توفيا، فذهب إلى تلامذته الخمسة على مقربة من بنارس وأرشدهم وجعلهم من أتباعه، وآمن به أبوه وأمه وزوجته كذلك، ثم أمر زمرة من خواص مريديه أن يقوموا بارشاد الناس» (١٠).

فهذه هى خلاصة قصة بوذا، وهى عين ما ذكره الصوفية عن إبراهيم بن أدهم كما نقلناه، والشبه ظاهر في ترك الملك والزوجة والولد.

ولأجل ذلك نص «جولدزهر» المستشرق النمساوى المشهور أن صوفية القرن الثاني الهجرى قد حاكوا قصة إبراهيم بن أدهم ابن الأمير البلخى الذى طلق الدنيا وتزياً بزى الدراويش، وبلغ درجة أكابر الصوفية برياضته الطويلة، وتلك صورة طبق لأصل لما كانوا قد سمعوه عن حياة بوذا (١١).

ثم علق عليه الدكتور قاسم غنى الباحث الإيراني بقوله:

(١٠) انظر لل دستر الباب الحادى والعشرون فقرات ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١، أيضا دائرة المعارف البريطانية نقلا عن تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص ٢٢٣ وما بعد، أيضا جستجود تصوف ايران (فارسي) للدكتور عبد الحسين زرین كوب ص ٦، ٧ مؤسسة انتشارات اميركبير طهران ١٣٦٣ هجرى قمرى.

(١١) نفس المصدر السابق، أيضا.

«وحدث «جولدزهر» يمكن أن يكون صحيحا وهو من الاحتمالات القريبة من الواقع، وقد شوهدت لها نظائر كثيرة - إلى أن قال -: وإذا ما قارن أحد بين قصة بوذا كما وردت في مدونات البوذيين بقصة إبراهيم بن أدهم ذات الطابع الأسطوري، الواردة في كتب تراجم العارفين مثل (حلية الأولياء) للأصفهاني، و(تذكرة الأولياء) للشيخ العطار وجد شبيها عجيبا بين تلك القصتين يستلفت نظره»^(١٢).

هذا وهناك أقوال لابراهيم بن أدهم وغيره من كبار الصوفية وأقطابهم في الزواج والأولاد تخبر بجلاء عن مواردها ومنابعها، فهي هي تلك الأقوال من أهم كتب الصوفية:

ينقل الطوسي والعطار عن إبراهيم بن أدهم أنه قال:

«إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل قد ركب السفينة، فاذا ولد له ولد قد غرق»^(١٣).

ونقل السهروردي عنه أنه قال:

«من تعود أخفاذ النساء لا يفلح»^(١٤).

ونقل أبو طالب المكي - وهو من أعلام الصوفية البارزين وأئمتهم المتوفى سنة ٣٨٦هـ - عن قطب من أقطاب الصوفية الأوائل عن أبي سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥هـ:

«من تزوج فقد ركن إلى الدنيا»^(١٥).

ونقل السهروردي في «عوارفه» الذي هو أشهر كتاب في التصوف عن أبي سليمان الداراني أيضا أنه قال: «ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته»^(١٦).

ونقل المكي عن سيد الطائفة الجنيد البغدادي أنه قال: «أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتزويج»^(١٧).

(١٢) انظر تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص ٢٢٣.

(١٣) كتاب اللع للطوسي ص ٢٦٥ بابآداب التأهلين ومن ولد بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، وتذكرة الأولياء للعطار ص ٥٧ ط باكستان.

(١٤) عوارف المعارف للسهروردي ص ١٦٦، أيضا غيث المواهب العلية للنزدي ج ١ ص ٢٠٨.

(١٥) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ٢٥٢ ط دار صادر بيروت، غيث المواهب العلية ج ١ ص ٢٠٨.

(١٦) عوارف المعارف للسهروردي الباب الحادي والعشرون ص ١٦٥ ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣ م.

(١٧) انظر قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ٢٦٧.

كما نقل عن بشر بن الحارث أنه قيل له : «إن الناس يتكلمون فيك ، فقال : وما عسى يقولون؟ قيل : يقولون : إنك تارك السنة يعنون النكاح .

فقال : قل لهم : إني مشغول بالفرض عن السنة ، وقال مرة : ما يمنعني من ذلك إلا آية في كتاب الله تعالى قوله : ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ ، ولعسى أن لا أقوم بذلك ، وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أكون جلاداً على الجسر هذا .
يقوله في سنة عشرين ومائتين والحلال والنساء أحمد عاقبة ، فكيف بوقتنا هذا؟ .
فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج» (١٨) .

ويقول السهروردي :

«التزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ، وجوع من الترمح إلى النقص ، وتقيداً بالأولاد والأزواج ، ودوران حول مظان الاعوجاج ، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة ، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة» (١٩) .

ثم نقل حديثاً مكذوباً على رسول الله ﷺ أنه قال :
«خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل : يارسول الله وما خفيف الحاذ؟ . قال : الذي لا أهل له ولا ولد . وقال بعض الفقهاء - لما قيل له : تزوج - : أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزويج» (٢٠) .

وصوفي آخر محمد بن إبراهيم النفزي الرندي المتوفى سنة ٧٩٢هـ ينقل عن صوفي قديم آخر ، وهو سهل بن عبد الله التستري أنه قال :

«إياكم والاستمتاع بالنساء ، والميل اليهن ، فإن النساء مبعّدات من الحكمة ، قريبات من الشيطان ، وهى مصايده وحظه من بنى آدم ، فمن عطف اليهن بكليته فقد عطف على حظ الشيطان ، ومن حاد عنهن يئس منه ، وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء ، وإن الشر معهن حيث كنّ ، فإذا رأيتم في وقتكم من قدركن اليهن فأيأسوا منه .

قيل له : فحديث النبي ﷺ : حَبِّ إلى من ديناكم ثلاث ، فذكر النساء؟ .

(١٨) قوت القلوب ج ٢ ص ٢٣٨ ، أيضا عوارف المعارف ص ١٦٥ ، أيضا الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٧٣ ط دار العلم للجميع - القاهرة ١٩٥٤م .
(١٩) انظر عوارف المعارف ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢٠) نفس المصدر ص ١٦٥ .

فقال: النبي ﷺ معصوم، وقد بلغكم ما كان فيه معهن، هي عدوة الرجل ظاهرا وباطنا، إن أظهرت له المحبة أهلكته، وإن أضمرتهاله، وإن الله عزوجل جعلهن فتنة، فنعوذ بالله من فتنتهن» (٢١).

ونقل عن صوفي آخر حذيفة المرعشى المتوفى ٢٠٧ هـ أنه قال:

«كان ينبغي للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه، وبين أن يتزوج امرأة في الفتنة لاختار ضرب العنق على تزويج امرأة في الفتنة» (٢٢).

ونقل ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر على المصرى المتوفى ٨٠٤ هـ في كتابه عن أحد كبار الصوفية:

«ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير» (٢٣).

ونقل الشعرانى عن رباح بن عمرو القيسى - من الصوفية الأوائل - أنه قال:

لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوى إلى منازل الكلاب» (٢٤).

وكتب صوفي قديم آخر، وهو أبو الحسن على الهجویری المتوفى قريبا سنة ٤٦٥ هـ قصة غريبة في العزلة والتجرد نقلا عن إبراهيم الخواص أنه قال:

«وصلت إلى قرية بقصد زيارة عظيم كان هنالك، ولما ذهبت إلى داره رأيت بيتا نظيفا مثل معبد الأولياء، وقد جعل في زاويتين من البيت محرايين، وجلس في أحدهما شيخ، وفي الآخر عجوز نظيفة وضيئة، وقد ضعف كلاهما من كثرة العبادة، فأظهرا السرور بقدمي، وبقيت هنالك ثلاثة أيام، ولما أردت العودة سألت الشيخ: من تكون لك تلك العفيفة؟ قال: هي من ناحية ابنة عمي، ومن ناحية أخرى زوجي، فقلت: رأيكما خلال هذه الأيام الثلاثة كالغريبين تماما في الصحة. قال: نعم، منذ خمسة وستين عاما ونحن كذلك فسألته عن سبب ذلك، فقال: أعلم أننا كنا عاشقين لأحدنا الآخر في الصغر، ولم يكن أبوها يعطيها لى لأن محبتنا صارت معروفة، فتحملت ذلك حتى توفي أبوها، وكان والدى عمها، فزوجها لى، فلما

(٢١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية لأبى عبد الله محمد بن إبراهيم النفذى ج ١ ص ٢٠٩ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود الشريف ط مطبعة السعادة القاهرة.

(٢٢) نفس المصدر.

(٢٣) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٣٦ نشر مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ.

(٢٤) طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٦.

كانت الليلة الأولى من تلاقينا قالت لى : أنت تعلم أية نعمة أنعمها الله علينا إذ أوصل كلامنا إلى الآخر، وأفرغ قلبينا من القيود والآفات السيئة، فقلت : نعم، قالت : فلنمنع أنفسنا الليلة عن هوى النفس، وندس على مرادنا، ونعبد الله شكراً على هذه النعمة، فقلت : هذا صواب، وقالت هذا نفسه في الليلة التالية. وقلت أنا في الليلة الثالثة : لقد أدينا الشكر ليلتين من أجلك، فلنقض ليلتين أيضاً في العبادة من أجلى. وقد تمت الآن خمسة وستون عاماً لم يمس أحداً الآخر، ونحن نقضى كل العمر في شكر النعمة» (٢٥).

وقال بعد نقلها ونقل أشياء أخرى :

«وفى الجملة : إن أول فتنة قدرت على آدم في الجنة كان أصلها امرأة. وأول فتنة ظهرت في الدنيا - أى فتنة هابيل وقابيل - كانت أيضاً بسبب امرأة. وحين أراد الله تبارك وتعالى أن يعذب إثنين من الملائكة جعل سبب ذلك امرأة. وهن جميعاً إلى يومنا هذا سبب جميع الفتن الدينية والدنيوية، لقوله عليه السلام : «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»، فإذا كانت فتنتهن بهذا القدر في الظاهر، فكيف تكون فى الباطن؟.

وأنا على بن عثمان الجلابى، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاماً، قدر أن وقعت فى الفتنة، وصار ظاهري وباطني أسير الصفة التي كانوا عليها معى، دون أن تكون هنالك رؤية، وقد استغرقت فى ذلك عاماً، بحيث كان يفسد على دينى، إلى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين، ومن على بالخلاص برحمته، والحمد لله على جزيل نعمائه.

وفى الجملة فإن قاعدة هذا الطريق وضعت على التجريد، وعندما جاء التزويج اختلف أمرهم، ولا يوجد أى عساكر من عساكر الشهوة إلا ويمكن إخماد ناره بالاجتهادة، لأن الآفة التي تنشأ منك تكون آلة دفعها معك أيضاً، ولا يلزم الغير حتى تزول عنك تلك الصفة.

وزوال الشهوة يكون بشيئين : واحد يدخل تحت دائرة التكلف، وواحد يخرج عن دائرة الكسب والمجاهدة، فما يدخل فى تكلف الأدمى ومقدوره هو الجوع، وأما ما يخرج عن التكلف الهمم، وتنشر المحبة سلطانها فى أجزاء الجسد، وتعزل كل الحواس عن أوصافهم، وتجذب كل العبد، وتغنى عنه الهزل.

وإن أحمد بن حماد السرخسى ، الذى كان رفيقى في ما وراء النهر، رجلا محتشما، قيل له : أبلك حاجة إلى التزويج ، قال : لا ، قالوا : لم ؟ قال : اننى في حالى إما أن أكون غائبا عن نفسى ، وإما أن أكون حاضرا بنفسى . وحين أكون غائبا لا أفكر في الكونين ، وحين أكون حاضرا فإننى أجعل نفسى بحيث إذا وجدت رغيفا تعتبر أنها وجدت ألفا من الحور . فانشغال القلب بكل ما تريده يكون عظيما ، فتنبه» (٢٦) .

وذكر السراج الطوسى أيضا قصة صوفي تزوج من امرأة فبقيت عنده ثلاثين سنة وهى بكر (٢٧) .

وذكر العطار عن عبد الله بن خفيف الصوفى المشهور أنه تزوج أربعمئة امرأة ولكنه لم يجامع واحدة منهن (٢٨) .

وهل لسائل أن يسأل : ما الغرض الذى كان من نكاحه إياهن ؟ .

والشعرانى أيضا عن صوفى آخر ياقوت العرشى أنه تزوج ابنة شيخه أبى العباس المرسى فمكثت عنده ثمانى عشرة سنة لا يقرها حياء من والدها ومنها ، وفارقها بالموت وهى بكر (٢٩) .

ونقل عن الشعرانى أيضا عن أحد المتقدمين من الصوفية مطرف بن عبد الله الشغير المتوفى سنة ٢٠٧ هـ أنه قال :

«من ترك النساء والطعام فلا بدّ له من ظهور كرامة» (٣٠) .

ونقل أيضا في كتابه (تنبيه المغترين) من أحد الصوفية أنه قال :

من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته . . . فاحذروا من التزويج (٣١) .

وينقل ابن الجوزى عن أبى حامد الغزالى أنه قال :

«ينبغى أن لا يشغل المرید نفسه بالتزويج ، فإنه يشغله عن السلوك ويأنس

(٢٦) كشف المحجوب الطبعة العربية ٦١٠ ، ٦١١ .

(٢٧) اللمع للسراج الطوسى ص ٢٦٤ .

(٢٨) انظر تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٢٤١ ط باكستان .

(٢٩) الأخلاق المتبولة لعبد الوهاب الشعرانى ج ٣ ص ١٧٩ بتحقيق الدكتور منيع عبد الحليم محمود ط مطبعة

دار التراث العربى - القاهرة ١٩٧٤ م .

(٣٠) طبقات الشعرانى ص ٣٤ .

(٣١) تنبيه المغترين للشعرانى ص ٢٩ .

بالزوجة، ومن أنس بغير الله شغل عن الله تعالى» (٣٢).

هذا ومثل هذا كثير .

ولقد بوب الصوفية في كتبهم أبواباً مستقلة في مدح العزوبة وذم التزويج، وهذا الأمر لا يحتاج إلى بيان أنه لم يأخذه المتصوفة إلا من رهبان النصارى ونسك المسيحية الذين ألزموا أنفسهم التبتل، خلافاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها .

تقليداً لهم واتباعاً لستهم، واقتداءً لمسالكتهم ومشاربهم، مخالفين أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ الناسخ لجميع الشرائع والأديان، المبعوث بمكارم الأخلاق وفضائل العادات، فالله يأمر المؤمنين في محكم كتابه بنكاح النساء مثنى وثلاث ورباع وعند الخوف من عدم العدل بواحدة، فيقول جل من قائل :

﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ (٣٣).

وقال : ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله سميع عليم﴾ (٣٤).

وجعل الزواج سبباً لحصول السكون والطمأنينة حيث قال عز وجل :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٣٥).

ورسوله صلوات الله وسلامه عليه يحذر المعرضين عنه في حديث طويل أورده البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال :

«إن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي عليه السلام عن عمله في السر فأخبرنهم فقال بعضهم : لا آكل اللحم، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء، وقال بعضهم : لا أنام على فراش. وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر، فحمد الله النبي عليه الصلاة والسلام وأثنى عليه، ثم قال : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني

(٣٢) انظر تلييس ابليس لابن الجوزي ص ٢٨٦ .

(٣٣) سورة النساء الآية ٣ .

(٣٤) سورة النور الآية ٣٢ .

(٣٥) سورة الروم الآية ٢١ .

أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٣٦).

وقال : «تزوجوا الولود والودود فإنني مكاثركم الأمم يوم القيامة» (٣٧).

وقال عليه الصلاة والسلام :

«حب إلى من الدنيا الطيب والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة» (٣٨).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا : يأتي أحدنا شهوته ويكون فيها له أجر ؟ .

قال أفرايتم لو وضعه في حرام، هل عليه وزر ؟ قالوا نعم . قال : فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (٣٩).

وما أحسن ما قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله عليه :

«ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، النبي عليه الصلاة والسلام تزوج أربع عشرة امرأة ومات عن تسع، ثم قال : لو كان بشر بن الحارث تزوج قد تم أمره كله . لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ولم يكن كذا، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يصبح وما عنده شيء، وكان يختار النكاح ويحث عليه، وينهى عن التبتل، فمن رغب عن عمل النبي عليه الصلاة والسلام فهو على غير الحق . ويعقوب عليه السلام في حزنه قد تزوج وولد له . والنبي عليه الصلاة والسلام قال : «حب إلى النساء» (٤٠).

فهذه هي تعاليم شريعة الإسلام المستقاة من أصليين أساسيين لشرع الله : الكتاب والسنة .

وتلك هي أقوال الصوفية، التي لم يأخذوها من هذا المورد العذب، والمنهل الصافي، بل أخذوها من الكهنة والبوذية كما مر ذلك، ونسألك الجينية، ورهبان المسيحية . وأمر أولئك في هذا الباب مشهور ومعروف لا يحتاج إلى كثير من البيان، ولكن لإقامة البرهان ننقل بعض آيات من انجيل، فقال المسيح :

(٣٦) متفق عليه واللفظ للبخاري .

(٣٧) رواه أبو داود والنسائي والبيهقي عن معقل بن يسار .

(٣٨) رواه أحمد والنسائي .

(٣٩) رواه مسلم .

(٤٠) تلييس ابليس لابن الجوزي ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

«ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل» (٤١).

ويقول رسول المسيحيين في رسالته إلى أهل كورنتوس :

«وأما من جهة الأمور التي كتبتم عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة» (٤٢).
وكذلك يقول :

«أقول لغير المتزوجين والأرامل : إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا» (٤٣).

ويقول : «فأريد أن تكونوا بلا هم . يهتم في ما للرب كيف يرضى الرب . وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضى امرأته . إن بين الزوجة والعذراء فرقا . غير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدسة جسدا وروحا . وأما المتزوجة فتهتم في ما للعالم كيف ترضى رجلها .

هذا أقوله لخيركم ليس لكي ألقى عليكم وهقا ، بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك . ولكن إن كان يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذارته إذا تجاوزت الوقت ، وهكذا لزم أن يصبر فليفعل ما يريد . إنه لا يخطيء فيزوجا . وأما من أقام راسخا في قلبه وليس له اضطراب بل له سلطان على ارادته ، وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراء فحسنا يفعل . إذن من زوج فحسنا يفعل . ومن لا يزوج يفعل أحسن» (٤٤).

هذا ومثل هذا كثير .

هذه هي تعاليم المسيحية ، المنقولة منهم تجاه الزواج ، ومن هذه التعاليم تأثر ولّى من أولياء المسيحية اوريغن (ORIGEN) الذي يعدونه أحد القديسين ، العائش ما بين ١٨٥ و ٢٥٤ ، وجب ذكره (٤٥).

والجدير بالذكر أن أحد المتصوفة أتى بمثل هذا العمل ، وفعل فعلته فيه كما ذكر الشعراني أن عبد الرحمن المجذوب :

(٤١) الآية ١٢ انجيل متى من العهد الجديد .

(٤٢) رسالة بولس في رسالته إلى أهل كورنتوس من العهد الجديد الأصحاح السابع الآية ١ .

(٤٣) أيضا الآية ٨ .

(٤٤) الأصحاح السابع الآية ٣١ إلى ٣٩ .

(٤٥) Oxford History of Christian Church P. 992 London, 1958.

«كان رضى الله عنه من الأولياء الأكابر، وكان سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول : ما رأيت قط أحدا من أرباب الأحوال دخل مصر إلا ونقص حاله إلا الشيخ عبد الرحمن المجذوب، وكان مقطوع الذكر قطعه بنفسه أوائل جذبه»^(٤٦).
وصوفى هندي آخر أيضا فعل ذلك^(٤٧).

وكتب هينس (HANS) «أن المسيحيين القدامى كانوا يعدون ترك الزواج من الأمور الواجبة والمحبة إلى الله، والمقربة إلى ملكوته»^(٤٨).

ومن خصائص المسيحية وتعاليمها ترك الدنيا، والتجرد عن المال، والتجوع، وتعري الأجساد والأعراض عن زينة الحياة، المباحة، وتحريم الطيبات باسم الانقطاع إلى الآخرة، ورهبانية ابتدعوها، وتعذيب النفس.

فلقد ورد في الأناجيل عن المسيح أنه قال :

«لا تكنزوا كنوزا على الأرض، حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا»^(٤٩).

ونقل عنه أيضا أنه قال :

«لا يقدر أحد أن يخدم سيدين. لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون. ولا لأجسامكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. أنظروا إلى طيور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوى يقوتها. أليست أيتها الحمارى أفضل منها ومن منكم إذا اهتم بقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة، ولماذا تهتمون باللباس، تأملوا زنايق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم : إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها، فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا، أفليس جدا يلبسكم أنتم قليلي

(٤٦) انظر طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٤٢.

(٤٧) انظر تذكرة أولياء بر صغير لميرزة محمد اختر الدهلوى ج ٣ ص ٣٣.

(٤٨) Bookings of The Christian Churches P. 135 London, 1955.

(٤٩) انجيل متى الأصحاح السادس ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

الإيمان، فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل، أو ماذا نشرب، أو ماذا نلبس، فإن هذه كلها تطلبها الأمم .

لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم .

فلا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليوم شره» (٥٠) .

وورد في هذا الإنجيل أيضا «أن شابا تقدم إلى المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل به لتكون لي الحياة الأبدية ؟ .

فأجابه المسيح ببعض الأجوبة ثم قال له :

إن أردت أن تكون كاملا فأذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعنى . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا، لأنه كان ذا أموال كثيرة .

فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم، إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات، وأقول لكم أيضا : إن مرور رجل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله» (٥١) .

وقال أيضا :

«وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف، ويرث الحياة الأبدية» (٥٢) .

ونقل عنه أيضا أنه قال :

« لا تكنزوا ذهباً ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم، ولا مزودا للطريق، ولا ثوبين، ولا أحذية، ولا عصا» (٥٣) .

وليس هذا فحسب، بل نقل عنه لوقا في إنجيله أنه جاءه جموع كثيرة سائرين معه، فالتفت إليهم وقال :

«إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده واخوته واخوانه حتى

(٥٠) انجيل متى الأصحاح السادس الآية ٢٤ إلى آخر الأصحاح .

(٥١) الأصحاح التاسع عشر الآية ١٦ إلى ٢٤ .

(٥٢) أيضا الآية ٢٩ .

(٥٣) الأصحاح العاشر الآية ٩ ، ١٠ .

نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذا»^(٥٤).

وقال أيضاً :

«فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي

تلميذا»^(٥٥).

وبمثل ذلك نقل متى في انجيله :

«لما رأى يسوع جموعاً كثيرة حوله أمر بالذهاب إلى العبر، فتقدم كاتب وقال له : يامعلم، أتبعك أينما تمشي . فقال له يسوع : للشعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه . وقال له آخر من تلاميذه : ياسيد، ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي . فقال له يسوع : اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم»^(٥٦).

هذا ومثل هذا كثير في الأناجيل وأعمال الرسل وغيرها من الكتب المسيحية، وعلى هذه التعاليم أسسوا نظام الرهبنة، أي التجرد عن علائق الدنيا ومتطلباتها وحاجاتها .

وزادوا عليها تعذيب النفس، وتحمل المشاق والالام، تعمقا في التجرد، ومغالاة في تجنب الدنيا، واحتقاراً لرخارفها، كما أن هنالك أسباباً أخرى لاختيار الرهبنة، فقد ذكر علماء المسيحية الكثيرون وكتابتها وباحثوها .

وجمع هذه الأقاويل والمقولات ول ديورانت في موسوعته الكبرى (قصة الحضارة)، فيقول : «لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بنى الإنسان، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحياناً في هذا الاستمتاع، غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى في النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح، واعتزمت أن تجد مكانها في السوء عن طريق الفقر، والعفة، والصلاة، فاعتزلت العالم اعتزالاً تاماً. ولربما كان مبشر وأشوكا Ashoka (حوالي ٢٥٠ ق.م) قد جاءوا إليه بنظرية البوذية

(٥٤) انجيل لوقا الأصحاح الرابع عشر الآية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٥٥) أيضاً الآية ٣٣ .

(٥٦) انجيل متى الأصحاح الثامن الآية ١٨ إلى ٢٣ .

وقوانينها الأخلاقية ، ولربما كان النساك الذين وجدوا في العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس Serapis في مصر أو جماعات الإسينين في بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة . وكان الكثيرون من الناس يرون في الرهبة ملاذاً من القوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبريرين ؛ فلم يكن في الديبر ولا في الصومعة الصحراوية ضرائب ، أو خدمة عسكرية ، أو منازعات حربية ، أو كدح محمل . ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته ، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام .

ويكاد مناخ مصر أن يغرى الناس بحياة الأديرة ، ولهذا غصت بالرهبان النساك الفرادى والمتجمعين في الأديرة يعيشون في عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أو جماعات كما كان يعيش باخوم في تابن Tabenne وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتي النيل ، وكان بعضها يحتوى نحو ثلثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى ، وقد أخذ ينتقل من عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر . وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه في تعبه ونسكه ، وبنوا صوامعهم في أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين . وقلما كان يغتسل ، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمسة من السنين ، ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين ، ولكنه سافر إلى الاسكندرية في سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد اتباع أريوس ، وكان يليه في شهرته باخوم الذي أنشأ في عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديراً واحداً للنساء . وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحياناً ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة ، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون ، ويركبون القوارب في النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الاسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون في المعارك الكنسية - السياسية .

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية في بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbe Duchesne بقوله إن مكاريوس الاسكندرى « لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتي بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ في الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ، وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة » ، وحدث مرة في صوم كبير أن ظل واقفاً طوال هذا الصوم ليلا

وبهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ، ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التي اختص بها وهي صناعة السلال . ولبت ستة أشهر ينالم في مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام . ومن الرهبان من أوفوا على الغاية في أعمال العزلة ، من ذلك سرابيون Serapion الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج . ولما وصل جيروم وبولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلاً لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه ، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكون من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر . ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف رومة . ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم . ومنهم من تخصصوا في الصمت وظلوا عدداً كبيراً من السنين لا تنفج شفاههم عن كلمة واحدة . ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقلاً أينما ذهبوا . ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل ، ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة . وكان النساك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام . ومنهم من عمروا طويلاً . ومحدثنا جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير ، ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف ، وبعث به إلى ناسك آخر ، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء (كما يؤكد لنا روفينس) ، وعاد مرة أخرى كاملاً إلى مكاريوس . وكان الحجاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي لشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا - كما يقولون - يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ، وكانوا يروضون الأفاعى أو الأساد بنظرة أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح ، وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم .

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء ، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يليقها عليهم ، وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز في نار مضطربة فصعد الراهب الجديد بالأمر ، فانشقت النار حتى خرج منها بسلام . وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا

رئيسه في الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهاراً، فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا، حتى رحمه الله في السنة الثالثة فأزهرت. ويقول جيروم إن الرهبان كانوا يأمرّون بالعمل «لثلاث

تضلهم الأوهام الخطرة». فمنهم من كان يحرق الأرض، ومنهم من كان يعنى بالحدائق أو ينسج الحصر أو السلال، أو يصنع أحذية من الخشب، أو ينسخ المخطوطات. وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة. على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحترقون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل. ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان، وقد أبت العذراء سلفيا أن تغسل أي جزء من جسدها عدا أصابعها، وكان في أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها، لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى آخر القرن الرابع، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط فأخذ يحث إلى تلك الأيام التي لم يكن فيها الرهبان «يغسلون وجوههم قط».

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر في عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم. فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع والرهبان والراهبات، وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود، ومنهم من كان يحترق هذا النوع المستقر من المساكن، فيقضى حياته في الطواف فوق الجبال يطعم العشب البري. ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودي (Simeon Stylites) (٣٩٠-٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طوال الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً. وقد أصر في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع في حظيرة وليس معه إلا القليل من الخبز والماء. وأخرج من بين الجدران في يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء. وبنى سمعان لنفسه في عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان في شمالي سوريا وعاش فوقه. ثم رأى أن هذا اعتدال في الحياة يجلبه العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمود التي يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه في أعلاه يزيد على ثلاث أقدام، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام. وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متوالية معرضاً للمطر والشمس والبرد. وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود، وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حز في جسمه، فتعفن حوله، وتنت وكثرت فيه الديدان، فكان يلتقط الدود الذي يتساقط من جروحه ويعيده إليها

ويقول : «كلى مما أعطاك الله!». وكان يلقي من منبره العالى مواعظ على الجماهير التي تحضر لمشاهدته، وكثيراً ما هدى المتبررين، وعالج المرضى، واشترك في السياسة الكنسية، وجعل المربين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة في المائة بدل اثني عشر. وكانت تقواه سبباً في إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة، وهي الطريقة التي دامت اثني عشر قرناً، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دينوية خالصة» (٥٧).

ومثل ذلك ذكر هرلبت في كتابه (٥٨).

ودى سى سيندروول (٥٩).

وستر زى غواسكى (٦٠).

وبروكويوس (٦١).

وونكل مين (٦٢).

فجاء الإسلام فهذب هذه التعاليم ونقحها، وحذف منها الغلو والتطرف، ومنع الناس عن التشديد في الدين، وتعذيب النفس، وعرفهم الحنيفية السمحة البيضاء، النزيهة عن الانغماس في الدنيا والجرى وراء ملذاتها وشهواتها، كما راعى جانب الطبيعة والفطرة، وأباح الطيبات من الرزق والحلال من المال، والتمتع بالجائز من الدنيا، فوضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأمرهم بالقصد والاعتدال بين التجرد المحض والتزهّد الصرف، وبين الاسراف المطلق والتقتير الفاحش، فقال جل وعلا في كتابه الذي أنزله على سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه :

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي

(٥٧) قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة عربية لمحمد بدران ج ١٢ ص ١١٩ إلى ١٢٣ ط الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية القاهرة ١٩٦٤م.

(٥٨) The Story Of The Christian Church P8 89, 1933

(٥٩) Ashort History Of Our Religion London, 1922.

(٦٠) Origin Christian Church Art, 4-6 Oxford, 1933.

(٦١) Buildings, Loeb. Lib i, 10.

(٦٢) History Of Ancient Art, I, 350-1, Finlay, 195.

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿٦٣﴾ .

وقال : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ ﴿٦٤﴾ .

وقال : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ ﴿٦٥﴾ .

وقال : ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ ﴿٦٦﴾ .

وقال : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرايل تقيكم الحر ^{سرايل} تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ ﴿٦٧﴾ .

وقال : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ ﴿٦٨﴾ .

وقال : ﴿وإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ ﴿٦٩﴾ .

وجعل المال قواما للإنسان حيث قال :

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ ﴿٧٠﴾ .

(٦٣) سورة الأعراف الآية ٣١ ، ٣٢

(٦٤) سورة القصص الآية ٧٧ .

(٦٥) سورة البقرة الآية ٢٩ .

(٦٦) سورة النحل الآية ١٤ .

(٦٧) سورة النحل الآية ٨٠ ، ٨١ .

(٦٨) سورة النحل الآية ٥ إلى ٧ .

(٦٩) سورة الجمعة الآية ١٠ .

(٧٠) سورة النساء الآية ٥ .

وقال : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (٧١).

و﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (٧٢).

وأمر المؤمنين أن يتوجهوا إليه بطلب الدنيا وحسناتها مع الآخرة وحسناتها
قائلين :

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ (٧٣).

كما أمر من اجتمع عنده مال الدنيا ورزقها أن يخرج منها حقا للسائل والمحروم
زكاة وصدقة، وأن يعمروا مساجد الله، وينفقوا على ذوى القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل، فقال تعالى :

﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ (٧٤).

وقال : ﴿كلوا من ثمره إذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ (٧٥).

وقال : ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين
يريدون وجه الله﴾ (٧٦).

وقال مع ذلك : ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه
كفورا﴾ (٧٧).

كما قال : ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (٧٨).

فهذا ما قد ورد في كتاب الله، وما أكثره في هذا المعنى .

وأما سنة رسول الله ﷺ، الأصل الثانى للشرعية الإسلامية فلم يرد فيها أن
صاحبها ﷺ قال لمن أراد أن يتبعه : بع واتبعنى، بل قال لمن كان يريد أن يتصدق
بأكثر ماله - وهو سعد بن أبى وقاص - وكان مريضاً في حجة الوداع فعاوده الرسول ﷺ

(٧١) سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

(٧٢) سورة البقرة الآية ٢١٢ .

(٧٣) سورة البقرة الآية ٢٠١ .

(٧٤) سورة الذاريات الآية ١٩ .

(٧٥) سورة الأنعام الآية ١٤١ .

(٧٦) سورة الروم الآية ٣٨ .

(٧٧) سورة الاسراء الآية ٢٧ .

(٧٨) سورة الأنعام الآية ١٤١ .

وكان عازما على الصدقة بثلثي ماله، وفي رواية أخرى : بماله كله، فسأله الرسول ﷺ عما ترك لولده - وفي رواية أنه لم يكن له إلا بنت -، فقال : الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس (٧٩).

وكذلك نهى كعب بن مالك عن التصدق بجميع ماله كما ورد في الصحيحين أن عبيد الله بن كعب بن مالك قال :

«سمعت كعب بن مالك يحدث بحديث توبته، قال : فقلت : يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ فقال : أمسك بعض مالك فهو خير لك» (٨٠).

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال :
«نعم المال الصالح للرجل الصالح» (٨١).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
«لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (٨٢).

وفي الصحيحين أيضا عن أم سليم أنها قالت : «يا رسول الله، خادمك أنس ادع الله له - فدعاه رسول الله عليه الصلاة والسلام - وفيما دعا له أن يكثر ماله، وإليك النص : اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيها» (٨٣).

وكان ﷺ يردد كثيرا : «ما نفعني مال كمال أبي بكر» (٨٤).
و«إن من أمن الناس على في ماله وصحبته أبو بكر» (٨٥).

كما أمر أم هانئء باتخاذ الغنم حيث قال :
« اتخذى غنما، فإن فيها بركة » (٨٦).

(٧٩) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

(٨٠) متفق عليه .

(٨١) رواه أحمد واسناده صحيح .

(٨٢) متفق عليه .

(٨٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٨٤) رواه أحمد وابن ماجه .

(٨٥) رواه مسلم فى صحيحه .

(٨٦) رواه البيهقى وابن ماجه واسناده صحيح ورجاله ثقات .

وادخر رسول الله ﷺ لأهله قوت سنة كما ورد في الصحاح ، واللفظ لمسلم عن
عمر أنه قال :

« كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون
بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي ﷺ خاصة ، فكان ينفق على أهله نفقة سنة ، وما
بقى يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله - وفي رواية - كان يجبس منه قوت
أهله لسنة » (٨٧) .

وبين رسول الله ﷺ أحكام الزكاة والصدقات والانفاق في سبيل الله ، ولم تكن
هذه الأحكام إلا لمن يملكه ، ولو لم يكن ما كان لبيائها غرض ولا فائدة .

فهذه هي تعاليم الكتاب والسنة ، وفي ضوء هذه نرى الصوفية والمتقدمين منهم
بالأخص والمتأخرين أيضا بأيتهما يتمسكون ؟

لكي يتضح الأمر عن مرجع تصوفهم ومعول أمرهم .
فذكر المحاسبي المتوفى ٢٤٣ هـ عن صوفي قديم آخر إبراهيم بن أدهم أنه
قال :

إن كنت تحب أن تكون لله وليا ، وهولك محبا فدع الدنيا والآخرة ، ولا ترغبن
فيها (٨٨) .

ونقل السهروردي والسراج الطوسي والقشيري عن السري السقطي المتوفى
سنة ٢٥١ هـ أنه قال :

« لا يكن معك شيء تعطى منه أحد » (٨٩) .

وذكر القشيري عن واحد آخر من الصوفية الأوائل داود الطائي المتوفى ١٦٥ هـ
أنه قال :

« صم عن الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من
السبع » (٩٠) .

وسيد الطائفة الجنيد البغدادى يقول :

(٨٧) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم ، واللفظ لمسلم .

(٨٨) المحبة للمحاسبي نقلا عن ملحق تاريخي في آخر كتاب ختم الأولياء بتحقيق عثمان اسماعيل ط بيروت .

(٨٩) عوارف المعارف للسهروردي ص ٩٢ ، اللمع للطوسي ص ٢٦٢ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٧١ .

(٩٠) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ج ١ ص ٨٤ .

«أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسب، وإلا تغير حاله» (٩١).

ويقول أيضا :

«ما أخذنا التصوف عن القليل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المؤلفات والمستحسنات» (٩٢).

ويبين ابن عجيبة الحسنى حالة أهل التصوف في كتابه (إيقاظ الهمم) :

«وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينا، وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحا مسرورا» (٩٣).

وقال أيضا :

«الفقر أساس التصوف، وبه قوامه» (٩٤).

وروى مثل ذلك عن أبي محمد رويم المتوفى ٣٠٣ هـ أنه قال :

«مبنى التصوف على الفقر» (٩٥).

نعم، الفقر الذي تعوذ منه سيد الخلائق المدعم بالوحي، والمعصوم بعصمة الله وقال : «اللهم اني أعوذ بك من الفقر» (٩٦).

فجعلوا ذلك الفقر أساس التصوف وقوامه، وأقاموا بناء عليه .

ونقل الطوسي عن الجنيد أنه سئل عن الزهد فقال :

«الزهد هو تخلّي الأيدي من الأملاك» (٩٧).

وبمثل ذلك قال رويم بن أحمد الصوفي المتوفى ٣٠٣ هـ حينما سئل عن الزهد ما

هو؟. فقال : «هو ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا» (٩٨).

(٩١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ٢٦٧، أيضا غيث المواهب العلية للنفري الرندي ص ٢٠٨.

(٩٢) الرسالة القشيرية ج ١ ص ١١٧ .

(٩٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة الحسنى ص ٢١٣ الطبعة الثالثة مصطفى الباوي الحلبي ١٤٠٢ هـ.

(٩٤) أيضا .

(٩٥) اصطلاحات الصوفية لكمال الدين عبد الرزاق القاشاني من صوفية القرن الثامن الهجري ص ٧٦ ط الهيئة

المصرية العامة للكتاب مصر.

(٩٦) رواه النسائي .

(٩٧) اللمع للطوسي ص ٧٢، أيضا مناقب الصوفية لقطب الدين المروزي ص ٥٥ ط طهران ١٣٦٢ هجري

قمري .

(٩٨) اللمع للطوسي ص ٧٢ .

وذكر الشعراني عن ابن عربي أنه قال :

«من أراد فهم المعاني الغامضة من كلام الله عز وجل وكلام رسوله وأوليائه فليزهد في الدنيا حتى يصير ينقبض خاطره من دخولها، ويفرح لزوالها» (٩٩).

وينقل أيضا عن إبراهيم المتبولى أنه قال :

«كل فقير لا يحصل له جوع ولا عرى فهو من أبناء الدنيا» (١٠٠).

وذكر الصوفي عماد الدين الأموى في كتابه (حياة القلوب) أن رجلا دخل على

بعض الصوفية يتكلم في الزهد وعنده قميص معلق وعليه آخِر، فقال :

ياشيخ، أما تستحي أن تتكلم في الزهد ولك قميصان (١٠١).

وزجر السرى السقطى رجلا كان يملك عشرة دراهم وقال :

أنت تقعد مع الفقراء ومعك عشرة دراهم (١٠٢)

وذكر الكلاباذى عن أحمد بن السمين أنه قال :

كنت أمشى في طريق مكة، فإذا أنا برجل يصيح : أغثنى يارجل، الله، الله.

قلت مالك، مالك ؟

خذ منى هذه الدراهم، فإننى ما أقدر أن أذكر الله وهي معى، فأخذتها منه،

فصاح : لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهما (١٠٣).

وقال سهل بن عبد الله التستري :

اجتمع الخير كله في هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدال أبدالاً : اخصاص

البطون، والصمت والخلوة، والسهر (١٠٤).

وينقل الهجویری عن أبي بكر الشبلى أن واحدا من علماء الظاهر سأل على

سبيل التجربة عن الزكاة قائلا : «ما الذي يجب أن يعطى من الزكاة؟».

قال : حين يكون البخل موجودا ويحصل المال فيجب أن يعطى خمسة دراهم.

(٩٩) اليواقيت والجواهر للشعراني ج ١ ص ٢٦ ط مصطفى البابي ١٣٧٨هـ.

(١٠٠) الأخلاق المتبولى للشعراني ج ٢ ص ٩٤ تحقيق منيع عبد الحليم محمود ط مطبعة حسان - القاهرة.

(١٠١) حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب لعماد الدين الأموى ج ٢ ص ١٢٢ على هامش قوت

القلوب.

(١٠٢) طبقات الأولياء لابن الملحق المتوفى ٨٠٤هـ نشر مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٩٣هـ.

(١٠٣) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٨٥ ط القاهرة ١٤٠٠هـ.

(١٠٤) غيث المواهب العلية للنفرى الرندى المتوفى ٧٩٢هـ ص ٩٢، ٩٣ ط القاهرة.

عن كل مائتي درهم، ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً، هذا في مذهبك .
أما في مذهبي فيجب أن لا تملك شيئاً حتى تتخلص من مشغلة الزكاة» (١٠٥).
وقال الهجویری :
«السكون إلى مألوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق» (١٠٦).
وينقلون عن الرفاعي أحمد بن أبي الحسين صاحب الطريقة الرفاعية أنه كان يقول :

«أكبره للفقراء دخول الحمام، وأحب لجميع أصحابي الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك» (١٠٧).

ونقل أبو المظفر أن أبا بكر الوراق قال :
«الزهد مركب من الحروف الثلاثة : الزاء، والهاء، والdal، فالزاي ترك الزينة، والهاء ترك الهوى، والdal ترك الدنيا» (١٠٨).

ونقل أبو طالب المكي عن سفيان أنه قال :
«الصائم إذا اهتم في أول النهار بعشائه كتب عليه خطيئة، وكان سهل (التستري) يقول : ان ذلك ينقص من صومه» (١٠٩).

ونقل عن حذيفة المرعشي أنه قال :
«منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصاً واحداً» (١١٠).
وذكر الكلاباذي في تعرفه عن أبي الحسن محمد بن أحمد الفارسي أنه قال :
«من أركان التصوف ترك الاكتساب وتحريم الادخار» (١١١).
ونقل نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ : التصوف هو نبذ الدنيا كلها (١١٢).

(١٠٥) كشف المحجوب للهجویری ص ٥٥٨ .

(١٠٦) نفس المصدر ٣٦١ .

(١٠٧) النفحة العلية في أورد الشاذلية لعبد القادر زكي ص ٢٦٣ ط مكتبة المثنى القاهرة، أيضاً الأنوار القدسية

للشعراني ج ١ ص ١٣٢ ط دار احیاء التراث العربی بغداد ١٩٨٤ م .

(١٠٨) انظر مناقب الصوفية (فارسی) لأبي المظفر المروزي ص ٥٥ باهتمام محمد تقی وایرج افشار ط ایران .

(١٠٩) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ٢ ص ٩ .

(١١٠) أيضاً ص ٢١ .

(١١١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٨ ط مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة .

(١١٢) فواتح الجمال وفواتح الجلال لنجم الدين الكبرى ص ٥٩ .

ويقول الهروي عبد الله الأنصارى المتوفى ٤٨١ هـ :

«الزهد أصله تعذيب الظاهر بترك الدنيا» (١١٣).

وينقل ابن الملقن عن أستاذ الجنيد أنه قال :

«علامة الفقير الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، وينحط بعد الشهرة» (١١٤).

وينقل السلمى عن سمنون المحب - وهو من أصحاب السرى السقطى - أنه

سئل عن الفقير الصادق فقال :

«الذي يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما

يستوحش الجاهل من الفقر» (١١٥).

وذكروا عن أبي يزيد البسطامى أنه سئل : بأي شيء نلت هذه المعرفة ؟

فقال : «ببطن جائع وبدن عار» (١١٦).

وأخيرا ذكر الكلاباذى عن الصوفية فقال :

«انهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الأخدان ، وساحوا في

البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأعرؤا الأجساد» (١١٧).

مع اعترافهم بأن هذه هي المسيحية كما نص على ذلك أبوطالب المكي حيث

قال :

روينا عن عيسى عليه السلام أنه قال : «أجيعوا أكبادكم ، وأعرؤا أجسادكم

لعل قلوبكم ترى الله عز وجل» (١١٨).

فالنصوص في هذا المعنى أكثر من أن تعد وتحصى ، وأن يسعها كتاب فہیات

ہیہات أن يسعها باب أوجز من الباب ، وكل هذه النصوص تنطق صراحة عن

مصدرها الأصيل ومرجعها الحقيقى ، ولا علاقة لها بتعاليم الإسلام وإرشاداته ، بل

انها مخالفة تماما لتلك ، ولكى يسهل على القراء والباحثين المقارنة ذكرنا ما ورد في

القرآن والسنة في هذا الخصوص ، كما أوردنا قبل ذلك توجيهات مسيحية وتعاليم

(١١٣) منازل السائرين مع العلل والمقامات ص ٢٩٦ ط ايران ١٣٦١ هجرى قمرى .

(١١٤) طبقات الأولياء لابن الملقن المتوفى ٨٠٤ هـ ص ١٥٢ ط مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٣ م .

(١١٥) طبقات السلمى ص ٤٧ .

(١١٦) قوت القلوب ص ١٦٨ ، أيضا الرسالة للقسيرى ص ٨٨ .

(١١٧) التعرف للكلاباذى ص ٢٩ .

(١١٨) انظر قوت القلوب لأبى طالب المكي ج ٢ ص ١٦٧ .

رهبانية وعلى ذلك قال C.H. BECKER وآسين بلاثيوس ، ونيكلسون بأن ترك الدنيا، ومعنى التوكل جاء في التصوف من المسيحية .
نص فون كريمر على أن الزهد الصوفي نشأ بتأثير من الزهد المسيحي (١١٩).

وقال جولد زيهر :
«إن مدح الفقر وإيثاره على الغنى كان من العناصر النصرانية» (١٢٠) .
وأقرب ذلك الكاتب الإيراني الكبير الدكتور قاسم غنى في كتابه «تاريخ التصوف في الإسلام» (١٢١) .

(١١٩) انظر لذلك كتاب فون كريمر تاريخ الأفكار الواردة في الاسم نقلا عن مقدمة الكتاب في التصوف الاسلامي وتاريخه للدكتور أبى العلاء العفيفي صهـ، و. أيضا الفكر العربي ومكانته في التاريخ للمستشرق أولبرى ترجمة تمام حسان ص ١٩٤ ، ١٩٥ ط القاهرة .
(١٢٠) انظر كتاب التصوف الاسلامي منهجا وسلوكا للدكتور عبد الرحمن عميره ص ٣٣ ط مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، وكتاب مدخل إلى التصوف الاسلامي للدكتور التفتازاني ص ٢٨ .
(١٢١) انظر ص ١٠٠ ترجمة عربية .

الزَّاوِيَّةُ وَالْمَلْبَسُ

وأما التزام الصوفية لبس الصوف لكونه شعارا وعلامة لهم فأیضا مأخوذ من رهبنة المسيحية لأنه كان زهيم الخاص بهم كما أقرب ذلك الصوفي المشهور في طبقاته عن أبي العالية أنه كان «يكره للرجل زى الرهبان من الصوف، ويقول : زينة المسلمين التجميل بلباسهم» (١٢٢).

ومثل ذلك نقل ابن عبد ربه في (العقد الفريد) عن حماد بن سلمة أنه قال لفرقد السنجي حينما رآه لابسا الصوف : «دع عنك هذه النصرانية» (١٢٣).

وأورد ابن الجوزى مثل هذه الرواية بسنده حيث قال : «أخبرنا محمد بن عبد الباقي بن أحمد، حدثنا حمد بن أحمد الحداد، حدثنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا حمد بن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا هارون بن معروف، عن ضمرة، قال : سمعت رجلا يقول : قدم حماد بن سلمة البصرة، فجاءه فرقد السبخي وعليه ثوب صوف، فقال له حماد : ضع عنك نصرانيتك هذه، فلقد رأيتنا ننتظر إبراهيم - يعنى النخعي - فيخرج علينا وعليه معصفرة» (١٢٤).

وأورد أيضا رواية أخرى مسندة بطريق البخاري رحمة الله عليه قال : أخبرنا محمد بن ناصر وعمر بن ظفر، قالا : حدثنا محمد بن الحسن الباقلاوى، حدثنا القاضي أبو العلاء الواسطى، حدثنا أبو نصر أحمد بن محمد السازكى، حدثنا أبو الخير أحمد بن حمد البزار، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا على بن حجر، حدثنا صالح بن عمر الواسطى عن أبي خالد، قال : جاء عبد الكريم أبو أمية إلى أبي العالية وعليه ثياب صوف، فقال له أبو العالية : «إنها هذه ثياب الرهبان، إن المسلمين إذا تزوروا تجميلوا» (١٢٥).

(١٢٢) طبقات الشعراني ج ١ ص ٣٥.

(١٢٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٧٨ ط القاهرة ١٢٩٣ هـ.

(١٢٤) تليس ابليس لابن الجوزى المتوفى ٥٩٦ هـ ص ٢١٩ ط دار الوعى المربى بيروت.

(١٢٥) تليس ابليس لابن الجوزى ص ٢١٩، ٢٢٠.

ونقل الشعراني أيضاً عن سهل التستري حكاية باطلة غريبة تدل على أن الصوف كان لباس أصحاب المسيح، وهذا هو نصها : أن سهل بن عبد الله التستري كان يقول :

«اجتمعت بشخص من أصحاب المسيح عليه السلام في ديار قوم عاد فسلمت عليه، فرد على السلام، فرأيت عليه جبة من صوف فيها طراوة، فقال لي : إن لها على من أيام المسيح، فتعجبت من ذلك .

فقال : يسهل ان الأبدان لا تخلق الثياب، إنما يخلقها رائحة الذنوب، ومطاعم السحت، فقلت له : فكم لهذه الجبة عليك ؟
فقال : لها على سبعمائة سنة» (١٢٦).

وذكر السهروردي أيضاً أنه كان الصوف لباس عيسى عليه السلام فقال :
«كان عيسى عليه السلام يلبس الصوف، ويأكل من الشجرة، ويبيت حيث أمسى» (١٢٧).

ومثل ذلك ذكر الكلاباذي (١٢٨).

«وعلى ذلك قال نولدكه ونيكلسون وماسينيون إن التصوف الإسلامي أخذ لبسة الصوف من الرهبان النصارى».

وزاد نيكلسون أشياء في مقالاته العديدة التي نشرت في دوائر المعارف، وجمعت بعضها باسم (الدراسات في التصوف الإسلامي وتاريخه) منها ما قاله تحت عنوان :
الزهد في الإسلام :

«كان عرب الجاهلية على حظ قليل من التفكير الديني، وكان تفكيرهم في هذه الناحية مضطرباً غامضاً. وقد شغلهم انهماكهم في متع الحياة ومتاعبها عن التفكير في حياة أخروية، ولم يخطر ببالهم أن يعدوا أنفسهم لحياة روحية وراء حدود القبر. وقد غرست المسيحية - لا الكنيسة المسيحية، بل المسيحية غير التقليدية وغير المنظمة - بذور الزهد في بلاد العرب قبل البعثة المحمدية، وظل أثرها يعمل عمله في تطور الزهد في الإمبراطورية الإسلامية في عصورها الأولى. ونحن نعلم أن المسيحية

(١٢٦) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٧٨ .

(١٢٧) عوارف المعارف للسهروردي ص ٥٩ باب في ذكر تسميتهم بهذا الاسم ط دار الكتاب العربي .

(١٢٨) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي ص ٣١ .

كانت منتشرة قبل الإسلام بين قبائل شمالى الجزيرة العربية، وأن كثيراً من العرب كانوا على شيء من العلم - مهما كان قليلاً وسطحياً - بعقائد الديانة المسيحية وطقوسها. بل إن الإشارات التي وردت في الشعر الجاهلي عن رهبان المسيحيين لتدل على أن عرب البادية كانوا يجلبون هؤلاء الرهبان ويعظمونهم، وكانوا يهتدون بأنوارهم المنبعثة من صوامعهم في ظلام الليل وهم يسرون في الصحراء. فضرب هؤلاء الرهبان وغيرهم من الزهاد الهائمين على وجوههم، مثلاً للعرب الوثنيين في الزهد، وحركوا في نفوس بعضهم، وهم المعروفون بالحنفاء، ميلاً إلى النفور من الأوثان ورفض عبادتها. فدان هؤلاء بعقيدة التوحيد، واصطنع بعضهم الزهد ومجاهدة النفس، ولبسوا الصوف وحرّموا على أنفسهم بعض أنواع الطعام» (١٢٩).

وقال أيضاً :

«كانت الثياب المصنوعة من خشن الصوف علامة على الزهد قبل الإسلام، وفي هذا حاكى العرب رهبان المسيحيين. وقد شاع استعمال هذا النوع من الثياب بين زهاد المسلمين الأوائل، ومنه اشتق اسم الصوفية الذي استعمل قبل نهاية القرن الثاني الهجرى. على أن اسماً آخر أطلق على هؤلاء الزهاد وإن كان أقل شيوعاً من اسم الصوفى، وهو (مسوحى) نسبة إلى مسوح جمع مسح وهو اللباس من الشعر.

وقد جرت العادة بأن يلبس الزهاد، رجالاً كانوا أو نساء، جبة أو مدرعة من الصوف وأن تلبس المرأة أحياناً غطاء على الرأس من القماش نفسه، وهذا الغطاء هو المعروف بالخمار.

وقد استنكر سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ لابس الصوف، وعدّه بدعة، واستنكره كذلك غيره من المسلمين لأنهم اعتبروه رمزاً للمسيحية وعلامة على الرياء» (١٣٠).

وقال أيضاً تحت عنوان التصوف باحثاً عن كلمة الصوفى نقلاً عن تولدكه :

«إن المسلمين في القرنين الأولين للإسلام كانوا يلبسون الصوف، وبخاصة من سلك منهم طريق الزهد، وأنهم كانوا يقولون : لبس فلان الصوف : بمعنى تزهد ورغب عن الدنيا .

(١٢٩) دراسات في التصوف الاسلامى. وتاريخه لنيكلسون ترجمة أبى العلاء العفيفى ص ٤٢، ٤٣.

(١٣٠) نفس المصدر ص ٤٨.

فلما انتقل الزهد إلى التصوف قالوا : لبس فلان الصوف بمعنى : أصبح صوفياً . وكذلك الحال في اللغة الفارسية : فإن قولهم (بشمينا بوش) معناه : يلبس لباس الصوف .

وقد أخذ زهاد المسلمين الأوائل عادة لبس الصوف عن رهبان المسيحيين ونسأكلهم ، يدل على ذلك أن حماد بن أبي سليمان قدم البصرة ، فجاءه فرقد السنجي وعليه ثياب صوف ، فقال له حماد : ضع عنك نصرانيتك هذه .

وقد أطلقوا على هذه الثياب (زى الرهبان) ، واستشهدوا بحديث معناه أن النبي ﷺ قال : ان عيسى كان يلبس ثياب الصوف» (١٣١) .

وقال جولدزير :

«وقد حاكى هؤلاء الزهاد المسلمون وعبادهم نساك النصارى ورهبانهم ، فارتدوا الصوف الخشن» (١٣٢) .

هذا وبمثل ذلك قال الدكتور قاسم غنى :

«إن ارتداء الملابس الصوفية أو التصوف الذي نشأ عنه كلمة الصوفية كما تقدم كان من عادات الرهبان المسيحيين ، ثم صار فيما بعد شعاراً للزهد عند الصوفية . والدلق الذي ورد ذكره في أشعار الصوفية وكتبهم استعمل في معنى لباس الصوفية في كل مكان . أي الخرقعة التي كانوا يرتدونها فوق جميع الملابس والظاهر أنها كانت من صوف . والدلق إما أن يكون من قطعة واحدة أو مرقعاً ، ويسمى بالدلق المرقع في هذه الحال ، وإذا كان من ألوان مختلفة يسمى حينئذ «الدلق الملمع» والدلق عند صوفية الإسلام سواء كان لونه أزرق أو كان أسود يسمى دائماً : «بالدلق الأزرق» وخرقة الرهبان التي كانت على ما يظهر بيضاء في بادئ الأمر صارت بعد ذلك سوداء وزمرة «السوكواران» أي المفجوعون ، الذين يتكلم عنهم الفردوسى في الشاهنامه ليسوا إلا أساقفة المناظرة المسيحيين ممن لجأوا إلى إيران في القرن الثالث الميلادي وهم الذين كانوا يلبسون ملابس الصوف الخشنة على أجسامهم كي يكون ذلك نوعاً من التقشف والاختشاش ، فكان إصطلاح «صوفي» و«صوفية» الذي هو بالفارسية

(١٣١) نفس المصدر ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٣٢) المجلة الآسيوية الملكية ١٨٩١ ص ١٥٣ نقلًا عن نشأة الفلسفة الصوفية للدكتور عرفان عبد الحميد

ص ١١١ ط المكتب الاسلامى بيروت ١٩٧٤م .

«بشمينه بوش» أي لابس الصوف» وكان يطلق على رجال المسيحيين ونسائهم» (١٣٣).

ولابس من إيراد تعليقة ذكرت تحت هذه العبارة :

«يقول ياقوت في كتاب (معجم البلدان) في حواشي «دير العذارى» : وقال أبو الفرج : ودير العذارى بسر من رأى إلى الآن موجود يسكنه الرواهب . وحدث الجاحظ في كتاب «المعلمين» قال : حدثني ابن الفرج الثعلبي : أن فتيانا من بنى ملاص من ثعلبة أرادوا القطع على مال يمر بهم قرب دير العذارى فجاءهم من أخبرهم أن السلطان قد علم بهم وأن الخيل قد اقبلت تريدهم ، فاستخفوا في دير العذارى ، فلما صاروا فيه سمعوا وقع حوافر الخيل التي تطلبهم راجعة ، فأمنوا ثم قال بعضهم لبعض : ما الذي يمنعكم أن تأخذوا بالقس فتشدوا وثاقه ثم يخلوكل واحد منكم بواحدة من هذه الأبقار ، فإذا طلع الفجر تفرقنا في البلاد ، وكنا جماعة بعدد الأبقار اللواتي كن أبقارا في حسابنا . ففعلنا ما اجتمعنا عليه ، فوجدناهن جميعا ثيبات قد فرغ منهن القس قبلنا . . . فقال بعضنا :

ودير العذارى فضوح لهن	وعند القسوس حديث عجيب
خلونا بعشرين صوفية	نيك الرواهب أمر غريب
إذا هن يرهزن رهز الظراف	وباب المدينة فج رحيب

ويبدو من تعبير «الصوفية» في هذا الشعر أن المقصود منه الراهبات المسيحيات» (١٣٤).

ولذلك خالف علماء الأمة وفقهاؤها لبسه .

فلقد نقل الإمام ابن تيمية عن أبي الشيخ الأصبهاني عن اسناده أن ابن سيرين بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف ، فقال :

«إن قوما يتخيرون الصوف يقولون إنهم متشبهون بعبسى بن مريم ، وهدى نبينا أحب إلينا ، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره» (١٣٥).

(١٣٣) تاريخ التصوف في الاسلام لقاسم غنى ترجمة عربية لصداق نشأت ص ١١٠ ، ١٠٢٠١ ط مكتبة النهضة القاهرة ١٩٧٠ م .

(١٣٤) أيضا تعليقة رقم ٢ ص ١٠٢ .

(١٣٥) الصوفية والفقراء لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٧ ط دار الفتح القاهرة ١٩٨٤ م .

كما نقل ابن الجوزي عن أحمد بن أبي الجوارى أنه قال : قال لي سليمان بن أبي سليمان : «أي شيء أرادوا بلباس الصوف ؟

قلت : التواضع .

قال : ما يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف .

ونقل عن سفيان الثوري أنه قال لرجل عليه صوف : لباسك هذا بدعة .

كما روى عن الحسن بن الربيع أنه قال :

سمعت عبد الله بن المبارك يقول لرجل رأى عليه صوفا مشهورا : أكره هذا ، أكره هذا .

وروى عن بشر بن الحارث أنه سئل عن لبس الصوف .

فشق عليه ، وتبين الكراهة في وجهه ، ثم قال : لبس الخز والمعصر أحب إلي من لبس الصوف في الأمصار .

وروى عن أبي سليمان الداراني أنه قال لرجل لبس الصوف : انك قد أظهرت آلة الزاهدين ، فماذا أورثك هذا الصوف ؟

كما روى عن النضر بن شميل أنه قال لبعض الصوفية :

تبيع جبتك الصوف ؟

فقال : إذا باع الصياد شبكته بأي شيء يصطاد» (١٣٦) .

هذا ونقل غيره عن غيره مثل هذا .

هذا من ناحية الملابس .

وأما اتخاذهم الخانقاوات والتكايا والزوايا ، وانعزالهم عن الدنيا ، فلم تكن إلا مأخوذة من الرهبنة المسيحية أيضا كما ذكرنا فيما مر نقلا عن الجامي في نفحاته أن أول خانقاه بنيت هي التي بناها أمير مسيحي من الرملة في الشام (١٣٧) .

وهي تشبه تماما أديرة الرهبان النصارى ذات الأسوار العالية البعيدة عن عالم الناس والعمران ، نتيجة للهروب من عالم الترف المادى إلى عالم الترف الروحى ، ومن هذه الأديرة تطورت كثير من الأفكار الايجابية ، خرج بها رهبان لفتح حقول جديدة على مبادئ من الطهارة والفقر والخضوع .

(١٣٦) انظر تلييس ابليس لابن الجوزي ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(١٣٧) انظر نفحات الأنس للجامي (فارسي) .

«أما الطهارة فكان معناها ليس تطهير الجسد بالصوم، بل كانت تعنى فوق ذلك قطع علاقات محبة الأب أو الأم أو الابن أو الأخت حتى يكون الراهب أقدر على خدمة البشر، وتصبح المحبة هنا ديانة إنسانية شاملة .

أما الفقر فكان يعنى التحرر المطلق من قيود الأشياء، ورفض المصالح المادية من أجل خدمة الإنسان، وكان الخضوع يعنى الاستسلام الكامل لإرادة الله للقيام بالواجبات» (١٣٨).

ولقد صرح الدكتور قاسم غنى أن المسيحية : «استطاعت أن تعلم صوفية المسلمين آدابا وعبادات كثيرة عن طريق زمرة المتقشفين و فرق الرهبان المتجولين، ولا سيما الجماعات السورية المتجولة في كل مكان ممن كانوا على الأغلب من فرق النصارى النسطوريين، في حين أن تأثير كنائس المسيحية في المسلمين كان في نطاق محدود جدا .

وأن الحياة في الصوامع والخانقاوات كانت أيضا مقتبسة من المسيحية إلى حد كبير» (١٣٩).

وبمثل ذلك قال نيكلسون، المستشرق الانجليزى الكبير الذي عرف باختصاصه في الدراسات عن التصوف، حيث يذكر تحت تطور الزهد في العصور الوسطى :

«لم يخرج الصوفية كثيرا على الحديث القائل : لا رهبانية في الإسلام إلا بعد مضى عدة قرون - إلى أن يقول - : وإنما لا نعلم إلا القليل عن نظام الزهد الرهبانى ونشأته في العصور الإسلامية الأولى، ويقال : أن أول خانقاه أسست لمتصوفة المسلمين كانت برملة في فلسطين قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر، وأن مؤسسها كان راهبا مسيحيا . . . وقد ذكر الصوفية بعض الأحاديث المدخولة على النبي، التي تشير لباحة العزوبة لجميع المسلمين بعد المائتين من الهجرة . . . فقد ظهر نظام الرهبة في الإسلام حوالى هذا التاريخ تقريبا . نعم لم يعم الزهد في العالم الإسلامى، ولم تظهر فيه الربط والزوايا المنظمة إلا في عصر متأخر، لأن القارىء للكتب التي ألفت في التصوف حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكي، وحلية الأولياء لأبى نعيم، والرسالة للقشيري، قلما يجد

(١٣٨) الفلسفة الصوفية في الاسلام للدكتور عبد القادر محمود ص ٣٩ ط دار الفكر العربى القاهرة .

(١٣٩) تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص ١٠٣ .

فيها إشارة إلى هذا الربط والزوايا، ومع ذلك نجد أن كبار الصوفية من رجال القرنين الثالث والرابع قد اجتمع حولهم المريدون ليأخذوا عنهم الطريق ويتأدبوا بآدابه. ومن الطبيعي أن هؤلاء المريدين أقاموا في بيوت دينية من نوع ما، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. ويذكر المقرئ أن الخانقاوات وجدت في الإسلام في القرن الخامس الهجري المقابل للقرن الحادي عشر الميلادي. وإذا سلمنا بقول المقرئ فعلى معنى أن خانقاوات الصوفية التي كان يجتمع فيها المريدون تحت إشراف مشايخهم، لم تكثر وتنتشر في بلاد المملكة الإسلامية إلا في هذا التاريخ، وهذا يتفق مع ما ورد في كتاب آثار البلاد للقزويني حيث يقول إن أبا سعيد بن أبي الخير (المتوفى سنة ١٠٤٩م لا حوالي ٨١٥ كما يقول دى ساسى خطأ - ولا كما يقول دوزى وفون كريم نقلا عن دى ساسى) يذكر عنه أنه مؤسس نظام الرهبة في التصوف الإسلامى وأول واضع لقواعده وقوانينه. وبعد ذلك بمائتي سنة - أي بين ٤٥٠، ٦٥٠ - زيد في نظام الرهبة وانتشر هذا النظام على أيدي رجال الطرق، كالعدوية والقادرية والرفاعية وغير ذلك من الطرق التي توالى ظهورها سريعا^(١٤٠).

هذا بالنظر إلى أنه لا يوجد في تعاليم القرآن والسنة رسم ولا أثر لهذه التكايا والزوايا والخانقاوات والربط، بل أمر المسلمين ببناء المسجد للعبادة، كما أمروا بتعمير بيوتهم بقراءة القرآن فيها والعبادة.

وأما بناء الأمكنة الخاصة للتعبد والذكر والأوراد فليس إلا تقليلا لشأن المساجد، وصرف الناس عنها، واعطاء التكايا والزوايا والربط مكانتها وشأنها، وفي هذا مخالفة لأوامر الله وتعاليم رسوله صلوات الله وسلامه عليه. وعلى ذلك قال ابن الجوزى :

«أما بناء الأربطة فإن قوما من المتعبدين الماضين اتخذوها للانفراد بالتعبد، وهؤلاء إذا صح قصدهم فهم على الخطأ من ستة أوجه :

أحدها : إنهم ابتدعوا هذا البناء وإنما بنیان أهل الإسلام المساجد .

والثاني : انهم جعلوا للمساجد نظيرا يقلل جمعها .

والثالث : انهم أفاتوا أنفسهم نقل الخطى إلى المساجد .

والرابع : انهم تشبهوا بالنصارى بانفرادهم في الأديرة .

(١٤٠) في التصوف الاسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية للدكتور أبى العلاء العفيفى ص ٥٦، ٥٧، ٥٨.

والخامس : انهم تعزبوا وهم شباب وأكثرهم محتاج إلى النكاح .

والسادس : انهم جعلوا لأنفسهم علما ينطق بأنهم زهاد فيوجب ذلك زيارتهم والتبرك بهم . وإن كان قصدهم غير صحيح فإنهم قد بنوا دكاكين للكوبة ومناخا للبطالة وأعلاما لإظهار الزهد .

وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص يطلبون الدنيا من كل ظالم ولا يتورعون من عطاء ماكس . وأكثر أربطتهم قد بناها الظلمة ، ووقفوا عليها الأموال الخبيثة . وقد لبس عليهم ابليس ان ما يصل إليكم رزقكم فأسقطوا عن أنفسكم كلفة الورع . فهمتهم دوران المطبخ والطعام والماء المبرد . فأين جوع بشر ، وأين ورع سرى ، وأين جد الجنيد . وهؤلاء أكثر زمانهم ينقضى في التفكه بالحديث أوزيارة أبناء الدنيا ، فإذا أفلح أحدهم أدخل رأسه في زمرانته فغلبت عليه السوداء ، فيقول : حدثني قلبي عن ربى . ولقد بلغنى أن رجلا قرأ القرآن في رباط فمنعوه ، وان قوما قرأوا الحديث في رباط ، فقالوا لهم : ليس هذا موضعه» (١٤١) .

هذا وقد أورد ابن الجوزي حديثا بسنده إلى رسول الله ﷺ عن أبي عمار أنه قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه ، قال : فمر رجل بغار فيه شيء من ماء ، قال : فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه ، وفيه شيء من ماء ، ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلى عن الدنيا . ثم قال : لو أنى أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فإن أذن لي فعلت ، وإلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يانبي الله ، اني مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل فحدثتنى نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا .

قال : فقال نبي الله ﷺ :

« اني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكننى بعثت بالحنيفية السمحة ، والذي نفس محمد بيده ، لغدوة أوروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» (١٤٢) .

وأما استماعهم إلى نصائح الرهبان ودروسهم ومواعظهم ، وانصاتهم لهم

(١٤١) تلييس ابليس لابن الجوزى الباب العاشر ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(١٤٢) أيضا ص ٣٢٤ .

وتلمذهم عليهم، وتمجيدهم إياهم، والثناء عليهم فمنقول عنهم بكثرة، فإن إبراهيم بن أدهم - وهو من أوائل الصوفية - صرح بذلك حيث قال :

«تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت له : ياسمعان، منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ .

قال : منذ سبعين سنة .

قلت : ما طعامك ؟

قال : يا حنيفي وما دعاك إلى هذا ؟

قلت : أحببت أن أعلم .

قال : في ليلة حمصة . قلت : فمن الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟

قال : ترى الذين بحدائك؟ قلت : نعم، قال : إنهم يأتونني في كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها، يعظمونني بذلك، وكلما تناقلت نفسي عن العبادة ذكرتها تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعزّ الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال : أزيدك ؟

قلت : نعم، قال : انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إليّ ركة فيها عشرون حمصة .

فقال لي : أدخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى، فقالوا : يا حنيفي، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟

قلت : من قوته، قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به . ساوم، قلت : عشرين ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الشيخ، فقال : أخطأت لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عزم من لا يعبد، فانظر كيف تكون بعزم من تعبد يا حنيفي، أقبل على ربك» (١٤٣).

ونقل الهجویری عن صوفي قديم آخر، وهو : إبراهيم الخواص أنه قال :

«سمعت ذات مرة أن ببلاد الروم راهبا مقيما بالدير منذ سبعين سنة بحكم الرهبانية، فقلت : واعجبا ! شرط الرهبانية أربعون سنة . بأي شرف أخلد هذا الرجل إلى الدير سبعين سنة؟ وقصدته، فلما اقتربت من ديره فتح كوة وقال لي :

(١٤٣) تلييس ابليس لابن الجوزي ص ١٧٠ ، ١٧١ .

يا إبراهيم! عرفت لأى أمر جئت. أنا لم أقم هنا رهبانية في هذه السبعين عاما، بل لأن لي كلبا هائجا ، فأقمت هنا أحرسه واكفى الخلق شره، والا فلست أنا هذا (الذي تظن). فلما سمعت منه هذا الكلام قلت : يا آلهى تعاليت! أنت قادر على أن تهدى العبد طريق الصواب في عين الضلالة، وتكرمه بالصراط المستقيم. فقال لي : يا إبراهيم! الام تطلب الناس؟ إمض وأطلب نفسك، وإذا وجدت فاحرسها، لأن الهوى يرتدى ثوب الالهية كل يوم على ثلثائة وستين لونا، ويدعو العبد إلى الضلالة» (١٤٤).

وذكر الشعرانى أن بعض أسلاف الصوفية حاولوا تقرير مذهب رهبان النصارى، وكونهم على الحق والصواب، ومن قبل رسول الله الناطق بالوحي صلوات الله وسلامه عليه - كذبا وزورا - : «أن قوله ﷺ : دعوا الرهبان وما انقطعوا إليه، تقرير لهم على ما هم عليه من حيث عموم رسالته ﷺ كما قرر أهل الكتاب على سكنى دار الإسلام بالجزية .

قالوا : وهي مسألة خفية جليلة في عموم رسالته ﷺ . لا يتنبه لها إلا الغواصون على الدقائق» (١٤٥).

هذا ولقد ذكر في طبقاته عن صوفى آخر - وهو إبراهيم بن عصفير - الذي يقول عنه : «كان كثير الكشف، وله وقائع مشهورة، وظهرت له الكرامات وهو صغير، وكان يأتى البلد وهو راكب الذئب أو الضبع، وكان يمشى على الماء لا يحتاج إلى مركب، وكان بوله كاللبن الحليب أبيض، . . . وما ضبطت عليه كشفا أكرم فيه. يكتب عن هذا الصوفى الذي بلغ أقصى درجات الولاية :

«كان أكثر نومه في الكنيسة، ويقول : النصارى لا يسرقون النعال في الكنيسة بخلاف المسلمين، وكان رضى الله عنه يقول : أنا ما عندى من صوم حقيقة إلا من لا يأكل لحم الضأن أيام الصوم كالنصارى، وأما المسلمون الذين يأكلون لحم الضأن والدجاج أيام الصوم فصومهم عندى باطل» (١٤٦).

وكذلك وجد مدح الرهبان النصارى في كتب صوفية كثيرة مثل ما ذكر الأصبهاني في حليته عن عبد الله بن الفرج أنه قال له رجل :

(١٤٤) كشف المحجوب للجهيوى ترجمة عربية ص ٤٣٩ ط دار النهضة العربية بيروت .

(١٤٥) الجواهر والدرر للشعرانى ص ٢٣٧ بهامش الأبريز للديباغ ط مصر .

(١٤٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ ص ١٤٠ .

«ياأبا محمد، هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهل كفر وضلالة، فمم ذلك ؟

قال : ميراث الجوع، متعت بك» (١٤٧).

وأيضاً ذكر عن إبراهيم بن الجنيد أنه قال :

وجدت هذه الأبيات على ظهر كتاب لمحمد بن الحسين البرجلاني :

«مواعظ رهبان وذكر فعالهم وأخبار صدق عن نفوس كوافر
مواعظ تشفيناً فنحن نحوزها وإن كانت الأنبياء عن كل كافر
مواعظ بر تورث النفس عبرة وتركها ولهاء حول المقابر
مواعظ أننى تسأم النفس ذكرها تهيج أحزاننا من القلب نائراً» (١٤٨).

ومثل ذلك ما نقله أبو طالب المكي عن عيسى عليه السلام أنه قال :

«المحب لله يحب النصب. وروى عنه أنه مر على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال : ما أنتم ؟

فقالوا : نحن عباد. قال : لأي شيء تعبدتم ؟

قالوا : خوفنا الله من النار فخفنا منها، فقال : حق على الله أن يؤمنكم ماخضتم.

ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم، فقال : لأي شيء تعبدتم ؟

قالوا : شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه، فنحن نرجو ذلك، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم.

ثم جاوزهم، فمر بآخرين يتعبدون، فقال : ما أنتم ؟

قالوا : نحن المحبون لله لم نعبده خوفاً من نار، ولا شوقاً إلى جنة ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال : أنتم أولياء الله حقاً، معكم أمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم وفي لفظ آخر قال للأولين : مخلوقا خفتم، ومخلوقا أحببتهم. وقال هؤلاء : أنتم المقربون» (١٤٩).

(١٤٧) حلية الأولياء للأصبهاني ج ١٠ ص ١٥١ الطبعة الثالثة دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٩٨٠ م.

(١٤٨) أيضاً.

(١٤٩) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ٢ ص ٥٦.

«ويستخلص من هذا أن الصوفية المسلمين لم يجدوا حرجا في الاستماع إلى مواعظ الرهبان وأخبار رياضاتهم الروحية والاستفادة منها، رغم أنها صادرة عن نصارى، ونحن نجد فعلا كثيرا من أخبار رياضات الرهبان وأقوالهم في ثانيا كتب الصوفية المسلمين وطبقات الصوفية» (١٥٠).

وقبل هذا كتب الدكتور البدوي في هذا الكتاب الذي اقتبسنا منه الأسطر الأخيرة، والذي دافع فيه عن التصوف دفاعا شديدا، وحاول فيه محاولة فاشلة لإثبات أصول التصوف ومصادره في الإسلام، ومن تعاليمه، كتب فيه :

«الاختلاط بين المسلمين والنصارى العرب في الحيرة والكوفة ودمشق ونجران، وخصوصا في مضارب القبائل العربية التي انتشرت فيها المسيحية قبل الإسلام وبعده : بنو تغلب، قضاعة، تنوخ، وتحدث بعض الأخبار عن أن بعض الصوفية المسلمين الأوائل كانوا يستشيرون بعض الرهبان النصارى في أمور الدين : كما يروى عبد الواحد بن زيد، والعتابي، وأبي سليمان الداراني» (١٥١).

وهذه هي الأشياء التي جعلت نيكلسون الانجليزى، وفون كريمر الألمانى، وجولدزير النمساوى يضطرون إلى أن يقولوا، واللفظ لأول :

«ويجب ألا ننسى في هذا المقام أثر المسيحية في الزهد الإسلامى في العصر المبكر فإن الأمر لم يقتصر على اللباس وعهود الصمت وكثير من آداب طريق الزهد التي يمكن ردها إلى أصل مسيحي، بل إننا نجد في أقدم كتب تراجم الصوفية - إلى جانب الحكايات العديدة التي تمثل الراهب المسيحي يلقي المواعظ من صومعته أو عموده على زهاد المسلمين السائحين في الصحراء - أدلة قاطعة على أن مذاهب هؤلاء الزهاد كانت إلى حد كبير مستندة إلى تعاليم وتقاليد يهودية ومسيحية. ومن ذلك آيات كثيرة من التوراة والإنجيل مذكورة بين الأقوال المنسوبة إلى أولياء المسلمين، وأن القصص الإنجيلية التي كان يقصها رهبان المسيحيين على طريقتهم الخاصة كان يتلهم على قراءتها المسلمون : مثال ذلك المجموعة المعروفة باسم الاسرائيليات التي يقال إن وهب بن منبه (المتوفى سنة ٦٢٨م) قد جمعها، وكتاب

(١٥٠) تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٣٥ ط وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٨م.

(١٥١) أيضا ص ٣٣ ، ٣٤ .

قصص الأنبياء الذي كتبه الثعالبي (المتوفى سنة ١٠٣٦م)، وهذا الأخير لا يزال موجوداً» (١٥٢).

وأما قضية المصطلحات التي روجها بين الناس، واستعملوها فيما بينهم فلا يشك أحد في كونها أجنبية في الإسلام ولغة الإسلام العربية، ومقتبسة مأخوذة من المسيحية بحروفها وألفاظها، معانيها ومدلولاتها مثل : «ناموس، رحمت، رهوت، لاهوت، جبروت، رباني، روحاني، نفساني، جثماني، شعشعاني، وحدانية، فردانية، رهبانية، عبودية، ربوبية، ألوهية، كيفوفية» (١٥٣).

والجدير بالذكر، ومن الأشياء اللافتة للأنظار أن كل من حاول تبرئة التصوف عن كونه مأخوذاً ومقتبساً من الرهبة المسيحية لم يسعه الإنكار عن كون المسيحية إحدى مصادر التصوف، وأنه استفاد منها، ولو أنهم أصروا مع ذلك كونه إسلامياً بحثاً، معارضين مع ما قالوه، ومناقضين مع ما أثبتوه، مقرين عليهم بالتعارض الفكري، والتضارب القولي، وإنكار ما هو ثابت لا يمكن رده ولا إنكاره، فيقول واحد من هؤلاء - ولاحظ الزحزحة الفكرية، والتناقض الشديد، والتعارض الغريب، والعجز الظاهر عن الدفاع، وضعف القوة وقلة الحيلة، مع الإنكار والإقرار في وقت واحد، لاحظ وأقرأ واستمع - فيقول أحد الكتاب - وهو دكتور في العلوم - رداً على من يجعل النصرانية إحدى مصادر التصوف :

«لم يقتصر الكلام في المصادر الصوفية على المصدر الفارسي أو الهندي بل ذهب فريق آخر من الباحثين إلى أن ثمة عناصر أخرى روحية يمكن أن ترد أصولها إلى أصول نصرانية .

ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما كان يوجد من صلات بين العرب والنصارى سواء في الجاهلية أو في الإسلام، وبما يلاحظ من أوجه الشبه الكثيرة بين حياة الزهاد والصوفية وتعاليمهم وفنونهم في الرياضة والخلوة والتعبد . وبين ما يقابل هذا كله في حياة المسيح وأقواله وأحوال الرهبان والقسيسين وطرقهم في العبادة واللباس .

ومن الباحثين والمؤيدين : لهذا الاتجاه «فون كريمر، وجولدزير، ونيكولسون وفلسنك وآسين وبلاسيوس، وأندريه وأوليري .

(١٥٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٤٧، أيضاً تاريخ الأفكار الواردة في الإسلام لفون كريمر ص ٥٢، أيضاً المجلة الملكية الآسيوية مقال جولديزير.

(١٥٣) تاريخ التصوف الإسلامي للبدوي ص ٣٣٣ .

ويرى : «فون كريمر» : أن التصوف الإسلامي والأقوال الماثورة عن الصوفية على أنها ثمرات نمت وترعرعت ونضجت في بلاد العرب تحت تأثير جاهلي ، حيث كان كثير من العرب الجاهليين نصارى ، وكان كثير من هؤلاء النصارى قسيسين ورهباناً .

وجولد زهير : يستند إلى ما تقرره النصرانية من إثارة الفقر والفقراء على الغنى والأغنياء ، فيزعم أن ما ورد في الحديث النبوي من هذا المعنى مستمد من النصرانية ، ويعنى هذا أن يترتب عليه أن الفقر والتخشن في الحياة إنما يرجع إلى أصل نصراني ، ويضيف عليه نيكولسون أيضاً . ما يصطنعه الصوفية من صمت وذكر فيزعم أنه مأخوذ من النصرانية .

هذا من حيث : إن التصوف زهد وطريقة في العبادة والرياضة واللباس .

أما فيما يتعلق بها من حيث هي مذاهب تصور منازع أصحابها الفلسفية واتجاهاتهم الروحية والفلسفية معاً : فإن هناك طائفة من القصص والأقوال التي تروى عن المسيح مما ورد في كتب الصوفية أنفسهم ، ويمكن أن يؤخذ على أنه مصدر لبعض المذاهب الصوفية الإسلامية . . .

على أننا لا ننكر ولا أحد يستطيع أن ينكر ما يوجد من أوجه الشبه بين حياة الزهاد ولباسهم وبعض تعاليم الصوفية وطرقهم في العبادة ومذاهبهم في الحب الإلهي ، وبين حياة الرهبان ولباسهم ، وبعض ما أثير عن المسيح وحوارييه من أقوال في المحبة وغيرها من شئون الحياة الروحية .

فإننا لا نستطيع مع ذلك نجزم بأن مصدر التصوف والحياة الروحية في الإسلام إنما هو نصراني صرف .

فصحيح أيضاً أنه كان ممن مال إلى الرهبنة من العرب من بينى الأديرة - فقد روى عن حنظلة الطائي أنه فارق قومه وتنسك ، وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات حيث ترهب فيه حتى مات ، وكذلك قيل عن قس بن ساعدة كان يتقفر الفقار ، ولا تكنه دار ، يتحسس بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام .

وصحيح أنه يروى عن أمية بن أبي الصلت أنه ليس بالمنسوخ تعبداً وأن لكل من قس وأمие نثراً وشعراً طبعاً بطابع ديني ، وأصطبغا بصبغة الزهد في الدنيا والنظر في الكون ، وصحيح بعد هذا كله ، وفوق هذا كله ، أن القسس والرهبان كانوا ينشئون هنا

وهناك في أسواق العرب يعظون ويبشرون ويتحدثون عن البعث والحساب والجنة والنار كما يدل على ذلك كثير من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عنهم وتحكى أقوالهم وتفند مذاهبهم .

وتصور إلى أي حد كانت تعاليمهم بين العرب ، فهذا كله صحيح لا شبهة فيه ولا غبار عليه ولكن الذي ليس بصحيح هو أن نجعل منه أساساً يبنى عليه القول بأنه وحده مصدر التصوف الإسلامى .

ولكن هناك تساءلا وهو لماذا يقصر الباحثون أنظارهم على حياة المسيح وأقواله والرهبان وأحوالهم حين يحاولون ربط الصوفية بالمصادر النصرانية ولم لا يجوز أن يكون هذا التصوف أيضاً كان مسابقة لطبيعة الحياة العربية الجاهلية .

وقد كانت وقتئذ حياة خشنة لا حظ لها من ترف ، ولا أثر فيها لنعومة بحيث يمكن أن يقال : إن حياة الزهاد والصوفية في الإسلام إنما هي استمرار لهذه الحياة الخشنة البعيدة عن الزخرف والنعيم ، والتي كان يحياها العرب الجاهليون بصفة عامة ، والتي كانت تصطبغ عند بعضهم ببسطة الخلوة والانقطاع عن الناس ، إلى التفكير والتقرب من الآلهة يلتمسون عندهم الخير والحكمة ؟

بل وما الذي يمنع أيضاً من أن يكون مرجع الحياة الروحية الإسلامية هو مذهب الحياة التي كان يحياها قوم في الجاهلية يعرفون ببنى صوفة ، الذين انفردوا بخدمة الله عند بيته الحرام ؟

ومع هذا لا أحد ينكر ما للمسيحية والرهبان من تأثير بالغ في الحياة الجاهلية السابقة .

بالإضافة إلى ما نلتقى به في ثنايا بعض النظريات الصوفية في الحب الإلهي ببعض الألفاظ والعبارات والعقائد التي هي من أصل نصراني مثل القول : «باللاهوت والناسوت» أو «حلول اللاهوت في الناسوت» أي حلول الإله «اللاهوت» في المسيح الإنسان «الناسوت» أو حلول الأول في الثاني إذا بلغ هذا درجة معينة من الصفاء الروحي .

ومثل القول «بالكلمة» التي هي في النصرانية واسطة بين الله والخلق ، والتي اصطنعها بعض الصوفية في التعبير عن نظرياتهم في الحقيقة المحمدية ، باعتبارها أول مخلوق خلقه الله ، أو : أول تعين للذات الإلهية فاضت منه بقية التعيينات الأخرى

من روحية ومادية، ولم تظهر هذه العناصر النصرانية وأشباهاها إلا بعد أن كان المسلمون قد اختلطوا بالنصارى وأخذوا يحاورونهم ويجادلونهم في العقائد، فكان طبعياً أن ينتشر بعض هذه العقائد النصرانية، وأن يعمل عمله في البيئة الإسلامية، ويتردد صدهاء في أقاويل الصوفية ومذاهبهم في الحب الإلهي وفيما يتصل به، من اتحاد بين الرب والعبد، ومن حلول الرب في العبد .

وهذا أمر طبعى ملائم لسنة الحياة وتطورها : إذ لا يمكن وقد تطور التصوف وقد استحال إلى علم له مناهجه ومذاهبه ومنازعه الروحية المصطبغة بصبغة فلسفية، أن يظل الصوفية بمعزل عن هذا الجوال الذي امتلأ بالأفكار والعقائد النصرانية وما يدور حولها من حوار وجدل بين المسلمين والنصارى دون أن يكون له أثر فيما صدر عنهم من أقوال، وما ذهبوا إليه من مذاهب، لاسيما إذا كانت هذه الأقوال والمذاهب تدور حول مسائل تتصل من قريب أو بعيد بالعقائد» (١٥٤).

ويقول الدكتور التفتازانى بعد الرد على المستشرقين القائلين بأن كثيراً من أمور التصوف مأخوذ من النصرانية، يقول بعد الرد عليهم :

«ومع هذا لا ننكر تأثر بعض الصوفية المتفلسفين بالمسيحية، على نحو ما نجد عند الحلاج الذي استخدم في تصوفه اصطلاحات مسيحية كالكلية واللاهوت والناسوت وما إليها، ولكن هذا لم يظهر إلا في وقت متأخر (أواخر القرن الثالث الهجرى) بعد أن كان زهد الزهاد قد استقر في القرنين : الأول والثاني الهجريين، وأصبح دعامة لكل تصوف لاحق .

ولذلك فإن من الانصاف العلمى القول بأن مذاهب الصوفية في العلم، ورياضاتهم العملية، ترد إلى مصدر إسلامى، إلا أنه بمرور الوقت وبحكم التقاء الأمم واحتكاك الحضارات، تسرب إليها شيء من المؤثرات المسيحية أو غير المسيحية، فظن بعض المستشرقين خطأ أن الصوفية أخذوا أول ما أخذوا عن المسيحية» (١٥٥)

فهذه هي خلاصة الكلام في ذلك، نكتفى بها ظانين بأنها كافية لجلاء الموضوع، وتنوير الطريق لمن أراد أن يتقدم إليه ويسلك فيه .

(١٥٤) أضواء على التصوف للدكتور طلعت غنام ص ٨٤ إلى ٨٨ ط عالم الكتب القاهرة .

(١٥٥) مدخل إلى التصوف الإسلامى للدكتور أبى الوفا الغنيمى التفتازانى ص ٢٩، ٣٠ ط دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة .

المذاهب الهندية والفارسية

وأما كون التصوف وتعاليمه وفلسفته، أوراده وأذكاره، وطرق الوصول إلى المعرفة، والمؤدية إلى الفناء، مأخوذة مستقاة من المذاهب الهندية والمناوية، والزرادشتية أيضا فلا ينكرها منكر، ولا يردّها أحد، ولا يشك فيها شاك، بل ان كبار الكتاب عن التصوف والباحثين فيه من المستشرقين والمسلمين، وحتى الصوفية أقرّوا بذلك حيث لم يسعهم إلا الاعتراف بهذه الحقيقة الظاهرة الجلية التي لا يمكن تجاهلها ولا اغفالها ألبتة.

فإن الأستاذ أبا العلاء العفيفي كتب في ثنايا بحثه عن المشتغلين من المستشرقين في الدراسة عن التصوف:

«أما ريتشورد هارتمان، وماركس هورتين فنزعتها واحدة: وهي أن التصوف يستمد أصوله من الفكر الهندي، وإن كان هورتين قد بذل من المجهود في إثبات هذه النظرية ما لم يبذله أى كاتب آخر. فقد كتب في سنتي ١٩٢٧، ١٩٢٨ مقالتين حاول أن يثبت في إحدهما، بعد تحليل تصوف الحلاج والبسطامي والجنيد، أن التصوف الإسلامي في القرن الثالث الهجري كان مشبعا بالأفكار الهندية، وأن الأثر الهندي أظهر ما يكون في حالة الحلاج. وفي المقالة الثانية يؤيد النظرية نفسها عن طريق بحث المصطلحات الصوفية الفارسية بحثا فيلولوجيا، وينتهي إلى أن التصوف الإسلامي هو بعينه مذهب الفيدانتا الهندية.

ويستند هارتمان في إثبات نفس الدعوى إلى النظر في الصوفية أنفسهم وفي مراكز الثقافة القديمة التي كانت منتشرة في بلادهم، لا إلى المصطلحات الصوفية كما فعل هورتين. وقد نشر في مسألة أصل التصوف مقالاً هاماً سنة ١٩١٦ في مجلة Der Islam وخلاصة بحثه أن التصوف الإسلامي مدين للفلسفة الهندية التي وصلت إليه عن طريق مترا وماني من جهة، وللقبالة اليهودية والرهينة المسيحية والغنوصية والأفلاطونية الحديثة من جهة أخرى. وهو يرى أن الذي جمع هذه العناصر كلها ومزجها مزجا تاما في التصوف هو أبو القاسم الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٧هـ)، فإليه يجب أن تتجه عناية الباحثين. أما حججه في تأييد الأصل الهندي فهي:

أولا : أن معظم أوائل الصوفية من أصل غير عربى كإبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وأبى يزيد البسطامى ومحيى بن معاذ الرازى .

ثانيا : أن التصوف ظهر أولا وانتشر في خراسان .

ثالثا : أن تركستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقى الديانات والثقافات الشرقية والغربية ، فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة . وهذا كلام أشبه بما ذكره كل من ثولك وفون كريمر في هذا الموضوع .

رابعا : أن المسلمين أنفسهم يعترفون بوجود الأثر الهندي .

خامسا : أن الزهد الإسلامى الأول هندي في نزعته وأساليبه . فالرضا فكرة هندية الأصل ، واستعمال الزهاد للمخللة في سياحتهم ، واستعمالهم للسبح ، عادتان هنديةتان» (١٥٦) .

ثم علق الأستاذ عفيفي على كلام هورتمان بقوله :

«ولكن المسألة أعقد من ذلك بكثير ، فقد تبين لى من البحث في تصوف مشايخ خراسان وتصوف مدرسة نيسابور خاصة ، أنه وإن كانت له صبغة محلية إلى حد ما ، متأثر بتيارات غير محلية وصلت إليه من مراكز التصوف الأخرى في العراق والشام ، وأنه كانت لبعض الحركات غير الدينية - كحركة الفتوة التي كانت في بدء أمرها اجتماعية بحتة - شأن كبير في تشكيل بعض تعاليم هؤلاء الصوفية» (١٥٧) .

ثم إن الأستاذ عفيفي في مقاله هذا لم يذكر واحدا من المستشرقين الذين كتبوا عن التصوف إلا وقد ذكروا فيه رأيا يشبه رأى هاثمان ، وهورتن .

وقد سبق هؤلاء المستشرقين والقائلين بهذا رأى من الباحثين ، سبقهم جميعا البير ونى ، حيث قارن بين العقائد الهندية والعقائد الصوفية في كتابه المشهور (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) .

وأوجه الشبه التي ذكرها البير ونى بين العقائد الهندية والعقائد الصوفية هي تلخص في أمور ثلاثة :

أولا : الأرواح .

(١٥٦) مقدمة كتاب في التصوف الاسلامى وتاريخه ص ح ، ط .

(١٥٧) أيضا .

ثانياً: في طريق الخلاص .

ثالثاً: الغاء التمايز ومحو الإشارة (١٥٨).

هذا والقارىء لأقوال الصوفية، والعارف بأحوالهم ورياضاتهم ومجاهداتهم يلاحظ بنفسه تشابهاً كبيراً بين هؤلاء وأولئك، وخاصة في تعذيب النفس، وتحمل المشاق، والتجوع، وحبس النفس، وامانة الشهوات، والهروب عن الأهل والأولاد، والجلوس في الخلوات، ومراقبة صورة الشيخ، وطرق الذكر، وكثير من العادات والتقاليد والرسوم، حيث لا يرى فيها إلا مشابهة تامة بتلك المذاهب وأصحابها، كما لا يرى فيها أى أثر للإسلام وتعاليمه، ولا ثبوت من حاملي رأيه، ومتمسكي سبيله، ومتبعي طريقه .

ولوضع النقاط على الحروف لانرضى مقولات الناس، بل نورد شهادات داخلية، واعترافات ذاتية، وعبارات ناطقة عن منابعها ومصادرها .

فنبداً بسيد الطائفة الذى قال فيه أبو العباس عطاء:
«أماناً في هذا العلم ومرجعنا المقتدى به» (١٥٩) .

والذي قيل فيه :

«إن الرجال من هذه الطائفة ثلاثة لا رابع لهم : الجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بالشام وأبو عثمان بنيسابور» (١٦٠) .

ونقل نيكلسون عن الجامي أنه قال :

«ان الجنيد أول من صاغ المعانى الصوفية، وشرحها كتابة، وأنه كان يعلم التصوف في بيوت خاصة وفي السرايب» (١٦١) .

ويكفى لبيان مقامه ومكانته عند القوم تلقينهم اياه بسيد الطائفة، فنبداً به

فيقول :

«ما أخذنا التصوف عن القليل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع

الماليوفات والمستحسنات» (١٦٢) .

(١٥٨) انظر لذلك كتاب تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية لصاقد نشأت، وكتاب

مدخل إلى التصوف الإسلامى للدكتور التفتازانى .

(١٥٩) نفحات الأنس للجامى الطبعة الفارسية ص ٨٠ .

(١٦٠) أيضاً .

(١٦١) في التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٢٠ .

(١٦٢) الرسالة القشيرية ج ١ ص ١١٧ بتحقيق عبد الحليم محمود .

وسئل أبو يزيد البسطامي :

«بأى شيء وجدت هذه المعرفة؟»

فقال : ببطن جائع وبدن عار» (١٦٣).

ونقل الطوسي عن يحيى بن معاذ أنه قال :

«لوعلمت أن الجوع يباع في السوق ما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا

السوق أن يشتروا غيره» (١٦٤).

ونقل النفري الرندي المتوفى ٧٩٢هـ عن حاتم الأصم أنه قال :

«من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت : موت

أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر.

فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتيال أذى الناس، والموت الأحمر

مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض» (١٦٥).

والسلمي أيضا نقل عنه أنه قال :

«ما من صباح إلا والشيطان يقول لى : ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟»

فأقول : آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر» (١٦٦).

والشعراني نقل في طبقاته عن أبي محمد عبد الله الخراز أنه قال : «الجوع طعام

الزاهدين» (١٦٧).

ونقل الغزالي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال :

«ما صار الإبدال إبدالا إلا باخصاص البطون، والسهر، والصمت،

والخلوة» (١٦٨).

ثم، وروى الغزالي في إحيائه روايات كثيرة مكذوبة على النبي ﷺ في فضل

الجوع (١٦٩).

(١٦٣) أيضا ص ٨٨ ، قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ٢ ص ١٦٨ .

(١٦٤) كتاب اللمع للطوسي ص ٢٦٩ .

(١٦٥) غيث المواهب العلية للنفري الرندي ج ٢ ص ١٦٦ بتحقيق عبد الحليم محمود .

(١٦٦) طبقات السلمى ص ٢٣ ط مطابع الشعب ١٣٨٠هـ .

(١٦٧) طبقات الشعراني ج ١ ص ٧ .

(١٦٨) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٧٩ ط دار القلم بيروت الطبعة الأولى .

(١٦٩) انظر ص ٧٧ وما بعد .

وما يجدر ذكره أن المحقق كتب في تعليقاته عن جميع تلك الروايات في فضل الجوع أنه لم يجد لها أصلاً (١٧٠).

هذا، ونقل عماد الدين الأموى عن عيسى عليه السلام أنه قال: «طوبى للجبياع العطاش فإنهم هم الذين يرون الله» (١٧١).

وقال السهروردى:

«قد اتفق المشائخ على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال على الناس» (١٧٢).

ثم بين طريق التدرّب على الجوع، وهى تشبه تماماً طريقة يوجا الهندية، حدو القذة بالقذة، وطبق النعل، فيقول:

«وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس، وقد جعل للجوع وقتان، أحدهما: آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا، والوقت الآخر: على رأس اثنتين وسبعين ساعة؛ فيكون الطي ليلتين والافطار في الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغى أن يفعله إذا لم ينتج عليه سامة وضجراً وقلة انشراح في الذكر والمعاملة، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة وبأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد، فالنفس إذا أخذت بالافطار من كل ليلتين ليلة، ثم ردت إلى الافطار كل ليلة تنقع، وإن سوحت بالافطار كل ليلة لا تنقع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات، وقس على هذا، فهي إن أطعمت طعمت، وإن أقنعت قنعت، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها، ومن الصالحين من كان يعير القوت بنوى التمر وينقص كل ليلة نواة، ومنهم من كان يعير بعود رطب وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف حتى يفنى الرغيف في شهر، ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت ولكن يعمل في تأخيرها بالتدرج حتى تندرج ليلة في ليلة، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى

(١٧٠) أيضاً .

(١٧١) حياة القلوب لعماد الدين الأموى بهامش قوت القلوب ج ٢ ص ٩ .

(١٧٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٢٢٣ ط دار الكتاب العربى الطبعة الثانية ١٩٨٣ م .

طَهِمَ إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر يوماً إلى الأربعين .
وقد قيل لسهل بن عبد الله : هذا الذى يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب
الجوع عنه ؟ .
قال : يطفئه النور» (١٧٣) .

وكذلك التّعزّى لم يأخذه الصوفية إلا من البوذية والجينية .
وجلّ تماثيل البوذا وصور رجال الديانات الهندوكية كلها ناطقة منبثة عمن
أخذها القوم هذه القباحة والوقاحة . حتى إن طائفة من طوائف الجينية تسمّى
وبجامبره أى أصحاب الزيّ السماوى ، الذين لم يتخذوا كساء لهم غير السماء ، وهم
الذين يقولون : «إن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشيء ، وإن من يملك شيئاً من متع
الدنيا ولو كان ثوباً واحداً يستر به عورته لا ينجو» (١٧٤) .

وإننا لنجد كثيراً من الصوفية ، ويسمون المجاذيب ، يتجردون عن الثياب
ألّبة ، ويمشون في الأسواق ، ويجلسون في الخانقاوات كما خلقهم الله .
ولقد ذكر أصحاب الطبقات الصوفية ، الكثيرين من هؤلاء . ونورد ههنا
واحداً من ذكرهم الشعرانى «قطب زمانه وامام عصره» في طبقاته ، فيقول :
«الشيخ إبراهيم العريان : كان رضى الله عنه إذا دخل بلداً سلّم على أهلها
كباراً وصغاراً بأسائهم ، حتى كأنه تربّى بينهم (يعنى كان يعلم الغيب) ، وكان رضى
الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرباناً» (١٧٥) .

وأما هجر الأهل والأولاد ، والخروج إلى الغارات والجبال ، والجلوس في
البرارى والحفرات والسراديب ، والمكوث مع الحيات والثعابين فليست منقولة إلا من
الديانات الهندية التى عرفت واشتهرت بمثل هذه الأمور .
فلقد أوردنا في أول المقال قصة إبراهيم بن أدهم الصوفى القديم ، وتركه للأهل
والأولاد ، مقارنة بقصة بوذا وحياته ، وأنها مطابقة تماماً لها .
وهناك أقوال ونصوص كثيرة في هذا المعنى ، ذكرنا بعضها فيها مرّ . وسنذكر

(١٧٣) عوارف المعارف للسهروردى ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(١٧٤) انظر فلسفة الهند القديمة لمحمد عبد السلام الرامبورى ص ٦٤ ، كذلك أديان الهند الكبرى للشلبى
ص ١٢٦ ط القاهرة ١٩٦٤ م .
(١٧٥) انظر طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٤٣ .

البعض الآخر في محله إن شاء الله في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وإننا ننقل ههنا بعض الآراء والوقائع التي لها علاقة مباشرة ووطيدة بالمذاهب والفلسفات الهندية.

فمنها ترك المال والخروج منه، وحتى القوت الذى يحتاج إليه لبقاء الحياة، ثم التسوّل أمام الناس، والاستجداء منهم. كما ذكر أبو طالب المكي عن أحد الصوفية أنه دفع إليه كيس فيه مئون دراهم في أول النهار ففرقه كله، ثم سأل قوتا في يده بعد عشاء الآخرة (١٧٦).

وأورد الطوسى مثله عن أبى حفص الحداد أنه كان أكثر من عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار وينفقه على الصوفية، ثم يخرج بين العشائين فيتصدّق من الأبواب (١٧٧).

والمعروف أن التسوّل والاستجداء والوقوف على أبواب الناس، وحمل المخلاة والكشكول من لوازم الديانة البوذية، ومن نصائح بوذا الثمانية المشهورة التى نصح بها دراويشه ورهبانه، كما أنه ألزمهم سير البرارى، وقطع الصحارى، أو المكوث في الخانقاوات، والانشغال فيها بالذكر.

ولقد أخذت الصوفية هذا النظام بكامله من البوذية، وألزموا أنفسهم به، كأنهم هم الذين نصحهم بوذا بذلك. فيقول الطوسى:

«الأكل بالسؤال أجل من الأكل بالتقوى» (١٧٨).

وقال: «كان بعض الصوفية ببغداد لا يكاد يأكل شيئا إلا بذلّ السؤال» (١٧٩).

ويروى المهجورى عن ذى النون المصرى أنه قال:

«كان لى رفيق موافق دعاه عز وجل إليه، وانتقل من محنة الدنيا إلى نعمة العقبى، ورأيت في النوم فقلت له: ما فعل الله بك؟»

قال: غفر لى.

قلت: بأى خصلة؟

قال: أوقفنى وقال: يا عبدى، لقد تحملت كثيرا من الذلّ والمشقة من السفلة

(١٧٦) قوت القلوب لأبى طالب المكى الفصل الحادى والأربعون في فضل الفقر والفقراء ج ٢ ص ٢٠٦.

(١٧٧) اللمع للطوسى ص ٢٦١، أيضا الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٤٧.

(١٧٨) اللمع للطوسى ص ٢٥٥.

(١٧٩) أيضا ص ٢٥٣.

والبخلاء ومددت إليهم يدك، وصبرت في ذلك، وقد غفرت لك بذلك» (١٨٠).

ونقل السهروردي عن إبراهيم بن أدهم أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلا، وليلة افطاره يطلب من الأبواب (١٨١).

كما نقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذ الجنيد أنه كان يخرج بين العشائين، ويسأل من باب أو بابين (١٨٢).

وذكر عن النوري أنه كان يمدّ يده ويسأل الناس (١٨٣).

وذكر النفزي الرندي عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمدّ يده ويقول: «ثم شيء لله» (١٨٤).

وذكر الشعراني أشياء طريفة عن فقراء الزاوية التي بناها يوسف العجمي، الذي قال عنه: هو أول من أحيا طريقة الشيخ الجنيد بمصر بعد اندراسها، يقول الشعراني عن هذا الصوفي وتلاميذته:

«كانت طريقته التجريد، وأن يخرج كل يوم من الزاوية فقيرا يسأل الناس إلى آخر النهار فمهما أتى به هو يكون قوت الفقراء ذلك النهار كائنا ما كان.

وكان الفقراء يأتي أحدهم بالحمار محملا خبزا وبصلا وخيارا وفجلا ولحما، ويوم سيدي يوسف يأتي ببعض كسيرات يابسة يأكلها فقير واحد، فسأله عن ذلك، فقال:

أنتم بشريتكم باقية، وبينكم وبين الناس ارتباط فيعطونكم، وأنا بشريتي فنيث حتى لا تكاد ترى فليس بيني وبين التجار والسوقة وأبناء الدنيا كبير مجانسة.

وكان صورة سؤاله أن يقف على الحانوت أو الباب ويقول: الله، ويمدّها حتى يغيب، ويكاد يسقط إلى الأرض، فيقول من لا يعرفه: هذا العجمي راح في الزقزية.

(١٨٠) كشف المحجوب للهجویری ص ٦٠٥.

(١٨١) انظر عوارف المعارف للسهروردي ص ١٥٠، أيضا غيث المواهب العلية للنفزي الرندي ج ٢ ص ٦٦،

أيضا ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٣٣٣.

(١٨٢) انظر عوارف المعارف ص ١٥٠، أيضا غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ج ٢ ص ٦٥.

(١٨٣) عوارف المعارف ص ١٥٧.

(١٨٤) غيث المواهب العلية للنفزي الرندي ج ٢ ص ٦٥.

وكان رضى الله عنه يغلق باب الزاوية طول النهار لأحد إلا للصلاة .

وكان إذا دقّ الباب يقول للنقيب :

أذهب فانظر من شقوق الباب ، فان كان معه شىء من الفتوح للفقراء فافتح له ، وإلا فهي زيارات فشارات» (١٨٥) .

فلاحظ ما فيه من الطرائف والأضحوكات .

وابن عجيبة الحسنى ذكر عن التجيبى ابن ليون أنه بين أصل السؤال ومسألة الزنبيل ، فيقول :

«كيفية : أن يتوضأ الرجل ويصلى ركعتين ، ويأخذ الزنبيل (يعنى وعاء) بيده اليمنى ، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس ، والناس يعطونه فى ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ، ويعبّه بين الفقراء فيأكلون طعاما حلالا بلا تكلف ولا كلفة ، هذا ما تيسر لنا فى حكم السؤال» (١٨٦) .

وأما من عاش فى الصحارى ، وتجوّل فى البرارى فكثيرون جدا ، وقد نقل السهروردي عن بشر بن الحارث أنه قال :

«يامعشر القراء ، سيحوا تطيبوا» (١٨٧) .

وقال :

أومن جملة المقاصد فى السفر: رؤية الآثار والعبر ، وتسريح النظر فى مسارح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومواطن أقدام الرجال ، واستماع التسبيح من ذوات الجهادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات . قال الله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ .

وقد كان السرى يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل آذار وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد للسفر: ايثار الخمول وإطراح حظ القبول» (١٨٨) .

(١٨٥) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(١٨٦) إيقاظ الهمم لابن عجيبة الحسنى ص ٣٣٣ ط مصطفى البابى الحلبي مصر الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ .

(١٨٧) عوارف المعارف للسهروردي ص ١٢٥ .

(١٨٨) المصدر السابق ص ١٢٢ .

وكان قسم منهم يسافر دوماً، ولذلك سموا بالسياحين كمال قال الكلاباذى :-
«ولكثرة أسفارهم سمّوا: سيّاحين، ومن سياحتهم في البرارى وإيوائهم إلى
الكهوف عند الضرورات ساهم بعض أهل الديار شكفتية. والشكفت بلغتهم الغار
والكهف» (١٨٩).

وقد ذكر أصحاب الطبقات وكتب الصوفية أحوال الكثيرين منهم.
فيذكر أحد الصوفية القدامى الهجویری عن أبى عثمان المغربی :

«انه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادی بحيث لم يكن يسمع آدمياً،
حتى ذابت بنيتة من المشقة، وصارت عيناه كسمّ الخياط، وتحول عن صورة
الآدميين، وجاءه الأمر بالصحب بعد عشرين عاماً، وقيل له: اصحب الخلق. فقال
لنفسه: فلابدأ بصحبة أهل الله ومجاورى بيته، ليكون ذلك أكثر بركة، فقصده مكة،
واطلع المشائخ على مجيئه بقلوبهم، وخرجوا لاستقباله، فوجدوه وقد تبدلت صورته،
وفي حال لم يكن قد بقى عليه فيها شىء سوى رق الخلقة» (١٩٠).

وقال أبو طالب المكى :

قد كان الخواص لا يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً، ويرى أن ذلك علة في
توكله، فيعمل في اختبار نفسه وكشف حاله.

وحدثنا عن بعض الشيوخ قال: «لبثت في البرية أحد عشر يوماً لم أطمع
شيئاً» (١٩١).

كما يقول: «خرجت طائفة الأبدال إلى الكهوف تخلّياً من أبناء الدنيا» (١٩٢).
ونقل السهروردی عن إبراهيم الخواص أنه ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين
يوماً، وكان يرى: إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله، فكان علم الناس
ومعرفتهم إياه سبباً ومعلوماً.

وحكى عنه أنه قال: مكثت في البادية أحد عشر يوماً لم آكل، وتطلعت نفسى
أن آكل من حشيش البر، فرأيت الخضر مقبلاً نحوى فهربت منه، ثم التفت فاذا هو

(١٨٩) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ٢٩ الطبعة الثانية مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة

١٤٠٠هـ.

(١٩٠) كشف المحجوب للهجویری ص ٤١٦، أيضاً تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٣٤٧ ط باكستان.

(١٩١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ٢ ص ٢٠٧.

(١٩٢) أيضاً ج ٢ ص ١٥٢.

رجع عنى ، فقليل : لم هربت منه ؟ .

قال : تشوفت نفسى أن يغيشنى ، فهؤلاء الفرارون بدينهم» (١٩٣) .

ونقل الشعرانى عن عدى بن مسافر الأموى الذى قال فيه : هو أحد أركان
الطريقة وأعلى العلماء بها ، والذى نقل فيه عن الشيخ عبد القادر أنه قال :

لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها عدى بن مسافر ، يقول عنه الشعرانى : انه
أقام أول أمره زمانا فى المغارات والجبال والصحارى مجردا سائحا يأخذ نفسه بأنواع
المجاهدات ، وكانت الحيات والهوام والسباع تألفه فيها (١٩٤) .

وكذلك ينقل الشعرانى عن شيخه أمين الدين أنه قال :

« كان شخص من أرباب الأحوال بناحية شان شلمون بالشرقية جالسا فى
البرية ، وقد حلق على نفسه بزرب شوك ، وعنده داخل هذه الحلقة الحيات والثعالب
والثعابين والقطط والذئاب والحرفان والأوز والدجاج » (١٩٥) .

هذا ومثل هذا كثير فى كتب الطبقات العربية والفارسية والأردية ، وكتب
اللغات الأخرى التى ألفت تراجم الصوفية .

وأما الجلوس فى الخانقاوات ، وملازمة الربط والتكايا والزوايا فهو من لوازم
التصوف ، فإن الصوفية خصصوا أبوابا مستقلة فى كتبهم لبيان فضائل ملازمتها ،
والمكوث فيها ، كما أنهم بينوا فيها آداب الخلوة والدخول إليها والمكوث فيها .

كما قال السهروردى : « أعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية
المهدية ، ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى
من ربهم » (١٩٦) .

وذكر الصوفى المشهور الكمشخانوى فى كتابه (جامع الأصول فى الأولياء) آداب
الخلوة ، فيقول :

« للدخول فى الخلوة آداب وشروط ، منها :

١ - أن يستأذن الشيخ فى دخول الخلوة .

(١٩٣) عوارف المعارف للسهروردى ص ١٢٦ ، أيضا قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ٢ ص ٢٠٧ ط دار صادر

بيروت .

(١٩٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(١٩٥) أيضا ج ٢ ص ١٢٢ .

(١٩٦) عوارف المعارف للسهروردى ص ١١١ .

- ٢ - أن يدخل الشيخ الخلوة ويصلى فيها ركعتين قبل دخول المريد .
 - ٣ - أن يدخلها كما يدخل المسجد مقدّماً رجله اليمنى ، مبسماً متعوذاً .
 - ٤ - أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها شعاع الشمس ولا ضوء النهار .
 - ٥ - أن لا يستند إلى جدار الخلوة .
 - ٦ - الصوم .
 - ٧ - أن يعتقد في نفسه انه انما يدخل الخلوة لكي يستريح الناس من شره .
 - ٨ - أن لا يتكلم مع أحد في الخلوة أو خارجها إلا مع شيخه .
 - ٩ - إذا خرج إلى الصلاة أو الوضوء فليغط رأسه ورقبته بشيء مطرقاً إلى الأرض غير ناظر إلى أحد .
 - ١٠ - دوام تخيل صورة شيخه ، وهو الرابطة بينه وبين خالقه . . . فإنه إذا همّ بمعصية يتمثل له الشيخ فينزع عن فعلها - إلى آخر الكلام» (١٩٧) .
- وأما التشابه بين الذكر الصوفي وذكر الطوائف الهندية فهو كما ذكر القشيري :
- «المبتدئ في الأحوال يجب أن يسكن حواسه ولا يتحرك أنفاسه ولا يحرك بدنه ، ولا يحرك جزء منه ولا يردد طرفه ولا شيئاً ، ويكون مراعياً لهيمته ، ولا يحرك البتة جزء من نفسه ولا لا من بدنه ولا من باطنه حتى تبدو الأحوال له بعد طول المراجعة .
- ثم يجب ألا ينظر إليها ولا إلى ما يبدو له البتة لئلا يحجب عنها ، فلا يزال في المزيد منها إن شاء الله تعالى .

قال : وهذا الطريق الذي هو طريق الله تعالى لا بدّ فيه من طول المجاهدة ومقاساة ما يحتمله الأسعاع والقلوب من الشدائد لو حلّت بها . . . وكنت أحياناً في بدو المجاهدة وأحوال الذكر لو استتر مني في السماء لكان الستر على أهون من أن أقوم للأكل ، وأتحرك للوضوء والفرض لأنه كان يعيب عني الذكر» (١٩٨) .

وذكر الشعراني عن سيده البدوي أنه لازم الصمت ، وما كان يكلم الناس إلا بالاشارة (١٩٩) .

(١٩٧) انظر جامع الأصول في الأولياء لأحمد الكمشخاني النقشبندی ط المطبعة الروحية الشام ١٢٩٨هـ .

(١٩٨) رسالة ترتيب السلوك من الرسائل القشيرية ص ٧٦ ، ٧٧ ط المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية اسلام

آباد باكستان .

(١٩٩) طبقات الشعراني ص ١٨٢ .

وملازمة الصمت من العادات البوذية كما يظهر من تماثيل بوذا .

وكذلك ذكر الشعراني أيضا عن سيده عبد الرحمن المجذوب أنه كان ثلاثة أشهر يتكلم ، وثلاثة أشهر يسكت (٢٠٠) .

وهناك عقيدة بوذية تسمى سهادهي (SAMADHI) وهذه آخر درجات الذاكر يفنى فيها ذاته في الذات الالهى (٢٠١) .

يذكر نفس هذا الشئ صوفى مشهور بحرق الحضرمى في رسالته (ترتيب السلوك) ، فيقول: من لم يتيسر له شيخ ، وأراد دخول الخلوة فليقدم الاغتسال ، وغسل ثيابه ومصلاه ، وهبىء أسبابه بحيث لا يحتاج إلى الخروج ، ويرتب لحوائجه من قوت وغيره . . . ثم ليلازم الجوع فيكون صائما مقتصرًا على قدر معلوم من الطعام والماء مقتصدا لا يزيد عليه أبدا ، وليلازم السهر فلا ينام إلا في وقت معلوم ، وليلازم الذكر فيقتصر على ملازمة ذكر واحد .

ينطق بذلك الذكر بعينه بحيث يظن من يسمعه أن معه في خلوته ألف ذاكر لله ، ثم يغلب عليه حال الذكر فلا ينظر في الوجود شيئا يقع عليه نظره إلا معلنا بذلك الذكر بعينه بحيث لو كان عنده ألف شخص ، كل منهم يذكر بذكر مخالف للآخر لم يسمعه ينتطقون إلا بذكره الذى غلب عليه ، وحينئذ يبقى منتظرا لما يفتح الله به على قلبه من رحمته وعلم غيبه ، وأول ما يظهر غالبا أنوار الهية كأنها البرق الخاطف تلمع بسرعة ، وتخفى وهى لذينة جدا يحصل بوجودها الوجد ، وباختفائها الحنين إليها ، وبها غشيتها أنوارها .

ثم يصير قلبه كالمرآة المجلوة فيكون مقابلا للجناب القدس ، فيصير كل شئ كأنه مشاهد للحق سبحانه علما وحالا فانيا عن نفسه ، فضلا عن خيرها ، فحينئذ يعبد الله كأنه يراه ويشهده (٢٠٢) .

وأما الفناء في الشيخ فيذكر الشعراني في كتابه (الأنوار القدسية) :

«اعمل أيها المريد على أن تتحد بشيخك ، فيكون ما عنده من المعارف عندك على حدّ سواء ويكون تميزه عليك إنما هو بالاضافة لا غير ، قال : وقد قال لى الشيخ

(٢٠٠) أيضا ج ٢ ص ١٤١ .

(٢٠١) The Buddha And The Criste P. 84 By B.H. Streeter London 1932 .

(٢٠٢) ترتيب السلوك إلى ملك الملوك لجمال الدين محمد بن عمر بحرق الحضرمى ص ٢٤٨ ،

٢٤٩ ط جامعة بنجاب لاهور باكستان .

أبو الحسن الشاذلي يوما: يا أبا العباس، ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت» (٢٠٣).

وأما تعذيب النفس، وجس الدم، والرياضات الشاقة فمنها ما ذكرناها أثناء الوقائع التي سردناها آنفا.

ومن ذلك ما ذكره الشعراني في طبقاته عن البدوي أنه:

«كان طول نهاره وليله قائما شاخصا يبصره إلى السماء وقد انقلب سواد عينيه بجمرة تتوقد كالجمر. وكان يمكث الأربعين يوما وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام» (٢٠٤).

ويقول المنوفي، وأبو الهدى الرفاعي أن مكوثه هذا امتد إلى اثنتي عشرة سنة حيث يقولان: «ومكث على السطوح حوالى اثنتي عشرة سنة» (٢٠٥).

ويذكر الطوسي والقشيري والعطار والمهجویری والغزالي والشعراني وغيرهم «أن الشبلى كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم، وأحيانا كان يحمى الميل فيكتحل به» (٢٠٦).

وينقل القشيري في رسالته (ترتيب السلوك):

«كنت أريد أن لا أنام لئلا أغيب عن الذكر لحظة، فكنت أقعد على حجر ناتئ من جدران بيتنا من الحجر قدر ما أضع عليه قدمي، وتحتي واد، وفوقي شاهق حتى لا يأخذني النوم» (٢٠٧).

وكتب الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا، وصوفي مشهور،

(٢٠٣) الأنوار القدسية لعبد الوهاب الشعراني ج ٢ ص ٢١ ط دار احياء التراث العربى بغداد العراق.

(٢٠٤) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٨٣، النفحة العلية في أوراد الشاذلية لعبد القادر زكى ص ٢٥٣ ط القاهرة.

(٢٠٥) جمهرة الأولياء للمنوفي الحسيني ج ٢ ص ٢٣٧، أيضا قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر لمحمد أبى الهدى الرفاعي ص ٣٩٩ الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ بيروت لبنان.

(٢٠٦) انظر اللمع للطوسي ص ٢٧٥، الرسالة القشيرية ص ١٦٠، تذكرة الأولياء للعطار ص ٣٠٥، مكاشفة القلوب للغزالي ص ٣٠، الأنوار القسية للشعراني ص ٥٤، الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٠٣.

(٢٠٧) رسالة ترتيب السلوك من الرسائل القشيرية لعبد الكريم القشيرية المتوفى ٤٦٥ هـ ص ٧٨ ط باكستان.

عن أحمد الدردير أنه ردد الذكر ستة أشهر حتى أحرق الذكر جسمه ، وأذهب لحمه ودمه حتى صار مجرد الجلد على العظم» (٢٠٨).

وذكر الدريني عبد العزيز الصوفي المتوفى ٦٩٧ هـ عن داود بن أبي هند أنه «صام أربعين سنة لم يعد الناس عنه ولا أهل بيته ، وكان يؤتى بالإناء ناقصاً فيتمه بالدموع» (٢٠٩).

ويذكر الطوسي عن أبي عبد الله الصبيحي أنه «لم يخرج ثلاثين سنة من بيت من تحت الأرض» (٢١٠).

ويذكر فريد الدين العطار عن الصوفي المشهور أبي بكر الشبلي أنه «كانت في يده قضيب يضرب به فخذَه وساقه حتى تبدد لحمه» (٢١١) وتناثر» (٢١٢).

(٢٠٨) سيدي أحمد الدردير للدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٦ ط القاهرة ١٩٧٤ م.

(٢٠٩) طهارة القلوب لعبد العزيز الدريني ص ٢٠٩ وما بعد ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧١ م.

(٢١٠) اللمع للطوسي ص ٥٠٠ .

(٢١١) كل ما ذكرناها حتى الآن وأوردناها من عبارات وشواهد وشهادات ، لم نذكرها ولم نوردنا إلا من التصوف المعتدل ، والتصوفية المعتدلين ، أو المتصوفة الذين اتفق على كونهم من هذه الطائفة قاصدين متعمدين ، وإلا ما نقل عن المتطرفين والغلاة أو الذين اختلف في أمرهم فكثير مثل ما ذكر الغزالي عن الحلاج أنه قيد نفسه من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيدا ، وكان يصلي مع ذلك كل يوم ليلة ألف ركعة (انظر ماشفة القلوب للغزالي ص ٣٠ تحقيق عبد الله أحمد أبوزينة ط القاهرة .
وحكى عن الترمذي الملقب بالحكيم أنه قال :

ألهمت منع الشهوات . . . حتى ربما أمتنع نفسي الماء البارد ، وأتورّع عن شرب ماء الأنهار . . .
ووقع على حب الخلوة في المنزل والخروج إلى الصحراء ، فكنيت أطوف في الخربات والنواويس ، واعتصمت بها (انظر رسالة بدوشان أبي عبد الله للحكيم الترمذي من مجموعة ختم الأولياء لتحقيق عثمان إسماعيل يحيى ص ١٥ ط المطبعة الكاثوليكية بيروت).

وذكر الشعراني عن ابن عربي : انه كان رضى الله عنه أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب ، ثم إنه طرّف طارق من الله عز وجل ، فخرج في البواري على وجهه إلى أن نزل في قبر . فمكث فيه مدة .
ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التي نقلت عنه ، ولم يزل سائحا في الأرض يقيم في كل بلد بحسب الأذن ، ثم يرحل منها (انظر اليواقيت والجواهر للشعراني ج ١ ص ٦ ، ٧ ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة).

وأما ابن الفارض فيقول عنه ابنه :

سمعت والدي ابن الفارض : كنت في أول تجريدي أستاذن أبي وأطلع إلى وادي المستضعفين بالجبل الثاني من المقطم ووى فيه ، وأقيم في هذه السباحة ليلا ونهارا (انظر جمهرة الأولياء لمحمود أبي الفيض المتوفى الحسيني ج ٢ ص ٢٤٦ ط القاهرة ١٣٨٧ هـ).

وعلى ذلك قال ابن عربي : ان التصوف طريق الشدة ، ليس للرخاء فيه مدخل (الأمر المحكم مربوط لابن عربي الملحق بذخائر علائق له أيضا ص ٢٦٨ بتحقيق محمد عبد الرحمن الكروى ط القاهرة).

(٢١٢) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٣٠٥ ط باكستان ، أيضا طبقات الشعراني ج ١ ص ٨٨ .

وحكى عبد العزيز الدباغ عن صوفي أنه «رمى بنفسه في بداية مجاهدته من حلقة داره إلى أسفل تسعين مرة» (٢١٣).

ويحكى عماد الدين الأموى قصة صوفي هندي دمعت إحدى عينيه ولم تبك الأخرى، فقال لعينه التى لم تدمع:

«لأحرمك النظر إلى الدنيا، وغمض عينه، فلم يفتح عينه أكثر من ستين سنة» (٢١٤).

وذكر عن صوفي هندي خضر سيوستاني القادري أنه «كان يسكن في المقابر، ولا يلبس إلا رداء واحدا، وكان يأكل العشب وأوراق الأشجار، كان له تنور يحميه ويتعبد فيه، وكانت حيوانات البادية تجالسه وتأوى إليه، وكان يتعبد في فصل الصيف على حجر حارّ خصّه لنفسه» (٢١٥).

ويذكر الميرز محمد أختر الدهلوى عن الصوفي فخر الدين رازى أنه «كان يسكن ليل نهار في الغابات» (٢١٦).

وحكى عن صوفي هندي مشهور ميان أمير أنه «كان يسكن الجبال بعيدا عن الناس» (٢١٧).

وهناك صوفي مشهور فريد الدين الملقب بكنج شكر فيحكى عنه أنه «علق نفسه معكوسه في بئر، ولم يزل على هذه الحالة أربعين سنة لم يأكل ولم يشرب شيئا» (٢١٨).

وصوفي هندي آخر أحمد عبد الحق «حفر لنفسه قبرا، واشتغل فيه بالعبادة ستة أشهر» (٢١٩).

وأما حبس الدم فيذكر القشيري:

«المبتدئ في الأحوال يجب أن يسكن حواسه، ولا يتحرك أنفاسه» (٢٢٠).

(٢١٣) انظر الأبريز للدباغ ص ١٠٥.

(٢١٤) حياة القلوب للأموى ص ٢١٩ بهامش قوت القلوب.

(٢١٥) انظر تذكرة أولياء برصغير لميرز محمد أختر الدهلوى ج ٣ ص ٣١ ط باكستان.

(٢١٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧.

(٢١٧) تذكرة أولياء باك وهند للدكتور ظهور الحسن شارب ص ٢٨٢ ط باكستان.

(٢١٨) تذكرة أولياء برصغير لميرز الدهلوى ج ١ ص ٩٦ ط باكستان.

(٢١٩) انظر تذكرة أولياء باك وهند للدكتور ظهور الحسن شارب ص ١٧٩ ط باكستان.

(٢٢٠) انظر رسالة ترتيب السلوك من الرسائل القشيرية ص ٦، ط باكستان.

ويذكر الصوفي الهندي الدكتور ظهور الحسن شارب أن الصوفي الهندي المشهور ميان مير «كان يقضى الليل كله في نفس واحدة» (٢٢١).

ويذكر عن صوفي آخر ملا شاه أنه كان «يقضى الليل كله في نفسين فقط» (٢٢٢).

وهذا كله عملا بقول الصوفية:

«مقام المريد المجاهدات والمكابدات، وتحمل المشاق، وتجرع المرات» (٢٢٣).

وأیضا بقولهم: «إن الصوفية يلزمون أنفسهم بالأغلظ والأشق من أقوال العلماء» (٢٢٤).

هذا ومثل هذه الأمور كثيرة جدا، التي لم تؤخذ ولم تقتبس إلا من الديانات الهندية ولا وجود لها في تعاليم الاسلام، ولم تنقل إلى الصوفية إلا منها.

وقبل أن تنتقل إلى فكرة أخرى نريد أن نبين أمرا آخر، وهو أن الصوفية بمختلف مشاربهم وطرقهم يتباهون بحبهم للجميع، وعدم الاعتراض على مذهب دون مذهب ومسلک دون مسلک. وإنهم لا يفرقون بين ديانة وديانة، ولا يميزون بين طائفة وطائفة وجماعة وجماعة، بل يحترمون جميع الآراء والمعتقدات وأصحابها، وقد نقلوا فيها أقوالا عديدة.

مع أنها لا أساس لها في شريعة الاسلام وتعاليمها، حيث أن هذا الأمر أصل من أصول فلسفة اليوجا التي ترى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقا، ولا يعترض على دين وفلسفة مهما اختلفوا وتباعدا في المشرب والمسلک، ويسع مذهبه لمعتقدات الجميع، ويأبى أن يتقيد بقيود أى منها (٢٢٥).

والجدير بالذكر أن هناك كتابا ترجم إلى اللغة العربية باسم (فلسفة راجايوجا) بطبع عبد الغنى أحمد، وترجمة حسن حسين، فيه فصل خاص لمقارنة هذه الفلسفة الهندية بالفلسفة الصوفية، كما أن الكتاب كله يشتمل على الرياضات والمجاهدات

(٢٢١) تذكرة أولياء باك وهند ص ٢٨٦.

(٢٢٢) أيضا ص ٣٠٧.

(٢٢٣) حياة القلوب لعماد الدين الأموى ص ٢٦٨ بهامش قوت القلوب للمكى.

(٢٢٤) أيضا ص ٢٦٦.

(٢٢٥) انظر فلسفة اليوجا تأليف يوجى راما شاراكه ص ١٩٨ نقلا عن أدیان الهند الكبرى للدكتور أحمد الشلبى

ص ١٧١ ط ١٩٦٤ م.

وطرق الأوراد والذكر، التى نقلناها آنفا من المتصوفة الكبار وأقطاب هذه الطائفة وأعلامها.

وأما قضية وحدة الوجود والحلول والاتحاد، المقائذ التى نادى بها الحلّاج وابن عربى وجلال الدين الرومى وغيرهم ممن سلك مسلكهم، ونهج منهجهم. فلم يشك أحد فى كونها مأخوذة مقتبسة بتمامها من «فيدانتا» الهندية.

ومن قرأ آراء شرى شنكر أجاريا فى فلسفة «فيدانتا» عرف جيدا أنها عين ما قاله الحلوليون والاتحاديون وأصحاب وحدة الوجود، وأن ما بينه شنكر، وفصل القول فيه فى شرح فلسفة وحدة الوجود أو فيدنتا هى التى توجد فى كتب الوجوديين بكلياتها وجزئياتها.

وأكثر من ذلك تعرض تعاليم شنكر أجاريا وتقرأ مكتباته على من قرأ كتب ابن عربى، وشارحه ابن الفارض، ومفسره فى العجم جلال الدين رومى، لم يستطع التفريق فى مقولاتهم ومكتوباتهم، وحتى الأسلوب والمنهج والتعبير وبيان الطرق الموصلة إلى حصول المعرفة والادراك.

وبذلك اعترف صوفى كبير من شبه القارة الهندية الباكستانية، وكاتب شهير فى تعاليم التصوف وتاريخه أن مسلك وحدة الوجود بمعنى أنه لا موجود فى الحقيقة إلا الله، وأن وجود الممكنات وهمى مثل الشعلة التى تظهر بتحريكها سريعة دائرة وهمية، يظنها الناظر دائرة حيث لا يكون لها وجود حقيقة، بل حركة الشعلة بسرعة هى التى أوهمت الناظر بوجودها، فكذلك الكون والممكنات. فهذا مسلك شرى شنكر أجاريا، الذى أسسه وأوضحه فى شروحه لأوينشد، وأخذ منه هذه الفلسفة من المسلمين «حضرة الأقداس امام العرفاء محى الدين ابن عربى، والمعروف بالشيخ الأكبر».

كما أنه تأثر بفلسفته حكماء المغرب مثل اسنبوزا، لائبنز، فخته، هيجل، شوين هاور، باذنكويت، وبردليه، كما أن الشهوديين من المسلمين أخذوا فلسفة وحدة الشهود أيضا من العرفاء الهندوكيين. وهذا المسلك مأخوذ من رام نوج أجاريا أحد شراح اوينشاد الأربعة المعروفين (٢٢٦).

فالديانات الهندية هى المصدر الآخر للتصوف الذى راح بين المسلمين،

واختاره طائفة من الناس الذين أرادوا أن يكونوا عرفاء من بين المسلمين ، واختاروا نفس المناهج التي وضعها أصحاب الديانات الهندية لحصول «نروان» أى المعرفة ، وجعلوا غورديسيا (أى تعذيب النفس) وجب وكيان دهيان (أى الصمت والتفكير والذكر) وسيلة للوصول إليها ، وكان هذا ظاهراً جلياً واضحاً إلى حدّ اضطر المراعون للتصوف ، والمداهنون للصوفية ، والمدافعون عنهم أن يقرّوا به على ملأ من الناس :

«فالتصوف الإسلامى الحقيقى مبناه على الكتاب والسنة وعلى أحوال الرسول النبى العربى ﷺ وإن تعرجت مؤخرًا تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألواناً عدة واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسبب المذاهب الموروثة للداخلين المحدثين فى الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين ولاسيما فى عصر الترجمة الذى شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين فترجم المسلمون كتباً كثيرة من التصوف الهندى واليونانى والفارسى وطعمت بعض فروع التصوف الإسلامى الخالص بما دخل عليها من النزعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة وبعض المذاهب الهندية والفارسية فى التصوف كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك (ولكل دين تصوفه وطبعاً).

ومع ذلك ظل التصوف الإسلامى الصميم والذى مصدره الكتاب والسنة قائماً على حاله فى صدور رجاله وفى الكتب الإسلامية كتأليف الحسن البصرى والقشيرى وأبى طالب المكى والسراج والغزالى» (٢٢٧).

«وشد عن ذلك أمثال الحلّاج الذى قال بالحلول والقاتل «أنا الحق وما فى الجبة سوى الله» وبحمى الدين القائل «خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله» وبرأه من فكرة الحلول قوله بالسكروغلبة الحال . وأكثر الصوفية الأعاجم خلطوا بين الفلسفة الفارسية القديمة أو الهندية وما قبسوه عن اليونانية والأفلاطونية الحديثة وبين تصوفهم الخاص» .

وقد تأثر أمثال براهمة الهند والغرس فى أزيائهم وطقوسهم ، واعتنقوا قدراً من أفكارهم» (٢٢٨).

(٢٢٧) والباحث والقارىء يلاحظ هذه المعالجة كثير اما تمسك بها الصوفية ومن دافع عنهم ، ولأجل ذلك لم نورد النصوص والعبارات فى هذا المبحث كله ، ولم نبن الحكم على ما كتبه هؤلاء ومن تبعهم فى موقفهم وسلوكهم ومشرهم ، ولم نتعرض إلى أقوال الوجوديين والحلوليين والاتحاديين مع تمسك القوم بكتبهم ومقولاتهم والمباهاة بعرفاتهم وكرامتهم والمبالغة فى تمجيدهم والثناء عليهم .

(٢٢٨) جهرة الأولياء لمحمود أبى الفيض المنوفى الحسينى ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ويقول صوفي متقدم لسان الدين بن الخطيب :

«ومن الهنود الذى وضع لهم الحكمة المصلحية، الشلم، والمهندم، والبرهمان، والصولية، والبردة، والزهاد، والعباد، ورجال الرماد، وأصحاب الفطرة، وهم يهجرون اللذات الطبيعية جملة، ويكثرّون الجوع والرياضة، عشاق فيما ولّوا وجوههم شطره» (٢٢٩).

وقال الآخر ما خلاصته :

«وشك أن ابن عربى فى مدرسة وحدة الوجود وسوابق بذورها فى مدرسة الحلاج ولواحقها حتى عبد الكريم الجيلى وما بعده قد تأثر بالمصدر الهندى الذى أنطق مذهب الانبثاق الرواقى والفيوضات والصدور عند الأفلاطونية» (٢٣٠).

وقال ماسينيون :

«ونجد من ناحية أخرى أن بحث المراحل التى أدت إلى ادخال الذكر فى طرق الصوفية المحدثين تدلنا على تسرب بعض طرائف الهنود إلى التصوف الإسلامى» (٢٣١).

وبمثل ذلك قال أوليرى المستشرق الآخر :

«وثمة شبيه هندى للفناء، ولكن ليس فى البوذية، وإنما فيما تقول به الفيدانتا من وحدة الوجود» (٢٣٢).

ونيكلسون كذلك، فيقول فى إحدى مقالاته وهو يتكلم فى الفناء الصوفى :

«أما فى شرق فارس حيث ظهرت فكرة الفناء لأول مرة ظهورا واضحا، فلا بدّ أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بأفكار هندية وفارسية.

وبدل تعريف الصوفية للفناء من الناحية الخلقية بأنه محو الصفات الذميمة، والتخلق بكل خلق حميد، ووصفهم لوسائل قمع الهوى والشهوات، على وجود أثر للفلسفة البوذية فيهم مما لا يدع مجالا للشك، لأن تعريفهم هذا تمام الاتفاق مع تعريف النرفانا.

(٢٢٩) روضة التعريف بالحب الشريف لسان الدين بن الخطيب ص ٥٤٣ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ط دار الفكر العربى .

(٢٣٠) أضواء على التصوف للدكتور طلعت غنام ص ١١٣ .

(٢٣١) مقال ماسينيون عن التصوف ص ٤٩ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت .

(٢٣٢) الفكر العربى ومكانته فى الطريق ترجمة عربية ص ٢٠٠ ط ١٩٦١ م .

أما الفناء في عرف أصحاب وحدة الوجود فربما كان أشد اتصالا بفكرة الفيداننا وما يماثلها من الأفكار الهندية . . مثال ذلك أن أبا يزيد البسطامي كان من أهل خراسان، وكان جده زرادشتيا وشيخه في التصوف كرديا . ويقال : أنه أخذ عقيدة الفناء الصوفي عن أبي علي السندی الذي علّمه الطريقة الهندية التي يسمونها مراقبة الأنفاس، والتي وصفها هو بأنها عبادة العارف بالله .

وإنك لتلمح نزعة أبي يزيد إلى وحدة الوجود ماثلة في الأقوال المعزوة إليه .
مثال ذلك :

خرجت من الحق إلى الحق حتى صاحوا مني فيّ (يامن أنا أنت) .
انى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى : سبحانه ما أعظم شأنى .

لخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيت آثاره بآثار غيره» (٢٣٣) .

وقد كرر هذا القول في مواضع كثيرة مختلفة في مقالاته من التصوف والصوفية .
وكتب الدكتور أبو العلاء عفيفى الباحثة المصرى الكبير معلقا على إحدى عباراته، ومصدقا كلامه، مانصه :

«لاشك أن التصوف الإسلامى في ناحيته العملية كان إلى حد ما على التصوف البوذى . يدلّ على ذلك ما ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عن رهبان الزنادقة الذين كانوا يخرجون للسياحة أزواجا، ولا يقيمون في مكان واحد أكثر من ليلتين . وكانوا يأخذون أنفسهم بتطهير القلب والعفة والصدق والفقر . ويذكر الجاحظ قصة رجلين منهم دخلا مدينة الأهواز» (٢٣٤) .

ويقول جولدزهر :

«إن نظرية الصوفيين في فناء الشخصية هي التي تقترب وحدها من فكرة الجوهر الذاتى (اتمان)، إذا لم تكن تتفق معها تماما، ويطلق الصوفيون على هذه الحالة لفظ الفناء أو المحو والاستهلاك» (٢٣٥) .

وقال أحد الكتّاب :

«أما زهر فقد ذهب إلى أن الربط بين الفناء والنرفانا دعوى لا تحتاج إلى

(٢٣٣) في التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة الدكتور أبى العلاء عفيفى ص ٧٥ .

(٢٣٤) أيضا تعليقة رقم ٢ ص ٢٤ .

(٢٣٥) العقيدة والشرعية في الاسلام لجولدزهر ترجمة عربية ص ١٦٢ .

برهان، معتمداً في ذلك على قول لأبي يزيد جاء فيه :

صحبت أبا علي السندی فكنْتُ ألقنه ما يقيم به فرضاً، وكان يعلمني التوحيد والحقائق صرفاً.

فالنص - في نظره - لا يفهم منه سوى أن أبا يزيد كان يعلم السندی الفروض الدينية، باعتباره حديث عهد بالاسلام، مقابل تلقيه عنه علم الحقيقة والفناء، الذي لم يكن على علم به» (٢٣٦).

ونريد أن نثبت ههنا أيضاً نص ما ذكره الباحث الإيراني المشهور الدكتور قاسم غني، فيقول:

«إذا كان رأى أولئك الذين يعتقدون أن التصوف وليد المعتقدات البوذية والهندية مبالغاً فيه، فينبغي أن يقال في الأقل أن من جملة ما كان له تأثير في التصوف الاسلامي أفكار البوذية والهندية ونزعاتها وعاداتها.

والاسلام الذي خرج من حدود الجزيرة العربية بسرعة البرق بعد ظهوره بفترة قصيرة سرعان ما أخذ يتقدم في كل ناحية، ولم تطل المدة حتى بلغ تخوم الصين وفتحت بلاد السند في عهد بني أمية، وتوثقت علاقات تجارية واقتصادية بين المسلمين والشعوب والقبائل التي كانت تختلف من ناحية الفكر والحضارة والأخلاق عن أقوام البلاد الأخرى.

ومنذ القرن الثاني وما بعده وحين بدأ المسلمون بنقل كتب الشعوب الأخرى واتسعت دائرة العلوم - ترجم مقدار من آثار البوذية والهندية مما يدخل في باب التصوف العملي أي الزهد وترك الدنيا ووصف العادات والتقاليد الهندية والبوذية في هذا الباب، ناهيك بنقل كتب هندية وبوذية في القرن الثاني للهجرة والصلوات التجارية والاقتصادية القائمة بين المسلمين والهنود في أوائل الخلافة العباسية وقد انتشرت طائفة من تاركى الدنيا والسائحين من الهنود والمناويين في العراق وسائر البلاد الاسلامية الأخرى وكما كانوا يتحدثون في القرن الأول عن الرهبان السائحين مع المسيحيين كذلك أخذوا يتحدثون في القرن الثاني عن رهبان وسياح ممن لم يكونوا مسلمين ولا نصارى وهم الذين ساهم الجاحظ (رهبان الزنادقة) واعتبرهم من زهاد المناوية.

قال الجاحظ: «إن هؤلاء سياح والسياسة بالنسبة لهم في حكم التوقف واعتزال

(٢٣٦) المراجع في الكتابات الصوفية للدكتور قاسم السامرائي ص ٢١٦.

الساطرة في الصوامع والأديرة، وتلك الجماعة يسافرون دائما اثنين اثنين ويسبحون بحيث إذا رأى الإنسان واحدا منهم يتيقن أن الثاني ليس ببعيد عنه إلى حد ما، وسيظهر قريبا. ومن عاداتهم أنهم لا ينامون ليلتين في مكان واحد، ول هؤلاء السياح خصال أربع: القدس والطهر والصدق والمسكنة».

وهؤلاء السياح تركوا بدورهم أثرا في صوفية المسلمين كما أثر فيهم أيضا السياح والمتجولون والمرتاضون من البوذيين الذين أذاعوا قصة بوذا وقدموه مثالا للزهد والاعراض عن الدنيا، بحيث أن المرتاضين كانوا يعرفونه في كتاباتهم بالمثال الكامل للزهد. وهو الأمير القوى الشكيمة الذي رمى الدنيا ظهريا وحرر نفسه. أويقولون أنه أسير جدير بالثناء خلق بالاحترام متزيا بزى الفقراء. وهذا الموضوع أوجد قصصا ذات صور مختلفة والنقطة الهامة التي يجب ألا تنسى هي أن الديانة البوذية كانت قد انتشرت في شرق إيران أى بلخ وبخارى وفي ماء ما وراء النهر كذلك قبل الاسلام بأكثر من ألف سنة، وكانت لها صوامع ومعابد مشهورة وكانت معابد بلخ البوذية أكثر شهرة بنوع خاص، وصارت بلخ ونواحيها من أهم المراكز الصوفية في القرون الاسلامية الأولى، وكان صوفيو خراسان يعدون في الرعيل الأول من الصوفية في الشجاعة الفكرية والحرية الشخصية، والعقيدة المعروفة «بالفناء في الله» المقتبسة من الأفكار الهندية إلى حد ما والتي انتشرت على الأكثر بواسطة صوفية خراسان. مثل أبي يزيد البسطامي وأبي سعيد أبي الخير» (٢٣٧).

وقبل أن نتقل إلى فكرة أخرى نريد أن نلفت الأنظار إلى أن معتنقى البوذية والجينية والديانات الهندية الأخرى كان لهم أن يترهبوا، ويتجردوا عن الدنيا وما فيها، ويختاروا العزلة والخلوة، ويتيهوا في المفاوز والخلوات، ويعيشوا في المغارات والخانقاوات، ويعذبوا أنفسهم، ويأتوا بالمجاهدات والرياضات، ويتحملوا المشاق، ويتعمقوا في المراقبات والمكاشفات وغير ذلك من الأمور، لأن قادتهم وزعماءهم، هداتهم ومرشديهم فعلوا مثل ذلك لحصول المعرفة، واكتشاف الحق، والوصول إلى طمأنينة الروح والقلب، والاتصال بالخالق والاتحاد به - حسب زعمهم - تشبها لهم واقتداء بهم، وتمسكا بأسوتهم، واقتفاء آثارهم ومناهجهم.

فعلى المتبعين أن يسلكوا جميع تلك المراحل التي سلكها سادتهم وكبراءؤهم، وأن يكابدوا في هذا السبيل تلك الآلام التي تكابدها أولئك.

(٢٣٧) تاريخ التصوف في الاسلام ترجمة عربية لصاقد نشأت ص ٢٢١، ٢٢٢.

وكذلك النصارى .

أولاً : لأنه نقل عن مسيحيهم ما يشجعهم على التبتل والعزلة .

ثانياً : أن حوارى المسيح ، وقدّسى المسيحية الأوائل تحملوا أنواعاً من العذاب فى سبيل التمسك بمذهبهم ، فأوذوا وأجبروا على ترك المساكن والمواطن وعاشوا فى الصحارى والمغارات فراراً بدينهم ، وحفاظاً على إيمانهم ، فحبس منهم وقتل منهم كثيرون ، وعذب الآخرون .

فتأسياً بهم وتقديراً لهم حرّموا أنفسهم من ملذات الدنيا ونعيمها ، وألزموا عليهم العزلة والجوع والمشاق ، وهجروا العيش بين الأهل والأولاد .

وأما المسلمون فلا نبيهم أمرهم بذلك ، ولا أصحابه ورفاقه الأبرار خيرة خلق الله ، وأبرار هذه الأمة عملوا به ، ودينهم دين الاعتدال والدين الوسط ، الناسخ لجميع الشرائع السماوية منها والأرضية ، الإلهامية وغير الإلهامية .

﴿من يبتغ غير الاسلام ديناً فإلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ (٢٣٨) .

والذى كمل قبل انتقال محمد ﷺ إلى الملأ الأعلى .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (٢٣٩) .

وما لم يكن فيهما فهو ابتداء وأحداث فيه ، وليس منه ، ولا له علاقة به .

ولا ندرى ممن أخذ متصوفة المسلمين ونساکهم من المسلمين هذا المنهج والمسلک الذى بنوا عليه تصوفهم وزهدهم . اللهم إلا ممن ذكرناهم من المسيحية ، وأصحاب الديانات الهندية ، وهذه أحوال معتدلى الصوفية ومتقدميهم .

وأما المتطرفون والمتأخرون فقد زادوا على هذين المصدرين مصدراً آخر استقوا منه فلسفتهم ومشرعهم ، وتشبثوا بآرائه ومقولاته . وهو الأفلاطونية الحديثة .

(٢٣٨) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

(٢٣٩) سورة المائدة الآية ٣ .

الأفلاطونية الحديثة

ولقد ذكر جمع من الكتاب والباحثين في التصوف عن اشتغلوا بالتصوف من المسلمين وغير المسلمين . وقل من شذ عنهم أن الأفلاطونية الحديثة هي أحد المصادر الأساسية للتصوف ، بل إنها هي المصدر الأول بالنسبة للقائلين بوحدة الوجود والحلول بدءاً من أبي اليزيد البسطامي ، وسهل التستري ، والترمذي الملقب بالحكيم ، وابن عطاء الله الأسكندرزي ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، والحلاج ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن عربي ، والرومي ، والجيلي ، والعراقي ، والجامي ، والسهروردي المقتول ، وبايزيد الأنصاري وغيرهم .

وأن هؤلاء أخذوا نظرية الفيض والمحبة والمعرفة والاشراق مع الآراء الأخرى التي تمسكوا بها عن الأفلاطونية المحدثه .

وعبارات الصوفية أنفسهم ناطقة بها وشاهدة عليها ولو أنهم اختلطت عليهم آراء الأفلاطونية الحديثة وآراء أفلاطون وأرسطو وغيرهم من حكماء اليونان الآخرين ، حيث نسبوا ذلك إلى هذا ، وهذا إلى تلك .

فيقول صوفي معاصر :

وأما وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من الله كائناً يحل في مخلوقاته أو الاتحادية بالمعنى المفهوم خطأ تلك التي تجعل من الكائن الفاني شخصية تتحد بالموجود الدائم الباقي المنزه عن سائر النسب والاضافات والأحياز الزمانية والمكانية المحدثه أو يتحد به شيء منها فإنها مذهب هندي أو مسيحي وليس بإسلامي ولا يعرفه الإسلام ، استمده أهل الشذوذ في التصوف الإسلامي من الفلسفة البائدة ، وغذوا به مذهبهم الشاذ بفكر أفلاطونية وآراء بوذية وفارسية عن طريق الفارابي وابن سينا ، حاله أن المتتبع لحياة الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن العربي يرى أنهم تأثروا بالمفلسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية القديمة والأفلاطونية الحديثة والأرسطو طاليسية (٢٤٠) .

وكتب قبله بقليل :

«فكان يعلن بعضهم أنه اطلع على الغيب وأن في مقدوره الإتيان بخوارق العادات ثم يذهب إلى ما هو أبعد من هذا مثل قولة الحلاج المشهورة : ما في الجبة غير الله - وغيره : أنا الحق وبمثل هذا وذاك ثار على الحلاج معاصروه ورموه بالسحر تارة والجنون أخرى وعذب عذاباً أليماً إلى أن مات في أوائل القرن الرابع ، والله أعلم بحاله وكان من أمثال الحلاج من بالغوا مبالغة قلت أم كثرت كشهاب الدين عمر السهروردي المقتول رئيس جماعة الإشراقين ومحمى الدين بن عربى الأندلسى . وابن سبعين الصقلى ، وهم من رجال القرنين السادس والسابع وتابعهم جماعة من شعراء الفرس أمثال جلال الدين الرومى وفريد الدين العطار وكلهم يرمى إلى أن يقيم التصوف الإسلامى على دعائم فلسفية أو فارسية وهندية أو يونانية» (٢٤١) .

ويقول الدكتور عبد القادر محمود :

«فإذا عدنا إلى تاريخ الاتصالات الأولى نجد أن الثقافة اليونانية كانت هي الثقافة المسيطرة على العقول في الشرق منذ عهد الإسكندر بالإضافة إلى ثقافات الشرق نفسه، حتى إذا أقبل المسلمون على حضارات غيرهم من الأمم القديمة كان إقبالهم على الثقافة الهلينية بمعونة نساطرة الحيرة وبعاقة غسان ، والسريان في الشام وغيرها ، والصائبة من أتباع زارادشت ، واليهود والنصارى . لكن الذي نؤكد أنه أن باب الاتصال المباشر كان الأفلوطينية المحدثه ولو أن المسلمين حسبوها لأرسطو حين اعتقدوا خطأ أن كتاب الربوبية له ، وهو في الواقع لأفلوطين الذي عرفوا من ورائه أفلاطون والثقافة اليونانية القديمة .

إننا نلاحظ أن الأستاذ نيكلسون يرى أن الاثر كان في القرن السادس الهجرى ، ويختلف معه ماسينيون ، فيرى على وجه أصح أنه كان في القرن الرابع ، والواقع أنه في القرن الثالث ، بدليل أن الربوبية ظهرت عربية في الوسط الإسلامى في القرن الثالث الهجرى وكان لها أثرها المباشر في نظريات الاتصال الفارابية ، ونظريات البسطامى والحلاج . فإذا اعتمدنا على جهد اصطفان بن صُدَيْللى الغنوصى السريانى الذي كان أستاذاً في مجمع «أريحياجوس» الذي تخرج منه ديونيسيوس Dionysius الأريوياجى ، والذي كان معاصراً ليعقوب السروجى الأديب السريانى المشهور (ت ٥٢١م) أقول - إذا عدنا إلى اصطفان بن صديلى ، وجهوده في النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى وفي «الرُّها» بالذات ، فإننا نجد من جهوده الخطيرة

أنه نقل بعد رحلاته في مصر وغيرها مذاهب وحدة الوجود وعاد ونشرها في «الرُّها»، كما اشتغل بشرح الإنجيل، وأنكر أبدية عذاب جهنم، وأكد أن المذنبين سيعودون إلى الجنة بعد تطهير. وكان لهذا أثره في سخط أهل «الرُّها» فطردوه ورموه بالإلحاد، فرحل إلى دير في بيت المقدس، ووجد لأرائه هناك أرضاً خصبة، وجمع آراءه، ونسبها إلى ديونيسيوس لشهرته. من هنا لا نجد غرابة مطلقاً في الدوائر الصوفية في الإسلام انتشار مثل هذه الأقوال التي شاعت مع جهنم بن صفوان، ثم اندفعت في أفق الفكر الإسلامي، حيث شكلت مذاهب الفيض والإشراق والمعرفة والجذب والحلول والاتحاد ووحدة الشهود ووحدة الوجود، وكل مركبات «التيوصوفية» بتأثير الأمشاج المختلطة مع الغنوص الشرقي القديم. فإذا نظرنا في مذاهب الفيض الأفلوطيني - نجد أن الله والعقل الأول والنفس الكلية والمادة غير المصورة والنفوس الجزئية - كل أولئك عبارة عن مراتب الوجود في الأفلوطينية، وهذا ما نجده في مدرسة ابن عربي في الحقيقة المحمدية أول فيض من الذات الإلهية، ثم بقية الفيوضات في جميع الموجودات، وعند ابن الفارض في وحدته الشهودية وفي مذهبه في القطبية والحقيقة المحمدية، وعند الإشراقية السهروردية والشيرازية التي تجعل الله نور الأنوار فياضاً بالأنوار القاهرة وهي النفوس والعقول، وبالجواهر الغاسقة الناشئة عن الأنوار، وهي الأجسام، حتى المصطلحات في المثل أو المعاني الأزلية، والحقيقة، وحقيقة الحقائق، والعلة والمعلول، والوحدة والكثرة، وتحقيق الذات في الموضوع وشيوع الموضوع في الذات.

كل هذا يعود إلى أصوله الأفلوطينية التي تعود هي الأخرى إلى الغنوص الشرقي والغربي المؤول في الفلسفات اليهودية والمسيحية اللاهوتية. لقد أخذت النظريات الصوفية لدى الصوفية الفلاسفة أو الفلاسفة الخالص لدى المشائية الإسلامية جوهرها من الأفلوطينية، وخاصة في المعرفة الإشراقية، التي تلقى إلقاء في النفس عند تطهرها وتحررها، ويكفيها دليلاً التاسوع الخامس لأفلوطين الذي يقول: (النفس التي لا تضاء بضوئه تظل بغير رؤية)، فإذا أضيئت فإنها تحتوى على كل ما تنشده فترى الأسمى بالأسمى - ترى الأسمى الذي هو في الوقت نفسه وسيلة الرؤية لأن ما يضيء النفس هو نفسه الذي تريد رؤيته، كما أننا نرى الشمس بضوء الشمس. لقد مارس أفلوطين (ت ٢٠٥م) هذه التجربة، وأعطى الاتجاه للفارابي وابن سينا، والحلاج والسهروردي، وابن عربي وابن الفارض، وابن سبعين

وبقية الركب المشائي أو الصوفي . يقول أفلوطين (وقد حدث مرات عدة أن ارتفعت خارج جسدي بحيث دخلت نفسي ، كنت حينئذ أحياء ، وأظفر باتحاد مع الإلهي) . (يجب على أن أدخل في نفسي ، ومن هنا استيقظ . وبهذه اليقظة أتحد بالله) . (يجب على أن أحجب عن نفسي النور الخارجى لكى أحياء وحدي وحدي في النور الباطن) (٢٤٢) .

ويقرر هذا الأمر الدكتور عبد الرحمن بدوي - ولأنه يختلف مع الدكتور عبد القادر في طرق وصولها إلى الصوفية - حيث أنه يقول تحت عنوان التأثير اليوناني في التصوف :

«وأهم نص في هذا الباب هو كتاب (أثولوجيا أرسطوطاليس) وهو كما نعلم فصول ومقتطفات ، منتزعة من التساعات الأفلاطونية ، وفيه نظريات الفيض والواحد التي ستلعب دورا خطيرا في التصوف الإسلامى ، خصوصا عند السهروردي المقتول وابن عربى ، وفيه أيضا نظرية (الكلمة) أو اللوغوس .

ولاشك في تأثير الصوفية المسلمين ابتداء من القرن الخامس الهجرى بها في (أثولوجيا) من آراء . وإنما الخلاف هنا هو في هل وصل تأثيره إلى التصوف الإسلامى مباشرة ، أو عن طريق كتب الاسماعيلية ، وكلها حافلة بالتأثر به .

ويتلوه في الأهمية الكتب المنسوبة إلى هرمس . . . وشخصيته بارزة التأثير عند السهروردي المقتول ، وابن عربى . الأول خصوصا في فكرة الطباع التام ، التي تأثر بها كل الإشرافيين بعد السهروردي ، والطباع التام هو (النوس) . ويسمى أيضا الروحانية . والطبيعة الكريمة .

ويتصل به ما يرد من علم الصنعة سواء عند الصنعونيين (الكيميائيين) وعند الصوفية المسلمين .

ومن النصوص المهمة المنسوبة إلى هرمس : رسالة هرمس في معادلة النفس ، التي نشرناها في كتابنا : الأفلاطونية المحدثة عند العرب ، فهي مناجيات للنفس وتحليل لها ، وتأنيب للنفس الأمانة ، ودعوة للنفس من أجل التطهر والتقديس . ومن السهل أن نجد أصداء لها ومشابهة في مناجيات الصوفية المسلمين .

ثم ان هناك فصولا منحولة لأفلاطون وسقراط وغيرهما من الفلاسفة اليونانيين

(٢٤٢) الفلسفة الصوفية في الاسلام للدكتور عبد القادر محمود ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ط دار الفكر العربى .

معظمها آداب وأقوال . . . وكلها تتشابه في بعض آرائها مع الأقوال المنسوبة إلى كبار الصوفية المسلمين في كتب طبقات الصوفية المختلفة (القشيري، السلمي، الشعراني، الهروي، العطار، الجامي الخ)» (٢٤٣).

ولقد أقر الدكتور أبو العلاء العفيفي أيضا بتأثر ابن عربي ومن نهج منهجه في الأمور الكثيرة وفي نظرية الفيض بأفلاطونية المحدثه (٢٤٤).

وكتب الدكتور التفتازاني كلاما يشبه هؤلاء حيث قال :

«ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية المحدثه خاصة، إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران. وقد خضع المسلمون لسلطان أرسطو، وإن كانوا قد عرفوا فلسفة أرسطو على أنها فلسفة اشراقية، لأن عبد المسيح بن ناعمة الحمصي حينما ترجم الكتاب المعروف بـ «أتولوجيا أرسطوطاليس» قدمه إلى المسلمين على أنه لأرسطو على حين أنه مقتطفات من تاسوعات أفلوطين .

وليس من شك في أن فلسفة أفلوطين السكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس، كان لها أثرها في التصوف الإسلامي فيما نجده من كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة. وكذلك، كان لنظرية أفلوطين السكندري في الفيض «وترتب الموجودات عن الواحد أو الأول. أثرها على الصوفية المتفلسفين من أصحاب الوحدة كالسهروردي المقتول، ومحي الدين بن عربي، وابن الفارض، وعبد الحق بن سبعين، وعبد الكريم الجيلي، ومن نحاه نحوهم .

ونلاحظ بعد ذلك أن أولئك المتفلسفة من الصوفية نتيجة اطلاعهم على الفلسفة اليونانية قد اصطنعوا كثيرا من مصطلحات هذه الفلسفة مثل : الكلمة - العقل الأول - العقل الكلي - العلة والمعلول - الكلي . . . الخ» (٢٤٥).

وبمثل هذا قال الدكتور محمد كمال جعفر (٢٤٦).

(٢٤٣) انظر تاريخ التصوف الاسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤١، ٤٢ .

(٢٤٤) انظر تعليقات أبي العلاء العفيفي من فصوص الحكم لابن عربي الجزء الثاني ص ٩ ط دار الكتاب

العربي بيروت .

(٢٤٥) انظر مدخل إلى التصوف الاسلامي للدكتور أبي الوفا الغنيمي التفتازاني ص ٣٣، ٣٤ .

(٢٤٦) انظر مقدمة كتاب المعارضة والرد لسهل بن عبد الله الستري ط دار الانسان القاهرة .

والدكتور مصطفى حلمي (٢٤٧).

والدكتور زكي مبارك (٢٤٨).

والدكتور محمد جلال شرف (٢٤٩).

والدكتور هلال إبراهيم هلال (٢٥٠).

وأما الدكتور قاسم غنى الفارسي فكتب :

« وأن طريق الوصول إلى المبدأ والحصول على التمتع الأبدى هو تطهير النفس السفلية عن طريق التجرد من الشهوات الجسمانية والميول الحسية وممارسة الفضائل الأربع، وهي : العفة، والعدل، والشجاعة، والحكمة. هذه نماذج من آراء الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي وفق المسلمون بينها وبين الشرع الإسلامى . ولهذا الغرض حذفوا منها أشياء وزادوا عليها أشياء وسموها «حكمة الاشراق» .

وقد أثر في التصوف والعرفان ذبوع آراء أفلاطون وظهور الفلسفة الأفلاطونية الحديثة بين المسلمين أكثر من أي شيء . وبعبارة أخرى، أحرز التصوف الذي كان إلى ذلك الحين زهدا عمليا أساسا نظريا وعلميا .

وإذا دققنا في آراء الأفلاطونية الحديثة وجدنا أن الصوفى الزاهد الذي غرض الطرف عن الدنيا وما فيها بحكم أنها فانية، وتعلق خاطره بما هو خالد . يشعر بلذة الرضا في فلسفة أفلوطين . بل يحصل على متهى غايته في تلك الآراء، وموضوع وحدة الوجود في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة جذب أنظار الصوفية أكثر من أي شيء آخر لأن الذين يؤمنون بهذه العقيدة يرون أن العالم كله مرآة لقدرة الحق تعالى وكل موجود بمثابة مرآة تتجلى ذات الله فيها إلا أن المرايا كلها ظاهرة، والوجود المطلق والموجود الحقيقى هو الله . وينبغى على الإنسان أن يسعى حتى يمزق الحجب ويجعل نفسه محلا لتجلى جمال الحق الكامل ويبلغ السعادة الأبدية .

على السالك أن يطير بجناح العشق نحو الله تعالى ويحرر نفسه من قيد وجوده الذي ليس إلا مظهرها فحسب . وينمحي ويفنى في ذات الله أي الموجود الحقيقى» (٢٥١).

(٢٤٧) انظر القيم الروحية ص ٥٨ وم بعد .

(٢٤٨) انظر التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢٤٩) انظر دراسات فى التصوف الاسلامى ص ٣٤٦ .

(٢٥٠) انظر ولاية الله والطريق إليها، مقدمة .

(٢٥١) انظر التصوف الاسلامى للدكتور قاسم غنى ترجمة صادق نشأت ص ١٤٢، ١٤٣ .

هذا ويمثل ذلك قال الآخرون من الفرس الذين اشتهروا بأشتغالهم في التصوف، مثل الدكتور عبد الحسين زرّين كوب^(٢٥٢).

والأستاذ مهدي توحيدى بور^(٢٥٣).

وقبلهم الأردبيلي أحمد بن محمد^(٢٥٤).

وغيرهم الكثيرون الكثيرون .

وأما صوفية الهند وكتاب شبه القارة عن التصوف فأيضاً أقرأوا بتلك الحقيقة الناصعة التي لا يمكن التهرب والأعراض عنها .

فلقد قال البر وفور يوسف سليم جشتى في كتابه الكبير عن التصوف، بعد ما استعرض آراء الأفلاطونية الحديثة ونظريتها مفصلة، قال :

«ان التصوف لم يقتبس، ولم يؤخذ إلا من المنابع الصافية والمصادر الطاهرة، وعلى رأسها الأفلاطونية المحدثه، وتبنى الشيخ الأكبر محمى الدين بن عربى نفس الأفكار التي نشرها أفلوطين الأسكندرى، المبنية على الفكر الفلسفى والمشاهدة الذاتية، والذي بين أن تزكية النفس لا يمكن إلا بالتبتل عن العلائق الدنيوية والعالم المادى، ولها مراتب ثلاث :

تصفية النفس، وتجليه النفس، وتحلية النفس .

ولا يمكن الوصول إليها إلا بالمراحل الثلاث :

أولاً : بالفن والآداب، والمراد منها طلب الحقيقة وجمالها . وان هذين الشيئين أي (Truth and Beauty) اسمان لشيء واحد في الحقيقة .

ثانياً : بالعشق .

ثالثاً : بالحكمة .

وأهم الأشياء في فلسفته أن طريق تهذيب النفس وتكميل الروح ليس ببرهاني ولا عقلى، بل هو وجداني وكشفى، كما أن فلسفته في الالهيات تدور على وحدة

(٢٥٢) انظر كتابه دنباله جستجودر تصوف ايران ص ٢٦٧ وما بعد ط طهران ١٣٦٢ هجرى شمسى .

(٢٥٣) انظر مقدمة فحات الأنس للجامى الطبعة الفارسية ص ٨٣ وما بعد ط ايران ١٣٣٧ .

(٢٥٤) انظر حذيقة الشيعة ص ٢٦٦ ط طهران .

الوجود، وهذا عين ما كان يؤمن به الشيخ الأكبر ابن عربي وغيره، كما أومن به أنا أيضا (٢٥٥).

وبمثل ذلك قال الآخر :

ولا يبعد أن التصوف الإسلامي قد تأثر إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية والتصوف الهندي والأديان الأخرى المجاورة للعرب كالمسيحية في الشام واليهودية في اليمن والزرادشتية في العراق وبلاد الفرس وغيرها إذ تم الاختلاط بين العرب وبين معتنقى هذه الديانات في القرن الثاني والثالث الهجري، وترجمت الفلسفة اليونانية كما ترجمت الثقافات الأخرى التي كانت موجودة عند أهل هذه البلاد المفتوحة قبل دخولهم في الدين الإسلامي .

لذلك رأى بعض العلماء أن التصوف الإسلامي هو إيجاد الفلسفة اليونانية .

بينما قال البعض الآخر : أنه نواة الدين المسيحي ، في حين أن فريقا من المحققين يميلون إلى أن التصوف الإسلامي قد أخذته العرب من الهنود كما أخذت العرب الفلسفة من اليونان إذ كان التصوف شائعا رائجا بين الهنود قبل الإسلام بقرون، ولم يظهر عند العرب في صورة مذهب مستقل إلا بعد فتح البلاد الهندية واختلاطهم بأهل تلك البلاد (٢٥٦) .

فهذه هي عبارات ونصوص الباحثين من المسلمين الذين عرفوا بالبحث والكتابة عن التصوف والصوفية، والأكثر منهم من عرفوا بالولاء للصوفية والدفاع عنهم وعن معتقداتهم، والبعض منهم يُعَدُّ من الصوفية ومحسب على التصوف .

هذا ولأجل ذلك ذهب معظم المستشرقين إلى أن الأفلاطونية الحديثة من أهم مصادر التصوف، وخاصة للتصوف المتأخر من القرون الأولى، ولقد بحث المستشرق الانجليزى نيكلسون هذا الأمر في مقالاته عن التصوف بمواضع عديدة، فأرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجري. وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره هو الأفلاطونية الحديثة المتأخرة التي كانت شائعة في مصر والشام إلى عهد ذى النون المصري ومعروف الكرخي، ولهذا

(٢٥٥) انظر تاريخ التصوف باللغة الأردية ليوسف سليم جشتى ص ٦٣ وما بعد ط علماء اكاديمي وزارة الاوقاف باكستان ١٩٧٦ م.

(٢٥٦) مقدمة كتاب بايزيد الأنصاري للدكتور مير ولي خان الطبعة العربية ص ٩٩ ط مجمع البحوث الاسلاميه باكستان ١٣٩٦ هـ.

يتخذ من ذي النون المصري محورا لبحثه في هذه المقالة، فيأتي بكثير من الأسانيد التاريخية عن حياة ذي النون ونشأته، ويستدل بها على أن ذا النون كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره. ويتتبع حركة الثقافة اليونانية المتأخرة وطرق وصولها إلى المسلمين .

ويتهى إلى أن التصوف في ناحيته النظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة موافقا في ذلك رأى ميركس الذي شرح هذه النظرية في كتابه (التاريخ العام للتصوف ومعالمه) هيدلبرج سنة ١٨٩٣م (٢٥٧).

ويقول نيكلسون :

«ولا حاجة بنا إلى الإطناب في الكلام عن انتشار الثقافة الهلينية بين المسلمين في ذلك العصر، فإن كل من له إلمام بتاريخ العرب الأدبي يعلم كيف طغت موجة العلوم اليونانية - وقد بلغت ذروتها آنثذ - على العراق من مراكز ثلاثة : من الأديرة المسيحية في الشام، ومن مدرسة جنديسابور الفارسية في خوزستان، ومن وثني حران - أو الصابئة في الجزيرة. وقد نقل إلى العرب كتب لا حصر لعددتها في الفلسفة والطب وسائر العلوم اليونانية الأخرى، وعكف على دراستها المسلمون واتخذوها أساساً قامت عليه اتجاهاتهم الجديدة في البحث، حتى لتكاد العلوم والفلسفة الإسلامية تكون مؤسسة على حكمة اليونان وحدها .

وأبرز شخصية يونانية في الفلسفة الإسلامية هي أرسطوطاليس لا أفلاطون؛ ولكن العرب استمدوا أول علمهم بفلسفة أرسطوطاليس من شراح الأفلاطونية الحديثة، وكان المذهب الذي غلب عليهم هو مذهب أفلوطين وفورفوريوس وأبرقلس. وليس كتاب «أثولوجيا أرسطوطاليس» الذي نقل إلى العربية حوالي ٨٤٠م حسب تقدير دتريصى إلا ملخصاً للمذهب الأفلاطونية الحديثة. ومعنى هذا أن الأفكار الأفلاطونية الحديثة قد انتشرت بين المسلمين انتشاراً واسعاً. . . ولا داعي الآن إلى الاسترسال في هذا الموضوع بأكثر من هذا القدر، ويكفي القول بأن المسلمين قد وجدوا المذهب الأفلاطوني الحديث أينما حلوا وفي أي مكان اتصلوا فيه بالحضارة اليونانية .

(٢٥٧) انظر مقدمة الدكتور أبي العلاء العفيفي لطائفة من الدراسات المجموعة باسم في التصوف الاسلامي

وتاريخه ص (س).

وقد كان لمصر والشام دائماً الصدارة بين الأمم التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية، وهما البلدان اللذان ظهر التصوف فيهما لأول مرة بمعناه الدقيق وتطور كما أسلفنا. والرجل الذي اضطلع بأكبر قسط في تطور هذا النوع من التصوف، هو ذو النون المصري الذي وصف بأنه حكيم كيميائي، أو بأنه - بعبارة أخرى - أحد أولئك الذين نهلوا من منهل الثقافة اليونانية. فإذا أضفنا إلى هذا أن المعانى التي تكلم فيها ذو النون هي - في جوهرها - المعانى التي نجدتها في كتابات يونانية مثل كتابات ديونيسيوس

وليس عندي من شك في أن المذهب الغنوصي بعد ما أصابه من التغيير والتحوير على أيدي مفكرى المسيحية واليهودية، وبعد امتزاجه بالنظريات اليونانية - كان من المصادر الهامة التي أخذ عنها رجال التصوف الإسلامى ؛ وأن بين التصوف والغنوصية مواضع اتفاق كثيرة هامة . ولا شك عندي أيضاً في أن دراسة هذه المسألة دراسة دقيقة وافية لمآبأتى بأطيب الثمرات، ولكننى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندي أو فارسي، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية : أو بمعنى أدق وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي» (٢٥٨).

ويقول في مقال آخر :

وما يحملنا على الجزم بوجود أثر للفلسفة اليونانية في التصوف الإسلامى أن نظرية المعرفة فيه ظهرت في غربى آسيا ومصر في بلاد تأصلت فيها الثقافة اليونانية أحقاباً طويلة، وكان بعض المبرزين في الكلام فيها من أصل غير عربى» (٢٥٩).

وفي مقال آخر صرح بأن التصوف الفلسفى الإلهى هو أثر من آثار النظر اليونانى، ولا يمكن الإنكار من امتزاج الفكر اليونانى والدين الإسلامى في التصوف وخاصة الأفلاطونية المحدثه (٢٦٠).

(٢٥٨) انظر في التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية ص ١٤ وما بعد.

(٢٥٩) أيضاً ص ٧٣، ٧٤ .

(٢٦٠) صوفية الاسلام ص ١٥ .

وبمثل ذلك قال براون في كتابه (تاريخ فارس الأدبي)، والمستشرق الأوليرى في كتابه (الفكر العربي ومكانته في التاريخ) (٢٦١).
وميركس في كتابه (٢٦٢).

ويقول ماسينيون المستشرق الفرنسي :
«وتسربت الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي ، وأخذ سلطانها يزداد باطراد

منذ أيام الأذرية القرامطة القدامى ، والرازي الطبيب إلى عهد ابن سينا ، وكان من نتيجة ذلك أن استحدثت في القرن الرابع الهجري مصطلحات ميتافيزيقية أدق من سابقتها يفهم منها أن الروح والنفوس جواهر غير مادية ، وأن ثمة معانى عامة وسلسلة من العلل الثانية وغير ذلك ، وأن هذه المصطلحات اختلطت بالإلهيات المنحولة لأرسطو ، وبمثل أفلاطون ، وفيوضات أفلوطين ، وقد كان لهذا كله أثر بالغ في تطور التصوف» (٢٦٣).

فهذه هي آراء المستشرقين ، تشبه تماما آراء من ذكرناهم قبل ذلك من المسلمين .

وهناك في كتب بعض الصوفية المتقدمين ما يدل على ارتباطهم بالفلسفة اليونانية وأخذهم عنها ، وتأثرهم بها ، حيث مجدوها وبالغوا في الشناء عليها ، وعلى من أوجدها وطرحها ونشرها بين الناس ، ولو حصل الخطأ في نسبة بعض الآراء والأفكار إلى البعض دون البعض ، وإلى الواحد دون الآخر كما مرت الإشارات إلى ذلك أثناء نقل العبارات السابقة عنهم .

فيقول الجيلي في كتابه (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) في الجزء الثاني منه ما يدل على حبه العميق لموجدى الفلسفة اليونانية والربط الشديد لموجديها ، فيقول :

ولقد اجتمعت بافلاطون الذي يعدونه أهل الظاهر كافرا ، فرأيته وقد ملأ العالم الغيبى نورا وبهجة ، ورأيت له مكانة لم أرها إلا لأحد من الأولياء ، فقلت له : من أنت ؟

قال : قطب الزمان وواحد الأوان ، ولكم رأينا من عجائب وغرائب مثل هذا

(٢٦١) انظر ص ١٩٦ ، أيضا مدخل إلى التصوف للتفتازانى ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢٦٢) انظر كتابه التاريخ العام للتصوف ومعاله .

(٢٦٣) التصوف لماسينيون ص ٣٨ ، ٣٩ .

ليس من شرطها أن تفشى ، وقد رمزنا لك في هذا الباب أسراراً كثيرة ما كان يسعنا أن نتكلم فيها بغير هذا اللسان ، فآلق القشر من الخطاب وخذ اللب إن كنت من أولى الألباب» (٢٦٤).

وفي مقام آخر من كتابه كتب أن أرسطو تلميذ أفلاطون لزم خدمة الخضر واستفاد منه علوماً جمة ، وكان من تلامذته (٢٦٥).

وهذا غير ما ذكر من آرائه وآراء أفلاطون وفلسفتها ، والتعلق والتمسك بها ، ومصطلحاتها التي استعملها واعتنقها وآمن بها .

وبمثل ذلك كتب لسان الدين بن الخطيب في كتابه الصوفي الكبير (روضة التعريف بالحلب الشريف) حيث يلقب أفلاطون كلما يذكره بمعلم الخير ، وأرسطو بحكيم مثاله ، وسقراط وهرمس وغيرهم من أهل الأنوار .

وحكى عن أرسطو (خطأ) أنه حصل له الاتحاد بالذات الإلهية . فيقول نقلاً عن أرسطو أنه قال :

«إنى ربها خلوت بنفسى كثيراً ، وجعلت بدنى جانباً ، وصرت كأنى مجرداً بلا بدن ، عرى من الملابس الطبيعية ، فأكون داخلاً في ذاتى ، خارجاً من سائر الأشياء . فأرى في ذاتى من الحسن والسناء ، والبهاء والضياء والمحاسن العجيبة ، والمناظر الأنيقة ، ما أبقى له متعجباً متحيراً باهتاً ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف . فلما أيقنت بذلك ، رقيت بذهنى إلى العلة الإلهية المحيطة بالكل ، فصرت كأنى موضوع متعلق بها . فأكون فوق العالم كله ، فأرانى كأنى واقف في ذلك الموقف الشريف المقدس الإلهى فأرى هنالك من النور والبهاء ، والبهجة والسناء ، مالا تقدر الألسن على صفته ، ولا الأسباع على نعته ، ولا الأوهام أن تحيط به ، فإذا استغرقتنى ذلك النور والبهاء ، لم أطق على احتماله ، ولا الصبر عليه فارتددت عاجزاً عن النظر إليه ، وهبطت من العقل إلى الفكر والروية ، فإذا صرت في عالم الفكر والروية ، حجبت الفكرة عنى ذلك النور والبهاء ، وحالت بينى وبينه الأوهام ، فأبقى متعجباً كيف انحدرت من ذلك الموضع الشاهق العالى الإلهى ، وصرت سفلاً في موضع الفكر والضيقة ، بعد أن قويت نفسى على التخلف عن بدنها ، والرجوع إلى ذاتها ،

(٢٦٤) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجبلى ج ٢ ص ٥٢، ٥٣ الطبعة الرابعة ١٩٨١ م.

(٢٦٥) أيضاً ج ٢ ص ١١٧ .

والترقى إلى العالم العقلى ، ثم العالم الإلهى ، مع العقول فوق العوالم كلها ، حتى صارت في موضع البهاء والنور والسناء مجتلية الذي هو علة كل نور وبهاء ، وسبب كل دوام وبقاء .

ومن العجيب . أني كنت رأيت نفسى ممتلئة نوراً ، وهى في البدن كهيتها ، والبدن معها ، وهى خارجة عنه ، على أنى لما أطلت الفكرة ، ومحضت الروية ، وأجلت الرأى ، وصرت كالمتحير المبهوت ، تذكرت الفلطنوس ، فإنه أمر بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريفة ، والحرص على الصعود إلى ذلك العالم الشريف الأعلى . وقال : إنه من حرص على ذلك ، وارتقى إلى العالم الأعلى ، ولحق بالجواهر الإلهية ، والأسباب الكلية ، يجرى أحسن الجزاء اضطراباً . فلا ينبغي لأحد أن يفتر عن الطلب والحرص ، والجد في الارتقاء إلى ذلك العالم ، وإن تعب وكد ونصب ، فإن أمامه الراحة التي لا تعب بعدها ، في حياة دائمة ، وعيشة راضية ، ولذات باقية لا يتناهي أمدها ، ولا يقطع مددها . مخلوقة للإنسان كلها ، والإنسان مخلوق لها ، أليس عجزاً أن تمر ساعة من عمره في غير ما خلق له من ذلك ؟ أليس من فرط في السعى لذلك ظالماً لنفسه ، ومهلكاً ذاته ، وفاعلاً بجوهرته النفسية ما لم يفعل به أعدى عدو له ، فيندم حين لا ينفعه الندم» (٢٦٦) .

ثم علق عليه بقوله :

«وبيان هذه السعادة : من تعرض له ، فقد تعاطى ما لا تستقل به نفس ، ولا تطمع فيه قوة إنسانية . . . وسبيل السعادة عندهم الرياضة ، وعلاج الأخلاق ، حتى يصير شبيهاً بالخير المحض وهو المبدأ ، وتلطيف السر ، وأن يصرف عن النفس شواغل الجسم ، ويترقى في معارج المحبة والشوق إلى ذلك الكمال بالفكرة ، حتى تحس النفس بانجذابها إلى عالمها ، وتفيض عليها عجائبه . وقد أخبر هؤلاء الإلهيون عن أنفسهم بما ذكرناه آنفاً ، من أنهم نزعوا جلايبب الجسمانية في هذا العالم ، وترقوا إلى العالم العلوى ، فأبصروا من نوره ولذاته أموراً مذهلة ، ثم عادوا إلى عالم الحس ، ورمزوا ذلك في كتبهم ، حسبما نقل سقراط الدنان ، ومعلم الخير أفلاطون وإمام المشائين أرسطو» (٢٦٧) .

وهذه العبارات منشورة مبثورة في كتب القوم كثيراً ، ناطقة عن كنههم وحقيقة

(٢٦٦) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ .

(٢٦٧) أيضاً ص ٥٦٠ .

مشربهم الذي اختاروه منهجا ومسلكا من التصوف والصوفية كشهادات داخلية واعترافات ذاتية .

وعلى ذلك قال الصوفي المشهور عبد الوهاب الشعراني عن شيخه :

«وكان سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول :

كثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره الا على قواعد المعتزلة والفلاسفة فالعقل لا يبادر إلى الإنكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم ، بل ينظرو ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها ، فما كل ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلا» (٢٦٨).

وبعد هذه الشهادات والاعترافات لا نرى الاحتياج إلى ذكر عبارات الصوفية ، ومقارنتها بآراء الفلاسفة والأفلاطونية المحدثة كي لا يطول بنا الحديث ولو أننا سوف نتكلم في هذا الخصوص ونضطر إلى سرد تلك النصوص في محل آخر من الكتاب عند الاحتياج والضرورة .

فهذه هي مصادر التصوف ، التي استقى منها شجرته حتى نمت وازدهرت ، فأينعت وأثمرت ، ولا يمكن رده إلى مصدر واحد «فإن أثر المسيحية والأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عامل لا سبيل لنا إلى إنكاره في التصوف الإسلامى . وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة في الأوساط التي عاش فيها الصوفية ، فلم يكن بد من أن تترك طابعها في مذاهبهم . ولدينا أدلة كافية توضح أثرها في التصوف ومكانتها منه ، ولو أن المادة التي بين أيدينا لا تمكننا من تتبع أثرها بالتفصيل . وبالجملية يمكن القول بأن التصوف في القرن الثالث - شأنه في ذلك شأن التصوف في عصر من عصوره - ظهر نتيجة لعوامل مختلفة أحدثت أثرها فيه مجتمعة . أعنى بهذه العوامل البحوث النظرية في معنى التوحيد الإسلامى ، والزهد والتصوف المسيحيين ، ومذهب الغنوصية ، والفلسفة اليونانية والهندية» (٥٦٩).

وكان هناك مصدر آخر هام له تأثير قوى في تكوين التصوف وتشكيله ، وتحوير منهجه وتطويره ، وترويج الأفكار الأجنبية البعيدة عن الإسلام وتعاليمه فيه ، غير هذه

(٢٦٨) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١١ .

(٢٦٩) نيكلسون : التصوف : دائرة معارف الدين والأخلاق ج ١٢ ص ١٠ وما بعد ١٩٣٤ م ، أيضا «في التصوف

الإسلامى وتاريخه» ص ٧٢ .

المصادر التي ذكرناها، وهو : الشيعة الذي وضع نواته اليهود، وساهمت في تنشئته وتنميته الديانات الفارسية .

ولكن لما لهذا المصدر من أهمية كبيرة، وتأثير كبير لتغيير وجهة التصوف ومجراه، وتخليق أفكار غريبة فوق الغرابة التي وجدت فيه من المصادر الأخرى ربما تصطدم بنصوص صريحة للقرآن والسنة لا تحتمل التأويل، وتقضى على تعاليمها .

ولفارق آخر، وهو أن مصادر التصوف الأخرى أخذ منها التصوف أفكارها، واقتبس منها آراءها دون أن يكون لتلك المصادر قصد ورغبة، وهدف وغرض ولتلقين المتصوفة تعاليمها وفلسفاتها، ونشرها بينهم، غير أن الشيعة بثّ أفكاره، ودسّ معتقداته، وروجّ نظرياته بين الصوفية عن قصد وعمد لتشويش المسلمين في عقائدهم ومعتقداتهم وتبكيّت أهل السنة عن الاعتراض على الشيعة وزيفه وضلاله، والزامهم السكوت بابرار طائفة تنتمي إليهم، وتحسب عليهم، وتحمل نفس المعتقدات التي تشتمل عليها هي، وهذا أمر خطير في تاريخ الطوائف والفرق، والملل والنحل .

ولذلك نخصص لبيانها بابا مستقلا ليكون الباحث والقارئ على اطلاع كامل على ما يحتاجه هذا البحث، وتتطلبه هذه القضية .

الباب الثالث التشيع والتصوف

إن التشيع أوجده اليهود، وأسسوا أسسه، وأصلوا أصوله، وأرسوا قواعده، ووضعوا عقائده ومعتقداته، بوساطة إبنهم البار بهم عبد الله بن سبأ، المتزى بزى الإسلام، واللابس ثوبه ولباسه، تقية وخداعا، الذى أرسل إلى عاصمة الخلافة الإسلامية أيام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه من قبل يهود صنعاء اليمن لتقويض دعائم الإسلام، وفناء دولته، ومسح شريعته السماوية البيضاء، وهدم قوائمها وأركانها، وترويج عقائد اليهودية بين المسلمين، وإيجاد الفرقة والاختلاف بينهم، واسعار نار الحقد والبغضاء، وفتح باب المطاعن والتلاعن، والسباب والشتائم، بدل الأخوة الصادقة والتواد والتعاطف والترحام:

«إن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم، ووالى علياً عليه السلام، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصى موسى بالغلو، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في علىّ مثل ذلك، وكان أول من أشهر القول بفرض امامة علىّ، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه، وكفرهم. ومن هنا قال من خالف الشيعة: إن التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية^(١).

فاجتمع حوله وتحت لواء التشيع كثير من أبناء اليهودية البغيضة، والفرس المهزومين، والبابليين المكسورين، والموالى المقهورين، والكارهين للعرب حكامهم، والفاطحين بلادهم، والأخذين زمام أمورهم، بعد فشلهم في محاربة الإسلام وجيوشه المظفرة المنصورة وجها لوجه، واندحار قوتهم، وانكسار شوكتهم، فغير وأسلوهم في مزاحمة الإسلام جهرا، فتستروا بستار الإسلام، ودخلوا في صفوفه، واندجوا في

(١) رجال الكشي ص ١٠١ ط مؤسسة الأعلمى بکربلاء - العراق. أيضا تنقيح المقال للمامقانى ج ٢ ص ١٨٤ ط طهران، أيضا فرق الشيعة للنوبختي ص ٤٣، ٤٤ ط المطبعة الحيدرية بالنجف العراق ١٣٧٩ هـ، كتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد الله القمي ص ٢١ ط طهران ١٩٦٢ م، رجال الطوسي ص ٥١ ط نجف، تحفة الأحباب ص ١٨٤، ناسخ التواريخ ج ٣ ص ٣٩٣ ط ايران، كتاب الرجال للحلى ص ٤٦٩ ط طهران ١٣٨٣ هـ، منهج المقال للأسترابادى ص ٣٠٣، شرح ابن أبى أبى الحديد ج ٢ ص ٣٠٩ وغير ذلك من الكتب الشيعية الكثيرة، ومثله في كتب السنة.

بيئته، وروّجوا بين المسلمين أفكارا يهودية ومجوسية ونصرانية، وعقائد مدخولة مدسوسة، نقمة على الإسلام والمسلمين، من حلول الإله أو الجزء الإلهي في الخلق، واجراء النبوة بعد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، ونزول الوحي واتيان الملائكة، وحصول العصمة، ووجود شخص في كل عصر وزمان به قيام الأرض وثباتها، وعقيدة الوصاية والولاية، والاختفاء والكتمان، والتأويل، وانقسام العلم إلى الظاهر والباطن، وتقسيم الناس إلى العامة والخاصة، وتعطيل الشريعة ومسوخها، ومسح تعاليمها، ورفع التكليف وغير ذلك من الخرافات والترهات مما لا علاقة لها بالإسلام، قريبة ولا بعيدة، ولم يقصد من بثّها ودسّها إلا ضرب الإسلام ومحوه من الوجود، وتفريق كلمته، وتشتيت قوته، ودرء هيئته، وخرق هيئته.

فكان هذا هو المقصود من تكوين التشيع وإنشائه، فأدى التشيع في سبيل ذلك خدمات جليلة، وكان أول ضحيته سيدنا الامام المظلوم عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث وصهر رسول الله، كما كان أول ثمرته التفرق والتمزق، والتشتت والتحزب في الأمة الاسلامية الواحدة، المتفقة العقائد، المتحدة الآراء والأفكار، فولدت الفرق، ونشأت الطوائف العديدة وبرزت الآراء الجديدة، وراجت بين المسلمين مذاهب لم تكن موجودة ولا معروفة من قبل، وكثير من المذاهب المنحرفة والعقائد الزائفة الزائفة غديت من قبل التشيع، ونميت وربيت، وأمدت ودعّمت، ولو أنه بعد حين صار هذا الزيغ والضلال من لوازم تلك النحلة، وعلائم تلك الطائفة، حيث أنسى تقادم العهد المصدر الأصلي، والمنبع الحقيقي، والموجد الأول، والمنشئ الأصلي، وكان الهدف من هذا أن تعمّ الفتنة، ويكثر البلوى، وتبعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم من محمد عليه الصلاة والسلام وارشاداته وتوجيهاته، وعن الكتاب الذي أنزل على قلبه الطاهر، وعن أحكامه وضوابطه، وأن تضعف كذلك، ويضعف سلطانها، وينكمش حكمها، سلطتها واختيارها.

فكان إحدى هذه الفرق والنحل والمشارب والمذاهب، الصوفية والتصوف، كما يظهر لمن درس كتب التاريخ والعقائد والمسالك، وتعمق في منشأ ومولد الطوائف والنحل أن كل فتنة ظهرت في تاريخ الإسلام، وكل ديانة طلعت من العدم إلى الوجود كان رأسها ومديرها، أو منشئها ومديرها واحد من الشيعة.

وكذلك كان أمر الصوفية. فإن الثلاثة الذين اشتهروا في التاريخ الإسلامي باسم الصوفي ولقبه بادىء ذي بدء كان اثنان منهم من الشيعة أو متهمين بالتشيع، كما

أن هؤلاء الثلاثة كلهم كانوا من موطن الشيعة آنذاك، وهو الكوفة .

فأبو هاشم الكوفي الذي فصلنا فيه القول فيما مر لم يرم بالتشيع ولكنه كان من الكوفة الشيعية، ومتهما بالزندقة والدهرية^(٢).

أما جابر بن حيان فيذكره ماسينيون بقوله :

«وورد لفظ الصوفي لقبا مفردا لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي إذ نعت به جابر بن حيان وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة، له في الزهد مذهب خاص»^(٣).

وذكره نيكلسون بقوله :

«جابر بن حيان الكيمائي المعروف كان يدعى جابر الصوفي، وأنه تقلد كما تقلد ذو النون المصري علم الباطن الذي يطلق عليه القفطي مذهب المتصوفين من أهل الإسلام»^(٤).

ويذكر المستشرق التشيكوسلاوي بي كراؤس P. KRAUS وم بلسنر M. PLESSNER أن «جابر بن حيان كان من الشيعة الغلاة، ولعله كان من القرامطة أو الاسماعيلية، وكان يرجح مثل النصيرية سلمان علي محمد، كما كان يعتقد مثل الغلاة والنصيرية عقيدة تناسخ الأرواح»^(٥).

وهذان المستشرقان ينقلان عن جابر بن حيان نفسه أنه يقول :

«إنه أخذ جميع علومه عن جعفر الصادق معدن الحكمة، وأنه ليس إلا الناقل المحض والمرتب»^(٦).

ويمثل ذلك قال هوليارد الانجليزى الذي نشر عديدا من كتب جابر بن حيان^(٧).

وأما الشيعة فيعدونه من أعيانهم .

(٢) انظر طرائق الحقائق للحاج معصوم على ج ١ ص ١٠١.

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية اردوج ٦ ص ٤١٩ ط جامعة بنجاب باكستان الطبعة الأولى ١٩٦٢م، كذلك التصوف لماسينيون ترجمة عربية ص ٢٦ ط دار الكتاب اللبناني ١٩٨٤م.

(٤) انظر كتاب في التصوف الاسلامي وتاريخه ترجمة الدكتور أبي العلاء العفيفي ص ١١.

(٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية اردوج ٧ ص ٦ مقال «بي كراؤس» وم بلسنر.

(٦) دائرة المعارف الاسلامية اردوج ٧ ص ٦.

(٧) انظر مقدمة كتاب الرحمة، المنشور هوليارد، وكتاب البيان وغيرهما.

فلقد كتب السيد محسن الأمين الشيعة المشهور في ترجمته أكثر من ثلاثين صفحة في كتابه (أعيان الشيعة). فيقول :

«أبو عبد الله، ويقال : أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطرسوسي الكوفي المعروف بالصوفي... كان حكيما رياضيا فيلسوفا عالما بالنجوم طبيا منطقيا رسديا مؤلفا مكثرا في جميع هذه العلوم وغيرها : كالزهد والمواعظ، من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وأحد أبوابه، ومن كبار الشيعة، وما يأتى عند تعداد مؤلفاته يدل على أنه كان من عجائب الدنيا ونوادر الدهر، وإن عالما يؤلف ما يزيد على ٣٩٠٠ كتاب في علوم جلها عقلية وفلسفية هو حقا من عجائب الكون، فبينما هو فيلسوف حكيم ومؤلف مكثر في الحيل والرنجيات والعزائم ومؤلف في الصنائع وآلات الحرب، إذا هو زاهد واعظ مؤلف كتب في الزهد والمواعظ»^(٨).

ثم نقل عن عديد من الشيعة أنهم ذكروا في كتبهم الرجالية، وعدّوه من تلامذة جعفر بن الباقر، ثم قال :

«يستفاد مما سلف أمور، وهي : تشيعه، وعلمه بصناعة الكيمياء، وتصوفه، وفلسفته، وتلمذته على الصادق عليه السلام، واشتغاره عند أكابر العلماء، واشتغاره كته بينهم اشتغارا لا مزيد عليه»^(٩).

ثم كتب تحت عنوان (أما تشيعه) :

«فيدل عليه عدّ ابن طاوس له في منجمي الشيعة، ورواية ابنى بسطام عنه عن الصادق عليه السلام، وروايته خمسمائة رسالة للصادق عليه السلام كما ذكره اليافعي، ونقل ابن النديم عن الشيعة أنه من كبارهم وأحد الأبواب، وأنه إنما كان يعنى بسيد جعفر هو الصادق، لا جعفر البرمكي، ولا ينافيه زعم الفلاسفة أنه منهم، فإنه لا تنافي بين كونه فيلسوفا وشيعيا، إذ المراد الفلسفة الإسلامية، لا فلسفة الحكماء القدماء التي قد تنافي الشريعة، وقول ابن النديم : أن له كتباً في مذاهب الشيعة كما تقدم ذلك كله»^(١٠).

(٨) أعيان الشيعة لمحسن الأمين الشيعة ج ١٥، ٨٧، ٨٨ ط دار التعارف للمطبوعات بيروت.

(٩) أيضا ص ١٠٢.

(١٠) أيضا ص ١٠٥.

ونقل أيضا عن الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أن «والد جابر بن حيان قتل في خراسان لاتهامه بالتشيع»^(١١).

ونضيف إلى ذلك أن الرجالي الشيعي المشهور الطهراني أيضا عده من رجال الشيعة حيث ذكر في موسوعته كتابين له : «كتاب الرحمة الصغير، وكتاب الرحمة الكبير لجابر بن حيان الصوفي الطوسي الكوفي المتوفى سنة مائتين من الهجرة»^(١٢).

وأما من متقدمي الشيعة فيذكره ابن النديم بقوله :

«هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي، واختلف الناس في أمره .

فقال الشيعة : أنه من كبارهم وأحد الأبواب، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق رضي الله عنه، وكان من أهل الكوفة .

وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وله في المنطق والفلسفة مصنفات .

وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتوم . وزعموا أنه كان ينتقل في البلدان لا يستقر به بلد خوفا من السلطان على نفسه .

وقيل : إنه كان في جملة البرامكة ومنقطعا إليها، ومتحققا بجعفر بن يحيى . فمن زعم هذا قال : انه عنى بسيد جعفر هو البرمكي .

وقالت الشيعة : إنما عنى جعفر الصادق»^(١٣).

ثم أصدر رأيه في معتقداته بقوله :

«ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة»^(١٤).

ونقل عنه أنه «كان تلميذا لجعفر بن محمد الباقر، أو عبده»^(١٥).

ومما يدل على تشيعه وكونه من الحلوليين والمغالين في التشيع ما نقله في رسائله التي تنسب إليه أنه قال :

(١١) أعيان الشيعة ج ١٥ ص ٨٧.

(١٢) انظر الذريعة الى تصانيف الشيعة ج ١٠ ص ١٧١.

(١٣) الفهرست لابن اندين ص ٤٩٨، ٤٩٩ ط دار المعرفة لبنان.

(١٤) أيضا.

(١٥) خلاصة الاثر للمحبي ج ١ ص ٢١٣ نقلا عن الشيبلي.

«بعد ما سمعت كلام الصادق في الكيمياء والطلسم فخررت ساجدا، فقال (أي جعفر) : لو كان سجودك لي وحدك لكنت من الفائزين، قد سجد لي آباؤك الأولون، وسجودك لي سجودك لنفسك»^(١٦).

وأما كونه تلميذا لجعفر فيقره الحاج خليفة في «كشف الظنون»، وابن خلكان في وفياته^(١٧).

وغيرهم — .

ولقد فات الدكتور الشيبى عندما أنكر على جابر بن حيان التصوف حيث قال :

«أن صلة جابر بالتصوف اسمية لأنه لم يكن صاحب مجاهدة أو خوف، أو ناطقا بأقوال زهدية، وإنما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء»^(١٨).

قد فات ما ذكره ابن النديم في فهرسته نقلا عن جابر بن حيان نفسه أنه قال : «ألفت كتبا في الزهد والمواعظ»^(١٩).

وكذلك ما نقله هو نفسه عن «أخبار الحكماء» أن «جابر بن حيان كان مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ومتقلدا للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام، كالحارث المحاسبى، وسهل بن عبد الله التستري ونظرائهم»^(٢٠).

وكذلك ما نقله فيليب حتى حيث قال :

«انه ادعى مذهبا خاصا في الزهد»^(٢١).

فهذا هو أول الثلاثة الذين لقبوا بالصوفية، والذي توفي بين ١٦٠ إلى ٢٠٠ هجرية على اختلاف في الأقوال .

(١٦) مختار رسائل جابر بن حيان ص ٧٨.

(١٧) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان تحت ترجمة جعفر بن الباقر.

(١٨) انظر الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٢٨٩ ط دار الاندلس بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٢ م.

(١٩) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٣.

(٢٠) أخبار الحكماء للقفطى ص ١١١.

(٢١) تاريخ العرب للهتّى ج ٢ ص ٢٢.

عَبْدُكَ

وأما الثاني وهو عبدك الصوفي فأيضاً ذكره كل من المستشرق ماسينيون ،
والباحث الإيراني الشيعي الدكتور قاسم غني ، والشيعي العراقي دكتور مصطفى
الشبيبي وغيرهم ، شاهدين بأنه كان شيعياً مغالياً .
فيقول ماسينيون :

«أما صيغة الجمع (الصوفية) التي ظهرت عام ١٩٩ هـ (٨١٤م) في خبر فتنة
قامت بالاسكندرية فكانت تدل - قرابة ذلك العهد فيما يراه المحاسبي والجاحظ -
على مذهب من مذاهب التصوف الإسلامي يكاد يكون شيعياً نشأ في الكوفة، وكان
عبدك الصوفي آخر أئمتته، وهو من القائلين بأن الإمامة بالتعيين، وكان لا يأكل
اللحم، وتوفي ببغداد حوالي عام ٢١٠ هـ (٨٢٥م) .
وإذن فكلمة (صوفي) كانت أول أمرها مقصورة على الكوفة» (٢٢) .

وكتب الدكتور «قاسم غني» عنه :

«كان رجلاً معتزلاً الناس، زاهداً، وكان أول من لقب بلقب الصوفي -
وأضاف الدكتور قاسم غني : وهذا اللفظ كان يطلق في تلك الأيام على بعض زهاد
الشريعة من الكوفيين، وقد أطلقت هذه الكلمة أيضاً في سنة ١٩٩ هـ على بعض
الناس مثل ثوار الاسكندرية، ولأن عبدك كان لا يأكل اللحم، عده بعض
المعاصرين من الزنادقة . وكذلك يقول ماسينيون : لم يكن السالكون في القرون
الأولى يعرفون باسم الصوفية، وقد عرف الصوفي في القرن الثالث، وأول من اشتهر
في بغداد بهذا الاسم هو عبدك الصوفي الذي كان من كبار شيوخهم وأقطابهم، وهو
سابق على بشر بن الحارث الحافي المتوفي في سنة مائتين وسبع وعشرين، وأيضاً قبل
السري السقطي المتوفي في سنة مائتين وخمس وعشرين .

وبناء على ذلك نالت كلمة الصوفي شهرة في بادئ الأمر في الكوفة، ثم
أصبحت أهميتها كبيرة بعد نصف قرن في بغداد، وصار المقصود من كلمة الصوفية
جماعة عرفاء العراق بازاء جماعة الملامتية الذين كانوا من عرفاء خراسان، وتجاوز

(٢٢) دائرة المعارف الإسلامية اردو ج ٦ ص ٤١٩ ، أيضاً التصوف لماسينيون ترجمة عربية ص ٢٧

الاطلاق حده منذ القرن الرابع وما بعده . وأصبح المقصود من اطلاق كلمة الصوفية ، جميع عرفاء المسلمين . وارتداء الصوف أي الجبة البيضاء الصوفية الذي كان حوالى أواخر القرن الأول من عادة الخوارج والمسيحيين» (٢٣) .

هذا ونقل الشيبى عن السمعاني أنه قال :

«ان اسم عبدك هو عبد الكريم ، وان حفيده محمد بن علي بن عبدك الشيعى كان مقدم الشيعة» (٢٤) .

ثم قال :

«وهكذا يبدو عبدك جامعا لاتجاهات عديدة مختلفة نابعة من التشيع ، الممتزجة بالزهد المتأثر بظروف الكوفة التي انتقل منها كثير من سكانها إلى بغداد ، بعد أن صارت عاصمة للدولة الجديدة ، والمهم في شأن عبدك أنه أول كوفي يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله إلى بغداد . . . وقد رأينا أن لبس الصوف قد نبع من بيئة الكوفة التي عرضت بتمسكها بالتشيع ومعارضتها وحرها بالسيف أو بالقول أو بالقلب لمن نكل بالأئمة العلويين ، وذلك - إذا صح - يقطع بأن التصوف في أصوله الأولى كان متصلا بالتشيع» (٢٥) .

هذا ولقد ذكره أيضا من المتقدمين الملطى بقوله :

«إن عبدك كان رأس فرقة من الزنادقة الذين زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا محل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل والا فهي حرام ، ومعاملة أهلها حرام ، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان» (٢٦) .

فهذا هو الرجل الثانى الذي لقب بلقب الصوفى بداية الأمر .

وأما الثالث فلقد ذكرناه فيما مر ، وهو كوفي أيضا ، ولكنه من العجائب فهو وإن لم يكن متهما بالتشيع متهم بالزندقة والذهرية كما ذكر الحاج معصوم علي :

كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ، ويرى أنه كان يقول

(٢٣) تاريخ التصوف فى الاسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٤) الأنساب للسمعاني نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع ص ٢٩٣ .

(٢٥) الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢٦) التنبيه والرّد للملطى تحقيق محمد زاهد الكوثرى ص ١ ، ط مصر ١٣٦٠ هـ .

بالحللول والاتحاد مثل النصارى، غير أن النصارى أضافوا الحللول والاتحاد إلى عيسى عليه السلام وأضافهما هو إلى نفسه، وكان مترددا بين هاتين الدعوتين، ولم يعلم على أيهما استقر في النهاية - ونقل عن كتاب أصول الديانات أنه - : كان أمويا وجبريا في الظاهر وباطنيا ودهريا في الباطن، وكان مراده من وضع هذا المذهب أن يثير الاضطراب في الإسلام^(٢٧).

ومن الغرائب أن شخصا آخر وهو ذو النون المصرى الذي يقال عنه : «انه أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفى»^(٢٨).

وهو : «رأس هذه الطائفة، فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه، وقد كان المشائخ قبله ولكنه أول من فسر الاشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق»^(٢٩).

وأنه : «هو أول من تكلم في بلده في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية»^(٣٠).

كما أثر عنه بأنه «أول من وضع تعريفات للوجد والسماع»^(٣١).

وعلى ذلك قال بحق، الكاتب الانجليزى المشهور عن الصوفية :

«هو أحق رجال الصوفية على الاطلاق بأن يطلق عليه اسم واضع التصوف، وقد اعترف له بالفضل في هذا الميدان كتّاب التراجم المؤرخون من المسلمين»^(٣٢).

فهذا هو الشخص الآخر من واضعى التصوف، وكان أيضا متهما بالزندقة والاشتغال بالسحر والطلسمات كما نقل الإمام الذهبي عن يوسف بن أحمد البغدادى أنه قال :

«كان أهل ناحيته يسمونه بالزنديق»^(٣٣).

ونقل أيضا عن السلمى أنه قال :

«ذو النون أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، وهجره علماء مصر. وشاع أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف، وهجره حتى رموه بالزندقة. فقال أخوه : انهم يقولون : إنك زنديق.

(٢٧) طرائق اخفائى للحاج معصوم على ج ١ ص ١٠١.

(٢٨) انظر الرسالة القسرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيري بتحقيق عبد الحليم محمود ط دار الكتب الحديثة - القاهرة.

(٢٩) نفحات الأنس للجامى ص ٣٣ الطبعة الفارسية ايران.

(٣٠) النجوم الزاهرة للتغرى البردى الأتابكى ج ٢ ص ٣٢٠ ط وزارة الثقافة مصر.

(٣١) الرسالة القشيرية بتحقيق عبد الحليم محمود ط القاهرة.

(٣٢) فى التصوف الاسلامى وتاريخه لينكلسون ترجمة أبى العلاء العفيفى ص ٧ ط القاهرة.

(٣٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٩ ص ٥٣٣.

فقال :

ومالى سوى الإطراق والصمت حيلة ووضعى كفى تحت خدى وتذكارى» (٣٤)

وقال الإمام الذهبي :

«وقل ما روى الحديث ولا كان يتقنه، وقال الدارقطنى : روى عن مالك أحاديث فيها نظر» (٣٥).

والصوفى المشهور فريد الدين العطار يكتب في ترجمته أنه «كان من الملامتية لأنه أخفى تقواه بظهوره في الناس بالاستخفاف بأمور الشرع، ولذلك عده المصريون زنديقا، ولو أنهم اعترفوا له بالولاية بعد موته» (٣٦).

وقد ذكره ابن النديم من الملمين بعلم الكيمياء، والعارفين به والكاتبين فيه (٣٧).

ويذكره القفطى بقوله :

«ذو النون بن إبراهيم الإخيمي المصرى، من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة. وكان كثير الملازمة لرب با بلدة أخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة التي تزيد المؤمن إيمانا، والكافر طغيانا. ويقال : انه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية. وكانت له كرامات» (٣٨).

وكذلك المسعودى يذكر أنه «جمع معلوماته عن ذي النون من أهل إخميم عندما زار هذا البلد. وهو روى عنهم أن أبا الفيض ذا النون المصرى الاخيمي الزاهد كان حكيما سلك طريقا خاصا، واتخذ في الدين سيرة خاصة، وكان من المعنيين بحل رموز البرابى في أخميم، كثير التطواف بها. وأنه وفق إلى حل كثير من الصور والنقوش المرسومة عليها، ثم يذكر المسعودى ترجمة لطائفة من هذه النقوش التي ادعى ذو النون أنه قرأها وحلها» (٣٩).

ثم وبعد ذكر هذه العبارات كتب نيكلسون ما خلاصته : «أن ذا النون كان كثير العكوف على دراسة النقوش البصرية المكتوبة على المعابد وحل رموزها، كما

(٣٤) أيضا ص ٥٣٤.

(٣٥) أيضا ص ٥٣٣.

(٣٦) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٦٩ ط باكستان، أيضا في التصوف الاسلامى وتاريخه لنيكلسون

ص ٩.

(٣٧) انظر ابن النديم ص ٥٠٣، ٥٠٤.

(٣٨) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٥ المنقول من كتاب في التصوف الاسلامى وتاريخه لنيكلسون ص ٩.

(٣٩) انظر في التصوف الاسلامى وتاريخه نقلا عن مروج الذهب.

كانت مصر القديمة في نظر المسلمين مهد علوم الكيمياء والسحر وعلوم الاسرار، وكان هو من أصحاب الكيمياء والسحر مع أن الإسلام حرم السحر، ولذلك ستره بلباس الكرامات، ومن هنا بدأ تأثير السحر في التصوف، ويؤيد ذلك استخدام ذى النون الأدعية السحرية واستعماله البخور لذلك كما ذكره القشيري في رسالته^(٤٠).

فهذا هو الرجل الآخر مع الثلاثة الأول الذين يقال عنهم بأنهم أول من لقبوا بهذا اللقب، ووصفوا بهذا الوصف، وعرفوا بهذا الرسم أو عرفوا هذا الطريق إلى الناس بادیء ذی بدء .

سَلَسِلُ التَّصَوُّفِ

ومن شواهد تأثر التصوف بالتشيع وعلائمها أن سلاسل التصوف كلها ماعدا النادر القليل منها تنتهي إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه دون سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وفي طرق إسنادها إلى علي أسماء أئمة الشيعة المعصومين حسب زعمهم من أولاد علي رضى الله عنه دون غيرهم، وأن رؤساء هذه العصابة يذكر لهم اتصال وثيق، وصلات وطيدة مع أئمة القوم كما يذكر في تراجمهم وسيرهم وأحوالهم، إضافة إلى ذلك أن الخرقه الصوفية لا يبدأ ذكرها أيضا الا من علي رضى الله عنه أيضا .

فإن علي بن أبي طالب رضى الله عنه مع كونه من سادة أصحاب رسول الله ﷺ وأشرفهم، ومن العشرة المبشرين بالجنة، ورابع الأربعة من الخلفاء الراشدين الذين خلفوا رسول الله ﷺ بعد وفاته لقيادة هذه الأمة وتسيير أمورها ولكنه لم يكن أزهد من أبي بكر الصديق رضى الله عنه، ولا من عمر الفاروق رضى الله عنه «أبي بكر الصديق السابق بالتصديق الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق، صاحب النبي ﷺ في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في جميع الأطوار، وضجيعة بعد الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، ولم يسم إلى ذروته هم أولى الأيدي والأبصار، حيث يقول علم الأسرار : ثاني اثنين إذ هما في الغار، إلى غير ذلك من الآيات والآثار، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار، التي غدت كالشمس في الانتشار، وفضل كل من فاضل، وفاق كل من جادل وناضل، ونزل فيه : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، توحد الصديق، في الأحوال

(٤٠) المصدر السابق ص ٩ وما بعد .

بالتحقيق، واختار الاختيار من الله دعاه إلى الطريق، فتجرد من الأموال، والأغراض، وانتصب في قيام التوحيد للهدف والأغراض، صار للمحن هدفا، وللبلاء غرضا، وزهد فيما عزله جوهرها كان أو عرضا» (٤١).

« ومات ولم يترك دينارا ولا درهما » (٤٢).

« وكفن في ثوبين مستعملين قديمين » (٤٣).

وقال في آخر لحظاته من الحياة موصيا أهله وورثته :

« أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولكننا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وابرئى منهن . ففعلت .

فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ويقول : رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده » (٤٤).

وعمر الفاروق رضى الله عنه « ذو المقام الثابت المأنوق، أعلن الله تعالى به دعوة الصادق المصدق، وفرق به بين الفصل والهزل، وأيد بما قواه به من لوازم الطول، ومهد له من منافع الفضل شواهد التوحيد، وبدد به مواد التنديد، فظهرت الدعوة، ورسخت الكلمة، فجمع الله تعالى بما منحه من الصولة، ما نشأت لهم من الدولة، فعلت بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت، وتثبتوا في أحوالهم بعد تهافت، غلب كيد المشركين بما ألزم قلبه من حق اليقين، لا يلتفت إلى كثرتهم وتواطيتهم، ولا يكثر لثمانعتهم وتعاطيهم، اتكالا على من هو منشئهم وكافيتهم، واستنصارا بمن هو قاصمهم وشافيتهم، محتملا لما احتمل الرسول، ومصطبرا على المكارة لما يؤمل من الوصول، ومفارقا لمن اختار التمتع والترفيه، ومعانقا لما كلف من التشمير والتوجيه، المخصوص من بين الصحابة بالمعارضة للمبطلين، والموافقة في الأحكام لرب العالمين، السكينة تنطق على لسانه، والحق يجري الحكمة عن بيانه، كان للحق مائلا، وبالحق صائلا، وللأثقال حاملا، ولم يخف دون الله طائلا » (٤٥).

و : « كان بين كتفيه أربع رقاع، وازاره مرقوع بأدم، وخطب على المنبر وعليه

(٤١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ص ٢٨، ٢٩ ط دار الكتاب العربى بيروت.

(٤٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٤٣) أيضا .

(٤٤) أيضا ص ١٩٦ .

(٤٥) حلية الأولياء للأصفهاني ج ١ ص ٣٨ .

أزار فيه اثني عشر رقعة، وأنفق في حجته ستة عشر ديناراً، وقال لابنه : قد أسرفنا .
وكان لا يستظل بشيء غير أنه كان يلقي كساءه على الشجرو يستظل تحته،
وليس له خيمة ولا فسطاط» (٤٦) .

وقال في وصيته التي وصى بها ابنه في آخر لحظة من عمره، وقد استسلف مالا
من بيت مال المسلمين :

«بع فيها أموال عمر، فإن وفّت والا فسل بنى عدى، وإن وفّت والا فسل قريشا
ولا تعدهم» (٤٧) .

والى ذلك أشار شيخ الاسلام ابن تيمية في مناجاه ردّاً على الشيعة الذين
قالوا: ان علياً كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ، فقال :

«أزهد الناس بعد رسول الله الزهد الشرعى أبوبكر وعمر، وذلك أن أبا بكر
كان له مال يكسبه فأنفقه كله في سبيل الله . . . ولقد تلا أبا بكر عمر في هذا الزهد،
وكان فوق على في ذلك يعنى في اعراضه عن المال واللذات .

وأما على رضى الله عنه فتوسع في هذا المال من حله، ومات عن أربع زوجات
وتسعة عشر أم ولداً سوى الخدم، وتوفى عن أربعة وعشرين ولداً من ذكر وأنثى، وترك
لهم من العقار والضياع ما كانوا به من أغنياء قومهم ومياسيرهم، هذا أمر مشهور لا
يقدر على انكاره من له أقلّ علم بالأخبار . . . فصح بالبرهان الضرورى أن أبا بكر
رضى الله عنه أزهد من جميع الصحابة رضى الله عنهم، ثم عمر» (٤٨) .

هذا وكان في أصحاب رسول الله زهاد آخرون ولكن المتصوفة لم ينهوا سلسلة
سندهم إلّا إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه مثل الشيعة الذين يجعلونه أول إمام
لهم . كما نقل الهجویری عن الجنيد أنه قال :

«شيخنا في الأصول والبلاء على المرتضى، أى أن على بن أبى طالب هو إمام
هذه الطريقة في العلم والمعاملة، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم
الأصول، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات» (٤٩) .

وهو الذى نقل عنه العطار أنه قال :

«لقد وهب الله تعالى من العلم والحكمة والكرامة، وماذا كنا نصنع لو لم ينطق
المرتضى بهذا القول على سبيل الكرامة» (٥٠) .

(٤٦) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٣٤، ١٣٥ .

(٤٧) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٤٨) منهاج السنة النبوية لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ٤ ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١ .

(٤٩) كشف المحجوب للهجویری ترجمة عربية للدكتورة اسعاد عبد الهادى ص ٢٧٤ ط بيروت ١٩٨٠ .

(٥٠) انظر تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ١٨٥ ط باكستان .

ويقول الطوسي أبو نصر السراج :

«ولأمير المؤمنين علي رضي الله عنه خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله ﷺ بمعاني جليلة، وإشارات لطيفة، وألفاظ مفردة، وعبارات وبيان للتوحيد والمعرفة والايان والعلم، وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق وتخلق به أهل الحقائق من الصوفية» (٥١).

«وأما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فذاك مدينة العلم، وأول آخذ لبيعة الطريق - طريق الأولياء - وأول ملقن بالذكر والسر من الرسول ﷺ» (٥٢).

لأن جبريل عليه السلام نزل إلى رسول الله ﷺ : «أولاً بالشرعة، فلما تقررت ظواهر الشرعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة والحكمة المرجوة من أعمال الشرعة وهي الايمان والاحسان فخص رسول الله ﷺ بباطن الشرعة بعض أصحابه دون البعض.

وكان أول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ» (٥٣).

فان علياً رضي الله عنه حسب كلام المتصوفة : «من أصحاب العلم ومن يعلمون من الله ما لم يعلمه غيره» (٥٤).

ولا جبرائيل وميكائيل لأن رسول الله ﷺ «لما لقن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخلع عليه ذلك صار يقول :

عندي من العلم الذي أسره إلى رسول الله ﷺ ما ليس عند جبريل ولا ميكائيل» (٥٥).

وعلى ذلك نقل الطوسي عن الوجيهي أنه قال :

سمعت أبا علي الروذباري يقول : سمعت جنيدا رحمه الله يقول :

رضوان الله على أمير المؤمنين عليّ، رضي الله عنه، لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة، ذاك امرؤ أعطى علم اللدني، والعلم اللدني هو العلم الذي خصّ به الخضر عليه السلام، قال الله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٥٦).

(٥١) انظر كتاب اللمع للطوسي ص ١٧٩.

(٥٢) جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للمنفى الحسيني ج ١ ص ١٢٢.

(٥٣) أيضاً ص ١٥٩.

(٥٤) الفتوحات المكية لابن عربي ج ١ ص ٢٦٠.

(٥٥) درر الغواص للشعراني ص ٧٣ بهامش الأبريز للديباغ ط مصر.

(٥٦) كتاب اللمع للطوسي ص ١٧٩.

ورسول الله ﷺ جعله بمنزلة هارون من موسى مع الفضل العظيم لأبى بكر
«لم يشرك الحبيب الرسول المقرب الخليل في مقام الخلّة كما صلح أن يشرك معه في مقام
الأخوة عليا كرم الله وجهه فقال: على منى بمنزلة هارون من موسى» (٥٧).

وكان له مقام ومنزلة عند الصوفية إلى أن نقل الشعراني عن أحد المتصوفين أنه
قال:

«ان على بن أبى طالب رضى الله عنه رفع كما رفع عيسى عليه السلام،
وسينزل كما ينزل عيسى عليه السلام - ثم يقول الشعراني: قلت: وبذلك قال سيدى
على الخواص رضى الله عنه فسمعتة يقول:

ان نوحا عليه السلام أبقي من السفينة لوحا على اسم على بن أبى طالب
رضى الله عنه يرفع عليه إلى السماء فلم يزل محفوظا في صيانة القدرة حتى رفع على
بن أبى طالب رضى الله عنه» (٥٨).

فهذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ومكانته، ومنزله، وشأنه، وقد نقل
باحث شيعى عن جلال الدين الرومى الصوفى الفارسى المشهور أنه قال في أبياته ما
تدلّ على رؤيتهم إلى على وعقيدتهم فيه، فيقول:

«منذ كانت صورة تركيب العالم كان على
منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على
ذلك الفاتح الذى انتزع باب خير بحملة واحدة كان على
كلما تأملت فى الآفاق ونظرت
أيقنت بأنه فى الموجودات كان على
ان من كان هو الوجود، ولولاه
لسرى العدم فى العالم الوجود (إياه) كان على
ان سر العالمين الظاهر والباطن
الذى بدا فى شمس تبريز كان على» (٥٩).

وهذا الغلو فى على بن أبى طالب رضى الله عنه عندما يقارن بالغلو الشيعى
فيه، ليس بأقلّ منه فى صورة من الصور.

وإليه تنتسب سلاسل التصوف كلها كما قال محمد معصوم شيرازى الملقب
بمعصوم على شاه:

(٥٧) الفتوحات المكية لابن عربى ج ٣ ص ٣١٥.

(٥٨) طبقات الشعراني ج ٢ ص ٤٤.

(٥٩) غزليات شمس تبريزى ط طهران المنقول من كتاب الصلة بين التصوف والتشيع ص ٨٤، ٨٥.

«لابد لكل سلسلة من سلاسل التصوف من الأزل إلى الأبد، ومن آدم إلى انقراض الدنيا أن تكون متصلة بسيد العالمين وأمير المؤمنين» (٦٠).

لأنه «أزهد الصحابة عند المتصوفة» (٦١).

كما هو «رأس الفتوة وقطبها» (٦٢).

فأول وليّ عند المتصوفة هو علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ومنه انتقل الولاية إلى غيره من الأولياء كما أنه أول إمام عند الشيعة، وتسلسلت منه فورثها غيره، وكذلك الفتوة والقطبية، وهو الذى ألبس خرقته الحسن البصرى، وهذه الخرقه التى يلبسها المتصوفة خلفاءهم وورثتهم (٦٣).

وينصّ على تشيع هذا ابن خلدون فى مقدمته حيث يقول عند ذكر الصوفية:

«إنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخيّلهم رفعوه إلى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا، وإلا فعلى رضى الله عنه لم يختصّ من بين الصحابة بتخليفة ولا طريقة فى اللباس ولا الحال، بل كان أبوبكر وعمر رضى الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة، ولم يختصّ أحد منهم فى الدين بشيء يؤثّر عنه فى الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة فى الدين والزهد والمجاهدة، يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة فى أمر الفاطمى وما شحّوا كتبهم فى ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى أو اثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم فى كتبهم والله يهدى إلى الحق» (٦٤).

وهذا اضافة إلى أن هذه الخرقه ونسبتها إلى على، ورواية لبس الحسن البصرى كلها باطل، لا أصل له، لأنه «لم يثبت لقاء الحسن مع على بن أبي طالب رضى الله عنه على القول الصحيح، لأن عليا رضى الله عنه انتقل من المدينة إلى الكوفة والحسن صغيرا» (٦٥).

(٦٠) انظر طرائق الحقائق لمعصوم على شاه ج ١ ص ٢٥١.

(٦١) انظر قوت القلوب لأبى طالب المكي ج ١ ص ٢٦٧.

(٦٢) آئين جوانمردى مقدمة هنرى كاربين ص ٨، أيضا فتوت نامه لعبد الرزاق كاشانى ص ٢٩ ط طهران ١٣٦٣ شمسى ترجمة فارسية احسان نراقى، أيضا طبقات الشعرائى ج ٢ ص ٩٢، أيضا جامع الأصول فى الأولياء للكمشخانى ص ٧.

(٦٣) انظر عوارف المعارف للسهروردى ص ٩٨، أيضا الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٧٤٧، أيضا فوائى الجمال لنجم الدين الكبرى ص ٢٨٢، أيضا الأنوار القدسية للشعرانى ص ٤٩.

(٦٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣.

(٦٥) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر، والتذكرة للذهبى، الرسائل والمسائل لابن تيمية، كذلك التصوف لماسينيون.

وعلى كل فإن الصوفية ينهون سند لبس الخرقه إلى على رضى الله عنه، كما ينهون إليه سلاسلهم.

ولا يقتصرون على على بن أبى طالب وحده، بل يقولون مثل ما يقوله الشيعة تماما: «وثامن الفتيان بعد النبوة والرسالة على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث أسلم صبيا، وجاهد فى سبيل الله مراهقا، وبوآه الله قطبانية الأولياء رجلا وكهلا.

وعنه أخذ الفتوة ابنه الحسن والحسين وهى أعلا مقامات الولاية عد القطبانية التى هى منها والصدقية التى هى كمالها.

ومن دلائل فتوة الحسن رضى الله عنه أن أثر الخلافة الباطنة على الخلافة الظاهرة، وتنازل عن الظاهرة حقنا لدماء المسلمين.

ومن دلائل فتوة الحسين أنه الشهيد الأعظم فى سبيل الله وفى سبيل الأمانة. ومن الخصائص التى خصّ الله تعالى بها عليا كرم الله وجهه أنه إذا كان الرسول مدينة العلم فعلى بابها، وإن كان للفروسية أو الولاية فتيان فهو فتاهما الأول. فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه أول فتيان هذه الأمة وفتى أوليائها، وحسبه فى ذلك أن أراد اقتداء الرسول بنفسه» (٦٦). ويقول أيضا:

«ان على بن أبى طالب أخذ البيعة الخاصة بطريق الله عن رسول الله ﷺ، ولقن بها ابنه الحسن، ثم الحسين» (٦٧).

وكان الصوفى المشهور أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى يقول:

«طريقتنا هذه لا تنسب للمشاركة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو أول الأقطاب» (٦٨). وقالوا:

«وكان من أوائل أهل طريق الله بعد الصحابة على بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن على الباقر، وابنه جعفر بن محمد الصادق، وذلك بعد على والحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا» (٦٩).

ويقول الكلاباذى فى الباب الثانى من تعرفه:

(٦٦) جهرة الأولياء لأبى الفيض الموقى ج ١ ص ٨٩.

(٦٧) أيضا ص ٨٩ و ١٢٢.

(٦٨) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٤.

(٦٩) جهرة الأولياء ج ١ ص ١٦٣.

«من نطق بعلومهم، وعبر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلًا بعد الصحابة رضوان الله عليهم: على بن الحسين زين العابدين. وابنه محمد بن علي الباقر. وابنه جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم» (٧٠).

فانظر الترتيب، وهذا نفس ترتيب الشيعة لأئمتهم، حيث يعدّون الامام الأول والثاني والثالث عليا وابنه الحسن والحسين، والرابع والخامس والسادس: زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر بن محمد الباقر.

ثم الامام السابع والثامن عندهم: موسى بن جعفر الملقب بالكاظم، وعلي بن موسى الكاظم الملقب بالرضا، من الأئمة الاثني عشر. وها هو الشعراني أيضا يعدّهم أئمة، واثنى عشر أيضا، عندما يذكر من بين الصوفية وأولياء الله موسى بن جعفر، فيقول:

«ومنهم موسى الكاظم رضي الله عنه أحد الأئمة الاثني عشر، وهو موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . . . وكان يكنى بالعبد الصالح لكثرة عبادته واجتهاده وقيامه بالليل، وكان اذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه يبعث إليه بالمال» (٧١).

وأما علي بن موسى الرضا فيقولون عنه: «ان شيخ مشايخ الصوفية معروف الكرخي أسلم على يديه» (٧٢).

ويكتب القشيري عنه: «أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان من المشايخ الكبار، مجاب الدعوة، يستشفى بقبوره، يقول البغداديون: قبر معروف تزيق مجرب، وهو من موالى علي بن موسى الرضا رضي الله عنه» (٧٣).

وزاد السلمى في طبقاته، والجامي في نفحاته أنه كان من حجبه، فيقول: «معروف بن فيروز، ويقال: معروف بن علي، ويلقب بالزاهد، وهو من أجلة المشايخ وقدمائهم، والمعروفين بالورع والفتوة. كان أستاذ سري السقطي، وصاحب داود الطائفي.

وكان معروف أسلم على يد علي بن موسى الرضا، وكان بعد اسلامه يحجبه،

(٧٠) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلا بادي ص ٣٦.

(٧١) طبقات الشعراني ج ١ ص ٣٧.

(٧٢) تذكرة العطار ص ١٥٠ ط باكستان.

(٧٣) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٥ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ط القاهرة، أيضا طبقات الشعراني ج ١ ص ٧١.

فازدحم الشيعة يوما على باب علي بن موسى ، فكسروا أضلع معروف ، فمات ،
ودفن ببغداد ، وقبره ببغداد ظاهر ، ويتبرك الناس بزيارته» (٧٤) .

والجدير بالذكر أن معروف الكرخي أستاذ السري السقطي ، وخال وأستاذ
لسيد الطائفة جنيد البغدادي ، ولذلك «يروى الجنيد عن السري السقطي ، وهو عن
معروف الكرخي ، وهو عن علي بن موسى الرضا ، عن أبيه موسى الكاظم ، عن أبيه
محمد الباقر ، عن أبيه علي زين العابدين ، عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب ،
عن علي بن أبي طالب» (٧٥) .

وكتب عنه شيخ الأزهر السابق والصوفي المعاصر الدكتور عبد الحلیم محمود عن
الرضا :

«له كرامات كثيرة : منها أنه قال لرجل صحيح سليم : استعد لما لابدّ منه ،
فمات بعد ثلاثة أيام ، وروى الحاكم أن أبا حبيب قال :

رأيت المصطفى عليه الصلاة والسلام في النوم ، في المنزل الذي ينزله الحاج
بيلدنا ، فوجدت عنده طبقا من خوص فيه تمر ، فناولني ثمانى عشرة تمرة ، وبعد
عشرين يوما قدم علي الرضا من المدينة ونزل ذلك المنزل ، وفزع الناس للسلام عليه ،
ومضيت نحوه فاذا هو جالس بالموضع الذي رأيت المصطفى جالسا فيه ، وبين يديه
طبق فيه تمر صيحاني ، فناولني قبضة فاذا عدتها بعدد ما ناولني المصطفى ، فقلت :
زدني . فقال : لو زادك رسول الله لزدناك» (٧٦) .

ومن الطرائف أن ذكر الثمانية هؤلاء من أئمة الشيعة الاثنى عشر بالتسلسل
الشيعی فی كتب المتصوفة الكثيرين مثل ما يذكرون عن الرفاعي أحمد الكبير أنه :
«أخذ العهد والطريق من يد خاله شيخ الشيوخ صاحب الفتح الصمداني سيدنا
منصور البطائحي الرباني وهولبسها من خاله سيدنا الشيخ أبي المنصور الطيب وهو
لبسها من ابن عمه الشيخ أبي سعيد يحيى البخاري الأنصاري وهولبسها من الشيخ
ابي الترمذي وهولبسها من الشيخ أبي القاسم السندوسي الكبير وهولبسها من
الشيخ أبي محمد دويم البغدادي وهولبسها من الشيخ الامام تاج العارفين ابي
القاسم الجنيد البغدادي وهولبسها من خاله الشيخ سري السقطي وهولبسها من
الشيخ معروف الكرخي وهولبسها من امام الزمان وحجة أهل العرفان الامام ابن
الامام علي الرضي وهولبسها من أبيه نور حدة العناية والامامة ونور حديقة الولاية

(٧٤) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمی ترتیب أحمد الشرباصی ط مطابع الشعب ، أيضا نفحات
الأنس للجمامی ص ٣٩ الطبعة الفارسية .

(٧٥) طبقات الأولياء لابن الملحق المتوفى ٨٠٤ هـ ص ٤٩٣ ط مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .

(٧٦) انظر الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري تعليق رقم ٣ ص ٦٥ لعبد الحلیم محمود ومحمود بن

الشريف .

والكرامة ملجأ الأولياء الأعظم أبي الحسن موسى الكاظم وهو لبسها من أبيه صاحب القدم السابق الامام جعفر الصادق وهو لبسها من أبيه صاحب السر الطاهر الامام محمد الباقر وهو لبسها من أبيه كهف المحتاجين وإمام الافراد أبي محمد الامام زين العابدين علي السجاد وهو لبسها من أبيه أحد سبطي رسول الله شهيد كربلاء الامام الحسين أبي عبد الله وهو لبسها من أبيه إمام الأئمة ومجن هذه الأمة صاحب القدر العظيم والشرف الجلي أمير المؤمنين الامام أبي الحسن علي رضى الله عنه وعنهم أجمعين» (٧٧).

وذكر الرفاعى نفسه بصورة أخرى، ويقول:

«أكمل التوبة الفورية في مقام البضعية، من حيث التحلي بحلوة الطينة الذاتية الأحمدية، إنما هي توبة السيدة البتول العذراء، سيدتنا وقرة أعيننا فاطمة أم السبطين الزهراء سلام الله ورضوانه عليها، وقام عنها بنوبة الجزء الأزهرى بعلمها المأمون المنوه على جلاله قدره وعظيم مكانته بطالعة (علي منى بمنزلة هارون من موسى) الحديث. فادرع بدرع الخلافة البضعية متحكما في مشهد الخلافة الأمرية، إصالة في مشهد الخلافة البضعية وكالة حتى لقي الله، فأدرع بمطرها النوراني السبطان السعيدان الشهيدان الحسن والحسين سلام الله وتحياته عليهما، ودارت هذه التوبة الجامعة المحمدية في الأسباط الطاهرين سبطاً بعد سبط إلى أن صينت في مقام الكنزية المضمرة إلى ولي الله المهدي الخلق الصالح سلام الله عليه، فتلقاها عنه من مقام الألباس النواب الجامعون المحمديون، فهم إلى عهدنا هذا من بني الامام الحسين السبط شهيد كربلاء عليه وعليهم نوافح السلام والرضوان» (٧٨).

ولذلك كتب محمد معصوم شیرازى:

ان على بن أبى طالب خاتم الولاية المحمدية، فكميل بن زياد النخعى، والحسن البصرى، وأويس القرنى أخذوا عن على بن أبى طالب عليه السلام.

والشقيق البلخى أخذ عن الكاظم عليه السلام.

والشيخ أبويزيد أخذ عن جعفر الصادق.

والشيخ معروف أخذ عن الرضا، والشيخ سرى أخذ عنه، والشيخ جنيد أخذ

عن السرى،

وهو ومن الغرائب أن المتصوفة يعتقدون للحسن العسكري ابناً، كالشيعة

(٧٧) «قلادة الجواهر في ذكر الرفاعى وأتباعه الأكابر» لمحمد أبى الهدى الرفاعى ص ٣٧٥، أيضاً «المنهج الموصل إلى الطريق الأنجى» لمصطفى الصادق في مخطوط ورقة ٣٢.

(٧٨) المجالس الرفاعية لأحمد الرفاعى ص ١٠٨ ط مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧١ م.

الاثنى عشرية، مع اتفاق أهل السنة والمؤرخين، وشهادة الشيعة ونقيب الأشراف واخوة العسكري وأمه بأنه لم يولد له ولد، وأثبت رواية فيه وأقوم حجة ما رواه الكليني بنفسه، والآخرين من مؤرخي الشيعة وأعلامهم أن الحسن العسكري لما دفن «أخذ السلطان والناس في طلب ولده، وكثر التفتيش في المنازل والدور، وتوقفوا عن قسمة ميراثه، ولم يزل الذين وكلوا بحفظ الجارية التي توهم عليها الحمل ملازمين حتى تبين بطلان الحمل، فلما بطل الحمل قسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر، وادعت أمه وصيته وثبت ذلك عند القاضي» (٧٩).

وذكر هذا الخبر جميع مؤرخي الشيعة ومؤلفيهم ومحدثيهم من المفيد في الارشاد (٨٠).

والطبرسي في اعلام الوري (٨١).

والأربلي في كشف الغمة (٨٢).

والملا باقر المجلسي في جلاء العيون (٨٣).

وصاحب الفصول في الفصول المهمة (٨٤).

والعباس القمي في منتهى الآمال (٨٥).

وقال النوبختي الشيعي المشهور في فرقة:

«ان الحسن توفي ولم يولد له أثر، ولم يعرف له ولد ظاهر، فاقسم ميراثه أخوه جعفر وأمه» (٨٦).

لكن المتصوفة يقولون انه ولد للحسن العسكري ولد، وهو الذي سيخرج مهديا، كعقيدة الشيعة تماما بدون أدنى تغيير، فاسمع ماذا يقولون:

«فهنالك بترقب خروج المهدي عليه السلام، وهو من أولاد حسن العسكري، ومولده عليه السلام ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريم عليه السلام، فيكون عمره إلى وقتنا هذا، وهو سنة ثمان وخمسين وتسعمائة سبعمائة سنة وست سنين. هكذا أخبرني الشيخ حسن العراقي

(٧٩) كتاب الحجة الكافي ص ٥٠٥ ط طهران.

(٨٠) انظر ص ٣٣٩.

(٨١) انظر ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٨٢) ج ٣ ص ١٩٨، ١٩٩.

(٨٣) تحت ذكر المهدي.

(٨٤) أيضا.

(٨٥) أيضا.

(٨٦) فرق الشيعة للنوبختي ص ١١٨، ١١٩ ط كربلاء العراق.

المدفون فوق كوم الرئيس المطل على بركة الرطل بمصر المحروسة على الامام المهدي حين اجتمع به .

ووافقه على ذلك شيخنا سيدى على الخواص رحمهما الله تعالى .

وعبارة الشيخ محي الدين في الباب السادس والستين وثلاثمائة من الفتوحات : واعلموا أنه لابد من خروج المهدي عليه السلام لكن لا يخرج حتى تمتلىء الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا ولولم يكن من الدنيا إلا يوم واحد طول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلى ذلك الخليفة وهو من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة رضى الله عنها جده الحسين بن على بن أبى طالب، ووالده حسن العسكري بن الامام على النقى بالنون ابن محمد النقى بالتاء ابن الامام على الرضا ابن الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام زين العابدين على بن الامام الحسين ابن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه» (٨٧) .

وكذلك الرفاعيون، حيث يعدّون الرفاعى الامام الثالث عشر بعد الثانى عشر الموهوم الذى لم يولد (٨٨) .

فهذه هى عقائد المتصوفة فى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأئمة الشيعة من أولاده، فاليهم ينتسبون، وبمسلكهم يسلكون، وبخرافاتهم يتمسكون . وهذا وحده كاف لبيان تأثير التشيع فى التصوف .

ونختتم كلامنا فى هذا على مقولة صوفى كبير وهو أبو الظفر ظهير الدين القادرى حيث يقول : القطبية كانت للأئمة الاثنى عشر بطريق الاستقلال، ولن بعدهم بطريق النيابة (٨٩)

(٨٧) انظر اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر ج ٢ ص ١٤٣ .

(٨٨) انظر المجالس الرفاعية المقدمة للسيد خاشع الراوى الرفاعى ص ٦ .

(٨٩) الفتح المبين لظهير الدين القادرى ص ١٨ .

نُزُولُ الْوَحْيِ وَإِتْيَانُ الْمَلَائِكَةِ

وبعد هذا نرجع إلى أفكار الصوفية الأخرى ومعتقداتهم الخاصة بهم، لنرى التشيع المتستر الظاهر فيها، وتأثيره خفياً وجلياً ليرى الباحث والقارئ منهل التصوف ومنبعه، مصدره ومأخذه.

فان الشيعة يرون بأن النبوة لم تختتم على محمد صلوات الله وسلامه عليه، حيث لم يكن وحده في زمانه الذي كان ينزل عليه الوحي، ويأتى إليه الملك، ويكلمه الله من وراء حجاب، بل كان هناك شخص آخر في زمانه وبعده، كان له تلك الأوصاف كلها، بل وأكثر منها.

حيث أن رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو بارسال رسول، فيوحى بأذنه ما يشاء.

وأما الامام فكان ينزل عليه الوحي، ويرسل إليه رسول، ويكلمه الله ويناجيه بلا حجاب، وقد أعطى خصالاً لم يسبقه إليها أحد، ثم توارث هذه الأوصاف من خلفه بعده إلى خاتم الأئمة.

ولقد ورد في كتب الشيعة الاثني عشرية - لا في كتب الاسماعيلية^(٩٠) والغلاة^(٩١) - وفي أصحابها عندهم ما ينصّ على ذلك مثل ما ذكر الكليني - وهو كالبخارى عند أهل السنة - في كافيّه^(٩٢) عن جعفر الباقر - الامام المعصوم السادس لدى القوم - أنه قال :

«ما جاء به عليّ عليه السلام آخذ به وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد ﷺ ولمحمد ﷺ الفضل على جميع من خلق الله عزّ وجلّ، المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالتعقب على الله وعلى رسوله والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى، وكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه كثيراً ما

(٩٠) حيث أن الاسماعيلية يرون النبوة مقسمة بين محمد ﷺ، وعلى رضى الله عنه، فكان رسول الله محمد ناطقاً بينما كان على بن أبى طالب رضى الله عنه صامتاً، وهو الأساس والأصل. فانظر لتفصيل ذلك كتابنا (الاسماعيلية تاريخ وعقائد).

(٩١) لأنهم يعتقدون أن جبريل اشتبه عليه فنزل على محمد ﷺ بدل أن ينزل على عليّ رضى الله عنه، وطائفة منهم ترى الألوهية المتجسدة في عليّ رضى الله عنه، لا النبوة فحسب.

(٩٢) وهو أحد الأصول الأربعة الشيعية، وصحاحهم.

يقول : أنا قسيم الله بين الجنة والنار وأنا الفاروق الأكبر وأنا صاحب العصا والميسم ولقد أقرت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقرأوا به لمحمد ﷺ ولقد حملت على مثل حملته وهي حمولة الرب وإن رسول الله ﷺ يدعى فيكسى ، وادعى فأكسى ويستنطق واستنطق فأنطق على حد منطقته ، ولقد اعطيت خصلاً ما سبقني إليها أحد قبلي علمت المنايا والبلايا ، والأنساب وفصل الخطاب ، فلم يفتني ما سبقني ، ولم يعزب عني ما غاب عني» (٩٣).

ونقل محمد بن حسن الصفار شيخ الكليني وأستاذه ، الذي يعدونه من أصحاب إمامهم الحادى عشر - حسب زعمهم - روايات كثيرة في صحيحه لاثبات نزول الوحي على أئمتهم ، ونزول الملائكة عليهم تحت عناوين كثيرة في أبواب شتى ، منها ما رواها عن حمران بن أعين أنه قال :

«قلت لأبى عبد الله (جعفر) عليه السلام : جعلت فداك ، بلغنى أن الله تعالى قد ناجى عليا عليه السلام ؟

قال : أجل ، قد كان بينهما مناجاة بالطائف نزل بينهما جبريل» (٩٤).

لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليا يوم خيبر ، فتقل في عينيه وقال له : إذا أنت فتحتها فقف بين الناس ، فإن الله أمرنى بذلك ، قال أبو رافع : فمضى على عليه السلام وأنا معه ، فلما أصبح افتتح خيبر ووقف بين الناس وأطال الوقوف ، فقال الناس :

إن عليا عليه السلام يناجى ربه ، فلما مكث ساعة أمر بانتهاب المدينة التى فتحها ، قال أبو رافع : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : ان عليا عليه السلام وقف بين الناس كما أمرته ، قال قوم منهم :

«إن الله ناجاه ، فقال : نعم يارافع ، إن الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة ويوم حنين ، ويوم غسل رسول الله» (٩٥).

ومثل هذه الروايات كثيرة لا تعد ولا تحصى (٩٦).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرى الشيعة أن أئمتهم أولئك أفضل من

(٩٣) الأصول من الكافي ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ط إيران .

(٩٤) بصائر الدرجات للصفار الباب السادس عشر ص ٤٣٠ ط إيران .

(٩٥) أيضا ص ٤٣١ .

(٩٦) وقد أشبعنا الكلام في هذا الخصوص في كتابنا (الشيعة والسنة) وقد صدرت له حتى اليوم أكثر من ثلاثين طبعة و (الشيعة وأهل البيت) و (الشيعة والتشيع فرق وتاريخ) وكذلك كتابنا الجديد (بين الشيعة وأهل السنة) ، ومن أراد الاستزادة فليرجع الى تلك .

الأنبياء كما صرح بذلك الكليني أن الامامة فوق النبوة والرسالة والخلة حيث نقل رواية عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال :

«ان الله اتخذ ابراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيا ، وان الله اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا ، وان الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا ، وان الله اتخذه خليلا قبل أن يتخذه إماما» (٩٧) .

وروى أيضا عن يوسف التمار أنه سمع جعفر بن الباقر أنه قال :

«ورب الكعبة ، وربّ البنية - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر عليهما السلام لأخبرتهما أني أعلم منهما ، ولأنبئتهما بما ليس في أيديهما لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة» (٩٨) .

وعنه أنه قال :

«انى لأعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأعلم ما فى الجنة وما فى النار ، وأعلم ما كان وما يكون» (٩٩) .

وقد بوّب الحر العاملى صاحب موسوعة حديثية شيعية كبيرة بابا مستقلا بعنوان «الأئمة الاثنى عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين والملائكة وغيرهم ، وأن الأنبياء أفضل من الملائكة» .

ثم أورد تحته روايات عديدة ، منها ما رواها عن جعفر أنه قال :

«ان الله خلق أولى العزم من الرسل ، وفضلهم بالعلم ، وأورثنا علمهم ، وفضلنا عليهم فى علمهم ، وعلم رسول الله (ص) ما لم يعلمهم ، وعلمنا علم الرسول وعلمهم» (١٠٠) .

وعلى ذلك قال الخميني زعيم شيعة ايران اليوم فى كتابه (ولاية الفقيه) ما نصّه :

«ان من ضروريات مذهبنا أنه لا ينال أحد المقامات المعنوية الروحية للأئمة

(٩٧) كتاب الحجة من أصول الكافي ج ١ ص ١٧٥ ط ايران ، ومثله نقل عن أبيه أيضا .

(٩٨) الكافي فى الأصول ج ١ ص ٢٦١ ط ايران .

(٩٩) أيضا باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان ، وأنه لا يخفى عليهم الشئ ج ١ ص ٢٦١ ط ايران .

(١٠٠) الفصول المهمة فى أصول الأئمة للحر العاملى ص ١٥٢ ط ايران .

حتى ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما روى عندنا بأن الأئمة كانوا أنوارا تحت ظل العرش قبل تكوين هذا العالم... وأنهم قالوا: ان لنا مع الله أحوالا لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهذه المعتقدات من الأسس والأصول التي قام عليها مذهبنا» (١٠١).

فهذه هي عقائد الشيعة الاثني عشرية في أئمتهم بأنه يأتي إليهم جبريل، وينزل عليهم الوحي، ويكلمهم الله من وراء حجاب، ويناجيهم من دون حجاب، وأن النبوة لم تنقطع ولم تختم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه، وأن الولاية أعظم وأفضل من النبوة والرسالة، وعلمهم بدون واسطة فصاروا يعلمون علم ما كان وما يكون، وفضلهم على الخلائق من الأنبياء والرسل.

والنصوص والروايات في هذا الخصوص جاوزت المئات، وعليها أسست وبُنيت الديانة الشيعية نتيجة مؤامرة يهودية للقضاء على الاسلام ودعوة خاتم النبيين الناطق بالوحي ﷺ.

هذا، وبعد هذا عندما نرجع إلى آراء الصوفية، وأفكارهم، وعقائدهم ومعتقداتهم، كتبهم ورسائلهم، رواياتهم ومقولاتهم، تصريحاتهم وعباراتهم، نجد معظم هذه الأفكار وطابعها واضحا جليا، بل انها عين هذه الترهات والخزعبلات، مبنوثة منشورة في كتب الأولين منهم والآخرين. وما هي النصوص:

فيقول الصوفي الكبير عبد القادر الحلبي المعروف بابن قضيبة البان:

«كل ما خصّت به الأنبياء، خصّت به الأولياء» (١٠٢).

وما هي اختصاصات الأنبياء غير الوحي، ونزول الملائكة، وكلام الربّ معهم، وإخبارهم عن الغيب، وكونهم معصومين عن الخطأ والزلل في تبليغ رسالات الله (١٠٣)، التي يريد ابن البان إشراك غيرهم معهم من الصوفية؟

وهل لسائل أن يسأل: أو بعد مشاركة الغير يبقى الاختصاص اختصاصا؟

(١٠١) ولاية فقيه در خصوص حكومت اسلامي لنائب الامام الخميني تحت باب ولايت تكويني من الأصل الفارسي ص ٥٨ ط طهران.

(١٠٢) المواقف الالهية لابن قضيبة البان المتوفى ١٠٤٠ هـ ص ١٦٠ ملحق بكتاب الانسان الكامل لعبد الرحمن البدوي ط وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٦ م.

(١٠٣) وسوف نفرد للعصمة كلاما في محله إن شاء الله.

وقبل أن نتمق في هذا نريد أن نضع النقاط على الحروف، كي لا يتوهم المتوهم أننا نلزم القوم على ما لا يتقولونه ويعتقدونه. فنثبت من كتبهم أنفسهم، وبعباراتهم هم ما يبرهن قولنا، فيقول الشيخ الأكبر للصوفية راداً على الغزالي: ان الغزالي غلط في التفريق بين نزول الملك على النبي والولي، مع أن النبي والولي كلاهما ينزل عليه الملك (١٠٤).

وقد ذكر الشعراني أيضا بقوله:

«فإن قلت: قد ذكر الغزالي في بعض كتبه: إن من الفرق بين تنزل الوحي على قلب الأنبياء وتنزله على قلوب الأولياء نزول الملك، فإن الولي يلهم ولا ينزل عليه ملك قط، والنبي لا بد له في الوحي من نزول الملك به، فهل ذلك صحيح؟ فالجواب كما قاله الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة: ان ذلك غلط... قال الشيخ: وسبب غلط الغزالي وغيره في منع تنزل الملك على الولي عدم الذوق، وظنهم أنهم قد عموا بسلوكهم جميع المقامات، فلما ظنوا ذلك بأنفسهم ولم يروا ملك الا لاهم نزل عليهم أنكره، وقالوا: ذلك خاص بالأنبياء، فذوقهم صحيح وحكمهم باطل، مع أن هؤلاء الذين منعوا قائلون بأن زيادة الثقة مقبولة، وأهل الله كلهم ثقات.

قال: ولو أن أبا حامد وغيره اجتمعوا في زمانهم بكامل من أهل الله وأخبرهم بتنزل الملك على الولي لقبولوا ذلك ولم ينكروه.

قال: وقد نزل علينا ملك فله الحمد» (١٠٥).

ولا ندرى كيف يرد على الغزالي وهو القائل:

«ومن أول الطريق تبتديء المكاشفات والمشاهدات، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» (١٠٦).

(١٠٤) الأبريز لعبد العزيز الدباغ ص ١٥١ ط مصر.

(١٠٥) البواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشعراني ج ٢ ص ٨٥ ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

(١٠٦) المنقذ من الضلال للغزالي ص ١٢٧ المنشور في مجموعة مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود ط دار الكتاب =

هذا ويقول ابن عربي في كتابه (الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذى الحكيم) زيادة على نزول الملك على الولي :

«وليس الأمر كذلك، فقد رآه الأولياء في حال حديثه لهم، فكل قال ما شاهد... ومشهده صحيح، وهذا كله اذا كان الحديث من الملك والروح» (١٠٧).

يعنى أن الولي لا ينزل عليه الملك ويحدثه ويشاهده الولي ويراه وقت نزوله عليه، وكلامه به.

وبمثل ذلك يقول صوفي قديم آخر نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ أن الملائكة تنزل على الصوفية (١٠٨).

وبمثل ذلك قال الدباغ، وبعبارة أكثر وضوحا من هذه العبارات :

«وأما ما ذكره في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح، لأن المفتوح عليه سواء كان وليا أو نبيا لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونهم، وكل من قال : ان الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه» (١٠٩).

ونقل النفزي الرندي عن بعض المشائخ أنه قال :

«إن الملائكة تزورني فأنس بها، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها» (١١٠).

وليس عامة الملائكة فحسب، بل جبريل أيضا كما ينص على ذلك الشعراني ناقلا عن الشيخ عبد الغفار القوصي أنه قال في كتابه المسمى بالوحيد :

«أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان في حاجة يقول له : إصبر حتى يجيء جبريل» (١١١).

= اللبناني بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٩ م. أيضا المنقذ من الضلال ص ٥٠ ط بنجاب الباكستان.
(١٠٧) الجواب المستقيم لابن عربي مخطوط ورقة ب ٢٤٦ المدرج في كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ص ٢٢١ ط المطبعة الكاثوليكية بيروت بتحقيق عثمان اسماعيل يحيى.
(١٠٨) انظر فوائج الجمال وفوائح الجلال لنجم الدين الكبرى ص ١٠.
(١٠٩) الابريز للدباغ ص ١٥١.
(١١٠) غيث المواهب العلية للنفزي الرندي ج ١ ص ٢٦٢.
(١١١) الأخلاق المتبولة للشعراني بتحقيق الدكتور منيع عبد الحليم محمود ج ١ ص ٤٥٤ ط مطبعة حسان القاهرة.

وبذلك يقول ابن عربي أن القطب ينزل على قلبه الروح الأمين حيث يذكر في كتابه (مواقع النجوم):

«هذا المقام (أى مقام القطب) وهذه أسرارہ رفع الحجاب وأشرق أنوارہ وبدا هلال التّم يسطع نوره للناظرين وزال عنه سراره وتنزل الروح الأمين لقلبه يوم العروبة وانقضت أوطاره» (١١٢) وينزل عليه بالأمر والنهى كما نص على ذلك الدباغ بقوله:

«ينزل الملك على الوليّ بالأمر والنهى» (١١٣).

«وتصير قلوبهم مهبطا للوحى» (١١٤).

ويسمعون كلام الله «فاذا تحقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته سرمدًا، وشهوده مؤبداً، وسماعه متواليا متجددا يسمع كلام الله تعالى» (١١٥).

و«يتلقاهم ملائكة الله مشرقين، يحيونهم بتحايا الملكوت، ويصبون عليهم ماء النبع من ينبوع البهاء... ويقومون فى هياكل القربات، يناجون مع أصحاب حجرات العزة ويسمعون صوتا كصوت رعد أودوى فى الدماغ» (١١٦).

ويقول السهروردى المقتول سنة ٥٨٧هـ هذا أيضا أن الأولياء، ويسمىهم اخوان التجريد «يتعلمون العلم من روح القدس بلا تعلم بشرى، وتطيعهم مادة العالم العنصرى، ويندرون الكون ويخبرونه بالجزئيات الواقعة فى الماضى والمستقبل» (١١٧).

ويكتب الحكيم الترمذى فى قضية مكاملة الله مع الوليّ:

«الولاية لمن ولى الله حديثه على طريق أخرى فأوصله إليه، فله الحديث، وينفصل ذلك الحديث من الله عز وجل على لسان الحق معه السكينة تتلقاه السكينة

(١١٢) مواقع النجوم لابن عربي ص ١٠٢ الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ مطبعة السعادة مصر.

(١١٣) الأبريز للدباغ ١٥١.

(١١٤) إبراهيم المتبولى: الأخلاق المتبولى للشعرانى ص ١٠٠.

(١١٥) عوارف المعارف للسهروردى ص ٢٧.

(١١٦) حكمة الاشراق لشهاب الدين السهروردى ص ٢٤٢-٢٤٤ نقلا عن ختم الأولياء للترمذى ص ٤٦٦ وما

بعد.

(١١٧) اللامحات لشهاب الدين السهروردى المورد السادس ص ١٧٢، ١٧٣ المدرج فى كتاب يشتمل على

رسائله الثلاثة باسم سه رساله از شيخ اشراق ط مركز تحقيقات فارسى ايران وباكستان ١٩٨٤م.

التي في قلب المحدث، فيقبله ويسكن اليه» (١١٨).

ونختم هذا على ما قاله ابن العربي في هذا الخصوص:

«اعلم يا بني أن العبد المحقق الصوفي اذا صفا وتحقق صار كعبة لجميع الأسرار الالهية من كل حضرة وموقف، ويرد عليه في كل يوم جمعة مادام في ذلك المقام ستائة ألف سرّ ملكوتي، واحد منها إلهي، وخمسة أسرار ربانية، ليس لها في حضرة الكون مدخل» (١١٩).

وليس هذا فحسب، بل يقولون بعروج المتصوفة إلى السماء، ووقوفهم بين يدي الربّ، ومناجاتهم به، وتكلمه اياهم، فيحكي ابن البان عن نفسه:

«أوقفني الحق على بساط الاسراء... وارتقيت إلى السماء الأولى... ثم ارتقينا إلى السماء الثانية... ثم انتهينا إلى السماء السابعة... وفيها ملك على كرسي من نور... وفي هذه السماء رضوان خازن الجنان، وأجل الملائكة من جنده، وفيها اسرافيل رئيس عالم الجبروت، وهو الذي بشرني بالقرب والمنزلة الكريمة عند ربي، وبالسعادة في الآخرة والشفاعة في أمة محمد (ص)، وفي هذه السماء رأينا ابراهيم الخليل مسندا إلى البيت المعمور... ثم انتهينا إلى سبعين حجبا آخر... حتى انتهيت إلى آخر حجاب هناك، واذا بكرسي من اللؤلؤ منصبه قوائمه من الجوهر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، فأخذ أخذ بيدي وأجلسني عليه، ثم نزل عليّ شيء ودخل جوفي من حيث لا أعلم، فقال لي شيئا في قلبي. ها قد أكرمك مولاك بالسكينة الربانية. فلما أحسّ باطني بها سكن كل جارحة فيّ. فكأنني لم أر أشياء ولم يهلني شيء.

ثم نوديت من مكان قريب. وذلك من جهاتي الست: يا حبيبي ومطلوبي، السلام عليك، فغمضت عيني، وكنت أسمع بقلبي ذلك الصوت حتى أظنه من جوارحي لقربه مني، ثم نوديت: انظر عليّ، ففتحت عيني فصرت كلى أعينا، وكأن في باطني ما أراه في ظاهري، وصرت كأنني برزخ بين كونين وقاب، كما يرى الرائي عند النظر في المرآة ما في خارجها. ثم سمعت بقاريء يقرأ قوله: آمن الرسول بها أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله

(١١٨) ختم الأولياء للحكيم الترمذي ص ٣٤٦ ط المطبعة الكاثوليكية بيروت.

(١١٩) مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم لابن عربي ص ١٧١ ط مطبعة السعادة مصر ١٣٢٥هـ.

وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير .

وإذا بذلك الحجاب قد رفع وأذن لى بدخوله . ولما دخلته رأيت الأنبياء صفوفا صفوفا ودونهم الملائكة ، ورأيت أقرهم إلى الحق أربعة أنبياء ، ورأيت أولياء أمة محمد أقرب الناس إلى محمد وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وأقرب إليه أربعة أولياء ، فعرفت منهم السيد محى الدين عبد القادر ، وهو الذى تلقانى إلى باب الحجاب ، وأخذ بعضدى حتى دنوت من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله ، فناولنى يمينه فأخذه بكلتا يديّ ، فلأزال يجذبني ويدنيني حتى ما بقى بينى وبين ربى أحد ، فلما حققت النظر فى ربى ورأيته على صورة النبى ، إلا أنه كالثلج أشبه شىء أعرفه فى الوجود من غير رداء ولا ثياب . ولما وضعت شفتى على محل منه لأقبله أحسست ببرد كالثلج سبحانه وتعالى ، فأردت آخر صعقا ، فمسكنى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله» (١٢٠) .

وأما ابن عربى فيجعل لعروجه محاكيا المعراج النبوى الشريف ويقول :

«بينما أنا نائم وسر وجودى متجهدا قائم جاءنى رسول التوفيق ، ليهدينى سواء الطريق ، ومعه براق الاخلاص ، عليه لبد الفوز ولجام الاخلاص ، فكشف عن سقف محلىّ ، وأخذ فى نقضى وحلىّ ، وشق صدرى بسكين السكينة ، وقيل لى : تأهب لارتقاء الرتبة المكيّة ، وأخرج قلبى فى منديل ، لآمن من التبديل ، وألقى فى طست الرضا ، بموارد القضا ، ورمى منه حظ الشيطان ، وغسل بهاء : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان . . . ثم أتيت بالخمير واللبن ، فشربت ميراث تمام اللبن ، وتركت الخمر حذرا أن أكشف السرب بالسكر . . . استفتح لى سماء الأجسام فرأيت سر روحانية آدم عليه السلام . . . فاستفتح الرسول الوضاح ، سماء الأرواح . . . قال لى : مرحبا وأهلا - إلى آخر الخرافات والمختلقات» (١٢١) .

ويقول أحد من المتقدمين من الصوفية نجم الدين كبرى المقتول ٦١٨ هـ :
«انه أيضا ممن عرج به إلى السماء» (١٢٢) .

(١٢٠) المواقف الالهية لابن البان ص ١٦٤ الى ١٦٩ .

(١٢١) انظر كتاب الاسراء لابن عربى ص ١٨ من «رسائل ابن العربى» الطبعة الأولى ص حيدرآباد دكن الهند ١٣٦٧ هـ .

(١٢٢) انظر فوائح الجمال وفوائح الجلال لنجم الدين الكبرى بتصحيح دكتور فریتز مائتر أستاذ بجامعة بازيل بسويسرا مطبعة فرانتزشتاينر ويسبادن المانيا ١٩٥٧ م .

كما نقل عن أبي الحسن الخرقاني أنه قال :

«صعدت ظهيرة إلى العرش لأطوف به فطفت عليه ألف طوفة أو كما قال، ورأيت حواليه قوما ساكنين مطمئين فتعجبوا من سرعة طوافي وما أعجبنى طوافهم، فقلت: من أنتم، وما هذه البرودة في الطواف؟

فقالوا: نحن ملائكة، ونحن أنوار، وهذا طبعنا لا نقدر أن نجاوزه، فقالوا: ومن أنت وما هذه السرعة في الطواف؟

فقلت: بل أنا آدمي، وفي نور، ونار هذه السرعة من نتائج نار الشوق» (١٢٣).
والجليلي كذلك ذكر عروجه ومعراجيه، ورؤيته لسدة المنتهى وتجليات الرب تبارك وتعالى (١٢٤).

وكذلك يذكر النفزي الرندي المتوفى ٧٩٢هـ في تفسير قوله تعالى: وملكا كبيرا:

«انه يرسل الله تعالى الملك إلى وليّه، ويقول له:

استأذن على عبدى، فان أذن لك فادخل، وإلا فارجع، فيستأذن عليه من سبعين حجابا، ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عز وجل عنوانه:

من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت، فاذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه: عبدى، اشتقت إليك فزرنى، فيقول: هل جئت بالبراق؟

فيقول: نعم، فيركب البراق، فيغلب الشوق على قلبه، فيحمله شوقه، ويبقى البراق إلى أن يصل إلى بساط اللقاء» (١٢٥).

وهناك آخرون كثيرون ادعوا عروجهم إلى السماء، ومعراجهم أو مكالمتهم الرب، ومخاطبتهم إياه، ومنهم صالح بن بان النقا السوداني (١٢٦).

ودفع الله بن محمد الكاهلى الهذلى السودانى (١٢٧).

(١٢٣) أيضا ص ١٣.

(١٢٤) انظر الانسان الكامل للجليلي الباب التاسع والأربعون في سدة المنتهى ج ٢ ص ١٢، ١٣.

(١٢٥) أيضا ص ٦٥، ٦٦.

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات لمحمد ضيف الله الجعللى الفضلى ص ١٠٥ ط لبنان.

(١٢٧) أيضا ص ٨٩.

وفتح الله بوراس القيرواني (١٢٨).

ومحمد بن قائد اللواني العراقي (١٢٩).

وأبو العباس المرسى (١٣٠).

ومثل هؤلاء كثيرون لا يعدون ولا يحصون.

ويذكر الصوفي القديم المشهور عزيز الدين نسفى عن عروج المتصوفة إلى السماء:

ان بعض الصوفية يعرجون إلى السماء الأولى ويطوفون حولها، وبعضهم يتجاوزون من السماء الأولى . . . وبعضهم يصلون إلى العرش اذا أمكن لهم (١٣١).

هذا بالنسبة للعروج، وأما من ناحية مكالمة الربّ هؤلاء المتصوفة فلأهمية نقل عبارة الجيلي كاملة، فيقول تحت عنوان (تحلي الصفات):

«ومن المكلمين من يذهب به الحق من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح وهؤلاء أعلى مراتب. فمنهم من يخاطب في قلبه، ومنهم من يصعد بروحه إلى سماء الدنيا، ومنهم إلى الثانية والثالثة كل على حسب ما قسم له، ومنهم من يصعد به إلى سدرة المنتهى فيكلمه الله هناك، وكل من المكلمين على قدر دخوله في الحقائق تكون مخاطبات الحق له، لأنه سبحانه وتعالى لا يضع الأشياء إلا في مواضعها. ومنهم من يضرب له عند تكليمه إياه نور له سراق من الأنوار. ومنهم من ينصب له منبراً من نور. ومنهم من يرى نورا في باطنه فيسمع الخطاب من تلك الجهة النورية، وقد يرى النور كثيرا وأكثر ومستديرا ومتطاولا. ومنهم من يرى صورة روحانية تتأجج، كل ذلك لا يسمى خطابا، إلا أن أعلمه الله أنه هو المتكلم، وهذا لا يحتاج فيه إلى دليل، بل هو على سبيل الوهلة فإن خاصية كلام الله لا تخفى، وأن يعلم أن كل ما سمعه كلام الله فلا يحتاج هناك إلى دليل ولا بيان، بل بمجرد سماع الخطيب يعلم العبد أنه كلام الله، ومن صعد به إلى سدرة المنتهى من قيل له حبيبي إنيك هي هويتي وأنت عين هو وما هو إلا أنا، حبيبي بساطتك تركيبي وكثرتك واحديتي، بل تركيبك بساطتي

(١٢٨) انظر الوصية الكبرى لعبد السلام الفيتوري ص ٧٤ ط طرابلس ليبيا ١٩٧٦ م.

(١٢٩) الجواب المستقيم لابن عربي ورقة ١، ب المنقول من كتاب ختم الأولياء للترمذي ص ٢٢٤.

(١٣٠) انظر النفحة العلية في أورد الشاذلية ص ٢٣٠.

(١٣١) انظر زبدة الحقائق لعزيز الدين نسفى ص ٥٨ تصحيح وتقديم حق وردى ناصرى ط كتابخانه طهورى

وجهلك درابتي ، أنا المراد بك أنا لك لالى ، أنت المراد بى أنت لى لا لك ، حببى
أنت نقطة عليها دائرة الوجود فكنت أنت العابد فيها والمعبود ، أنت النور أنت الظهور
أنت الحسن والزين كالعين للإنسان والإنسان للعين :

ويا سلوة الأحزان للكبد الحرى	أيا روح روح الروح والآية الكبرى
حديثك ما أحلاه عندى وما أمرا	ويا منتهى الآمال يا غاية المنى
ويا عرفان الغيب يا طلعة الغرا	ويا كعبة التحقيق يا قبلة الصفا
تصرف لك الدنيا جميعا مع الأخرى	أتيناك أخلفناك فى ملك ذاتنا
فكنت. وكنا والحقيقة لا تدرى	فلولاك ما كنا ولولاى لم تكن
ولياك نعننى بالفقير ولا فقرا» (١٣٢)	فيايك نعننى بالمعزة والغنى

فلي نظر الباحث ، ولي تعمق ، هل بقى هناك شىء خفى بعد هذا كله؟

ولكننا لتوثيق ما هو موثق نورد نصوصا أخرى من أكابر القوم الآخرين ،
وأعظمهم .

منها ما نقل المتصوفة عن أبى يزيد البسطامى أنه كثيرا ما كان يقول للفقهاء :
«أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، ونحن أخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت» (١٣٣).

وهو الذى يذكرون عنه أنه ذكر معراجهم ومكالمته الرب - تعالى الله عما يقولون به
علوا كبيرا - فيقول :

«أدخلنى فى الفلك الأسفل ، فدورنى فى الملكوت السفلى ، فأرانى الأرضين
وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوّف بى فى السموات وأرانى ما
فيها من الجنان إلى العرش .

ثم أوقفنى بين يديه فقال لى : سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت :

ياسيدى ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدى حقا
تعبدنى لأجلى صدقا لأفعلن بك» (١٣٤).

(١٣٢) الانسان الكامل لعبد الكريم الجليلى ص ٦٥، ٦٦ الطبعة الرابعة مصطفى البابى الحلبي ١٤٠٢هـ .

(١٣٣) الجواهر والدرر للشعرانى بهامش الابريز ص ٢٨٦ ، أيضا ذخائر الأعلام لابن عربى ص ١٥٣ .

(١٣٤) قوت القلوب لأبى طالب المكي ج ٢ ص ٧٠ ، كذلك محاسن المجالس لابن العريف ص ٧٧ ، أيضا غيث

المواهب العلية للنفزى الرندى ص ٣٠٥ .

ونقل الآخرون الكثيرون عنه أيضا أنه قال :

«رفعني مرة فأقامني بين يديه ، وقال لى :

يا أبا يزيد ، ان خلقي يحبون أن يروك .

فقلت : زيني بوحدانيتك ، وألبسني أنايتك ، وارفعني إلى أحديتك ، حتى اذا رآنى خلقتك قالوا : رأييناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا» (١٣٥) .

ونقلوا مثل ذلك عن السرى السقطى رواية عن الجنيد أنه قال :

بّت عند سرى ليلة ، فقال لى : أنائم أنت؟

فقلت : لا .

فقال : أوقفنى الحق بين يديه ، فقال : أتدرى لم خلقت الخلق؟

قلت : لا . قال : خلقتهم فادّعوا محبتى ، فخلقت الدنيا ، فاشتغل بها من عشرة آلاف تسعة آلاف ، وبقي ألف ، فخلقت الجنة فاشتغل بها تسعمائة ، وبقي مائة ، فسلطت عليهم شيئا من بلائى ، فاشتغل تسعون ، وبقي عشرة ، فقلت لهم : لا الدنيا أردتم ، ولا فى الجنة رغبتم ، ولا من البلاء هربتم ، فماذا تريدون؟

قالوا : انك تعلم ما نريد .

فقال : سأنزل عليكم من البلاء ما لا تطيقه الجبال ، أفثبتون؟

قالوا : ألسنت أنت الفاعل؟ قد رضينا بذلك . نحمد ذلك بك وفيك ولك .
فقال : أنتم عبادى حقا (١٣٦) .

ورروا عن الجنيد أنه قال :

«لى ثلاثون سنة أتكلم مع الله تعالى» (١٣٧) .

(١٣٥) انظر كتاب اللمع للطوسى ص ٤٦١ .

(١٣٦) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ ط دار الفكر العربى القاهرة .

(١٣٧) طبقات الشعرانى ج ص ٢٠٠ .

وعن صوفي قديم آخر سهل بن عبد الله التستري أنه قال :

«أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يتوهمون أنى أكلمهم» (١٣٨).

والشعرانى نقل عن على الخواص أنه قال :

«قد سمعت سيدى إبراهيم المتبولى يقول كثيرا :

لى ثلاثون سنة وأنا مقيم فى حضرة الله لم أخرج ، وجميع ما أتكلم به انما أكلم به الحق سبحانه» (١٣٩).

والرفاعية أيضا لا يريدون أن يقل شأن مرشدهم وهادهم ، وتنحط مكانته فى أعين مريديه ومقلديه ، فنقلوا عنه أنه كان كثيرا بينه وبين الرب مناجاة ومخاطبات ، فنقلوا عن ابن جلال فى جلاء الصدا ما نصه :

«نقل عن السيد ابراهيم الأعزب أنه قال : كنت جالسا فى الغرفة مع السيد أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنها ، ورأسه على ركبته ، فرفع رأسه وضحك بأعلا صوته فضحكت أنا أيضا ثم ألححت عليه ليخبرنى عن سبب ضحكته ، فقال :

أى ابراهيم ، نادانى العزيز سبحانه : انى أريد أن أخسف الأرض ، وأرمى السماء على الأرض .

فلما سمعت هذا النداء تعجبت ، وقلت : الهى ، من ذا الذى يعارضك فى ملكك وإرادتك ؟

قال سيدى ابراهيم : فأخذته الرعدة ووقع على الأرض وبقي فى ذلك الحال زمانا طويلا» (١٤٠).

وحينما رأى الشاذلية هذه المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة لمرشد الرفاعية ، الرفاعى ، لم يرضوا أن يتخلفوا عنهم ، فقالوا : ان ما لشاذلينا لم تكن مخاطبات

(١٣٨) التعرف لمذهب أهل التصوف بتحقيق محمود أمين النواوى ص ١٧٢ ط القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٠ م .

(١٣٩) انظر الأخلاق المتبولى للشعرانى ج ١ ص ٤٨٢ .

(١٤٠) انظر قلادة الجواهر فى ذكر الرفاعى وأتباعه الاكابر للسيد محمد أبى الهدى الرفاعى ص ١٨٠ .

فحسب، بل ان الله جل مجده هو الذى سماه بهذا الاسم، فيذكر الامام الأكبر السابق للأزهر، الدكتور عبد الحلیم محمود نقلا عن أبى الحسن الشاذلى كيفية نزوله من جبل زغوان، ومغادرته خلوته، فيقول:

«قيل لى: يا على: اهبط إلى الناس ينتفعوا بك.

فقلت: يا ربّ أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم.

فقيل لى: انزل فقد أصبحناك السلامة، ودفعنا عنك الملامة.

فقلت: تكلنى إلى الناس آكل من دريهماتهم.

فقيل لى: أنفق يا على، وأنا الملى، ان شئت من الجيب، وان شئت من الغيب.

ونزل الشاذلى رضى الله عنه من على الجبل ليغادر شاذلة، ويستقبل مرحلة جديدة، فقد انتهت المرحلة الأولى التى رسمها له شيخه.

وقبل أن يغادر معه شاذلة إلى رحلته الجديدة نذكر ما حكاه رضى الله عنه فيها يتعلق بنسبته إلى شاذلة، قال:

قلت: يا ربّ لم سمّيتنى بالشاذلى؟ ولست بشاذلى؟

فقيل لى: يا على، ما سمّيتك بالشاذلى وانما أنت الشاذلى. بتشديد الذال المعجمة يعنى: المفرد لخدمتى ومحبتى» (١٤١).

هذا ولقد نقلوا مثل هذه المكالمات والمناجاة بين ذى النون المصرى والربّ تبارك وتعالى أيضا (١٤٢).

وقلما يوجد صوفى أو متصوف إلا وقد ادّعى مثل هذه الدعوى، وكتب التراجم وطبقات الصوفية مليئة بمثل هذه الأكاذيب والشنعات، والجرأة على الله،

(١٤١) انظر كتاب الدكتور عبد الحلیم محمود المدرسة الحديثة الشاذلية وامامها أبو الحسن الشاذلى ص ٣٤، ٣٥.

ط دار الكتب الحديثة القاهرة.

(١٤٢) انظر تذكرة الأولياء للعطار ص ٧٤ ط باكستان.

والانتقاص من شأن نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين وسيد المرسلين، حيث ينسبون إلى أنفسهم، أو إلى مرشديهم ومتصوفيهم ما لم يكن لبشر أن يحصل عليه، حتى سيد الخلائق وأفضل النبيين والمرسلين مثل ما أوردنا عنهم، ومثل ما رووا عن فتح الله بوراس القيرواني أنه كان يقول:

«أشهدني الله تعالى ما في السموات السبع وما في الكرسي وما في اللوح المحفوظ وجميع ما في الحجب، وفككت طلاس السموات السبع والفلك الثامن الذي فيه جميع الكواكب وجميع الفلك الثامن، وهم بنات نعش والجدى والقطب، ووصلت إلى الفلك التاسع الذي يسمونه الأطلس، ورصدت جداوله وأنا عند ذلك طفل صغير لم أبلغ الحلم»^(١٤٣).

وكان يقول:

«وفي السماء السابعة شاهدت ربي وكلمته

وفوق العرش والكرسي قد ناداني وخاطبته

وما في اللوح المحفوظ من الآي والأمر والنهي قد حفظته

وبيدي باب الجنان قد فتحته ودخلته

وما فيه من الحور العين قد رأيته وحصيته

ومن رأيي ورأي من رأيي وحضر مجلسي

في جنة عدن وبستانها قد أسكنته»^(١٤٤).

ومثل ذلك ذكر الشعراني عن الدسوقي المتوفى ٧٧٦هـ حيث قال:

«أنا كل ولي في الأرض خلعته بيدي. ألبس منهم من شئت، أنا في السماء

شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار أغلقتها، وبيدي جنة

الفردوس فتحتها. من زارني أسكنته جنة الفردوس»^(١٤٥).

نعوذ بالله من مثل هذه الخرافات، ولا يؤاخذنا الله على نقل ما اقترفته الأيدي

الأثيمة والألسن الخبيثة، ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاؤ منا ان هي إلا فتنتك تضل بها

من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين.

ثم ان الصوفية أصلوا قاعدة وحكما عاما، وقالوا:

(١٤٣) الوصية الكبرى لشيخ المعروية عبد السلام الفيتوري ص ٧٥ ط مكتبة النجاش طرابلس ليبيا.

(١٤٤) أيضا.

(١٤٥) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٨٠.

«ما كان وليّ متصل بالله تعالى إلا وهو ينجي ربه كما كان موسى عليه السلام ينجي ربه» (١٤٦).

«وإذا صفا قلب الفقير صار مهبط الوحي» (١٤٧).

والدباغ يقول:

«وكلام الحق سبحانه يسمعه المفتوح عليه إذا رحمه الله عز وجل سماعاً خارقاً للعادة فيسمعه من غير حرف ولا صوت ولا ادراك لكيفية، ولا يختص بجهة دون جهة، بل يسمعه من سائر الجهات، بل ومن سائر جواهر ذاته، وكما لا يختص السماع له جهة دون أخرى، كذلك لا يختص جارحة دون أخرى يعنى أنه يسمعه بجميع جواهره وسائر أجزائه فلا جزء ولا جوهر ولا سنّ ولا ضرر ولا شعرة منه إلا وهو يسمع به، حتى تكون ذاته بأسرها كأذن سامعة، ثم ذكر اختلاف أهل الفتح في قدر السماع ويّنه بما لا يذكر» (١٤٨).

«وان معراج الصوفية، وخرقهم السموات، ومكالمتهم الربّ، ومخاطبته إياهم جائز شرعاً ونقلًا، وهو المنقول عن الشاذلي، وابن عطاء الله في (لطائف المنن)، ومحمد السنوسي في كبراه، والشيخ عبد الباقي وغيرهم» (١٤٩).

وقد نقل الشعراني عن الشاذلي قوله:

«لا انكار على من قال: كلّمني الله كما كلّم موسى» (١٥٠).

وأما ابن عربي القائل دوماً: «حدّثني قلبي عن ربّي، في كتبه ورسائله، و: ما صنفت كتاباً عن تدبير واختيار إلا بأمر من الله وارشاده» (١٥١) يقول في سماع الصوفي كلام الربّ عندما يبلغ الدرجة العليا، ويتحقّق في مقامه، يقول:

«انما يسمع الصوفي في هذا المقام ويمثّل ما يسمع - كما أنا مازلت أسمع متحقّقاً في مقامى من الحق» (١٥٢).

(١٤٦) أيضاً ج ١ ص ١٨٠.

(١٤٧) الأخلاق المتبوية للشعراني ج ١ ص ١٠٠ المنقول عن ابراهيم المتبولى.

(١٤٨) الأبريز للدباغ ص ١٥٦.

(١٤٩) كتاب الطبقات للجعلى الفضلى ١٠٧.

(١٥٠) مقولة الشاذلي المنقولة في طلقات الشعراني ج ٢ ص ٦٩.

(١٥١) انظر تنبيه المغترين للشعراني ص ١٣٦.

(١٥٢) انظر مواقع النجوم لابن عربي ص ١٦٤ وما بعد الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ مطبعة السعادة مصر.

وأما اطلاعهم على الغيب، واحاطتهم بعلم ما كان وما يكون، واخبارهم بكل ما ظهر وما بطن فكتب القوم مليئة بهذه المختلقات، بل يمكن لقارئ كتب الصوفية والباحث في تراجعهم وطبقاتهم أن يقول: ان شخصا ما لا ينسب إلى هؤلاء الناس ويعدّ منهم إلا أن يكون حاملا لذلك العلم الذى هو من خاصة رب السموات والأرض، حيث أخبر عن ذاته سبحانه تبارك وتعالى:

﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾ (١٥٣).

وقال:

﴿والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ (١٥٤).

وقال:

﴿ان الله عالم غيب السموات والأرض انه عليم بذات الصدور﴾ (١٥٥).

وأخبر عن نفسه بنفسه:

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ (١٥٦).

و: ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾ (١٥٧).

والآية التى هى نصّ فى المسألة حيث أمر نبيّه ﷺ أن يقول:

﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ (١٥٨).

كما أمر نبيّه ﷺ أن ينفى عن نفسه الغيب:

﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ (١٥٩).

ونقل عن مصطفاه عليه الصلاة والسلام أنه قال:

(١٥٣) سورة الأنعام الآية ٥٩.

(١٥٤) سورة هود الآية ١٠٣، كذلك سورة النحل الآية ٧٧.

(١٥٥) سورة الفاطر الآية ٣٨.

(١٥٦) سورة الرعد الآية ٩.

(١٥٧) سورة التغابن الآية ١٨.

(١٥٨) سورة النحل الآية ٦٥.

(١٥٩) سورة الأنعام الآية ٥٠، مثله فى سورة هود الآية ٣١.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ (١٦٠).

وقال نبيه مخاطباً إياه :

«تعلم ما في نفسى ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب» (١٦١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، والأحاديث النبوية كذلك .

ولكن القوم يقولون عكس ذلك متأثرين بالتشيع ، وآخذين أفكارهم ومعتقداتهم ، فيقول القشيري في بيان درجات السلوك :

«ثم في خلال هذه الأحوال قبل وصوله إلى هذا المقام الذى هو نهاية كان يرى جملة الكون يضىء بنور كان له حتى لم يخف من الكون عليه شىء وكان يرى جميع الكون من السماء والأرض روية عيان ولكن بقلبه، وكان لا يرى في هذا الوقت بعين لأنه شىء ولكن لم يكن هذه رؤية علم، بل لو تحرك في الكون ذرة أو نملة» (١٦٢).

ونقل الكلاباذى عن أبى عبد الله الأنطاكى أنه قال :

«إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فانهم جواسيس القلوب، يدخلون في أسراركم، ويخرجون من هممكم» (١٦٣).

ويقول ابن عجيبة الحسنى :

«ان الحق سبحانه قسم الخلق قسمين وفرقهم فرقتين : قسم اختصهم بمحبته، وجعلهم من أهل ولايته، ففتح لهم الباب، وكشف لهم الحجاب، فأشهدهم أسرار ذاته، ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته» (١٦٤).

فاذا كشف الحجاب، وفتح لهم الباب «علم العوالم بأجمعها على ما هى عليه من تفاريحها من المبدأ إلى المعاد وعلم كل شىء، كيف كان؟ وكيف هو كائن؟ وكيف يكون؟ وعلم ما لم يكن، ولم لا يكون ما لم يكن؟ ولو كان ما لم يكن كيف كان يكون؟ كل ذلك علماً أصلياً حكماً كشفياً ذوقياً من ذاته لسريانه في المعلومات علماً اجمالياً تفصيلاً كلياً جزئياً مفصلاً في اجماله . . . ومنهم من تجلى الله عليه بصفة السمع

(١٦٠) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(١٦١) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(١٦٢) رسالة ترتيب السلوك للقشيري من مجموعة الرسائل القشيرية لعبد الكريم القشيري المتوفى ٤٦٥هـ .

ط المعهد المركزى للأبحاث الاسلامية باكستان ١٣٨٤هـ .

(١٦٣) التعرف للكلاباذى ص ٣٣ .

(١٦٤) ايقاظ الهمم لابن عجيبة الحسنى ص ٧٧ .

فيسمع نطق الجمادات والنباتات والحيوانات، وكلام الملائكة واختلاف اللغات، وكان البعيد عنه كالقريب» (١٦٥).

وقال عماد الدين الأموى:

«إذا انكشفت الحجب عن القلب تجلى فيه شىء مما هو مستور في اللوح المحفوظ، ولمع في القلب من وراء ستر الغيب شىء من غرائب العلم» (١٦٦).

وأيضاً: «يشرف على الملكوت الأعظم، ويرى عجائبه، ويشاهد غرائب، مثل اللوح، والقلم، واليمين الكاتبة، وملائكة الله تعالى يطوفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وبالبيت المعمور، ويسبحونه ويقدمونه، ويفهم كلام المخلوقين من الحيوانات والجمادات، ثم يتخطى منها إلى معرفة الخالق للكل والمالك للكل فتغشاهم الأنوار، وتتجلى لقلوبهم الحقائق» (١٦٧).

ويقول الدباغ وهو يذكر بعض ما يشاهده المفتوح عليه وهو الولي عنده، فيقول:

«أما في المقام الأول فانه يكشف فيه بأمور، منها: أفعال العباد في خلواتهم. ومنها: مشاهدة الأرضين السبع والسموات السبع، ومنها: مشاهدة النار التي في الأرض الخامسة، وغير ذلك مما في الأرض والسماء... ومن الأشياء التي يشاهدونها: اشتباك الأرضين بعضها ببعض، وكيف تخرج من أرض إلى أرض أخرى، وما تمتاز به أرض عن أرض أخرى، والمخلوقات التي في كل أرض. ومنها: مشاهدة اشتباك الأفلاك بعضها ببعض، وما نسبتها من السموات وكيف وضع النجوم التي فيها.

ومنها: مشاهدة الشياطين وكيف توالدها.

ومنها: مشاهدة الجن وأين يسكنون؟

ومنها: مشاهدة سير الشمس والقمر والنجوم... وأما ما يشاهده في المقام الثانى فانه يكشف بالأنوار الباقية كما كوشف في المقام الأول بالأمور الظلمانية الفانية،

(١٦٥) الانسان الكامل للجلى ج ١ ص ٦٣، ٦٤.

(١٦٦) حياة القلوب في كيفية الوصول الى الجنوب لعماد الدين الأموى ص ٢٦١ بهامش قوت القلوب لأبى

طالب.

(١٦٧) حياة القلوب ص ٢٧٥، ٢٧٦ بهامش قوت القلوب لأبى طالب المكي.

فيشاهد في هذا المقام الملائكة والحفظة والديوان والأولياء الذين يعمرونه . . وأما المقام الثالث فانه يشاهد فيه أسرار القدر في تلك الأنوار المتقدمة

وأما المقام الرابع فانه يشاهد فيه النور الذي ينسبط عليه الفعل، وينحل فيه كانهلال السم في الماء، فالفعل كالسم والنور كالماء . . . وفي المقام الخامس يشاهد انعزال الفعل عن ذلك النور، فيرى النور نورا، والفعل فعلا . . . والمفتوح عليه لا يغيب عليه ما في أرحام الأنثى فضلا عن غيره» (١٦٨).

وكان الدباغ هذا يرى أيضا أن المتصوفة لا يعرفون الغيب فحسب، بل يعرفون الغيوب الخمسة التي ذكرها الله تعالى في محكم كتابه أنه لا يعلمها أحد غيره بقوله: ﴿ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير﴾ (١٦٩).

ولكن ابن المبارك ينقل عنه قائلا:

«قلت للشيخ: (أى عبد العزيز الدباغ) رضى الله عنه: ان علماء الظاهر من المحدثين وغيرهم اختلفوا فى النبى ﷺ، هل كان يعلم الخمس المذكورات فى قوله: ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير، فقال رضى الله عنه وعن ساداتنا العلماء:

كيف يخفى أمر الخمس عليه والواحد من أهل التصرف من أمته الشريفة لا يمكنه التصرف إلا بمعرفة هذه الخمس» (١٧٠).

والجدير بالذكر أن هذا هو القائل:

«ما السموات السبع والأرضون السبع فى نظر العبد المؤمن إلا كحلقة ملقاة فى فلاة» (١٧١).

وأىضا: «ان الجنين اذا سقط من بطن أمه يراه العارف فى تلك الحالة إلى آخر عمره» (١٧٢).

(١٦٨) الأبريز للدباغ ص ١٥١ وما بعد.

(١٦٩) سورة لقمان الآية ٣٤.

(١٧٠) الأبريز ص ١٦٧.

(١٧١) أيضا ص ٢٤٢.

(١٧٢) أيضا ص ٢٧٤.

أما الرفاعي أحمد فنقلوا عنه أنه قال :

« ان العبد ما يزال يرتقى من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث، ثم ترتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق، فيطلعه على غيبه حتى لا تنبت شجرة، ولا تخضر ورقة إلا بنظره، ويتكلم هناك عن الله بكلام لا تسعه عقول الخلائق . . . وكان يقول: ان القلب اذا انجلى من حب الدنيا وشهوتها صار كالبلور، وأخبر صاحبه بما مضى وبما هوأت من أحوال الناس» (١٧٣).

ونقل ذلك الشعراني أيضا منه في طبقاته (١٧٤).

ونقلوا عن الشبلي أنه قال :

«لودبت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم أشعر بها أو لم أعلم بها لقلت انه مكمور بى» (١٧٥).

وهذا مع قول الله الجلى الصريح الواضح البين: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ (١٧٦).

ومع أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿ما أدري ما يفعل بى ولا بكم ان أتبع إلا ما يوحى إلى﴾ (١٧٧).

وقول الله عز وجل :

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين﴾ (١٧٨).

ولكن القوم عكس ذلك يقولون ما ألقى الشيطان اليهم من عقائد شيعية، ومعتقدات يهودية، وكان السحرة والكهان.

ولقد أدب الله تبارك وتعالى نبيه ونبيه وصفيه سيد البشر قائد النبيين والمرسلين

(١٧٣) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر ص ١٤٨.

(١٧٤) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ١٤٢.

(١٧٥) مجموع خطوط بالفاتيكان عربى رقم ١٢٤٢ ورقة ٥١ ب- ٥٢، أيضا الانسان الكامل للجلى ج ١

ص ١٢٢.

(١٧٦) سورة الأنعام الآية ٥٩.

(١٧٧) سورة الأحقاف الآية ٩.

(١٧٨) سورة هود الآية ٤٩.

ﷺ على جوابه لمن سألته عن أصحاب الكهف وعددهم ، رجاء بأن ينزل عليه الوحي ، ويخبر الله عز وجل عنهم ، والوحي كان ينزل ، وجبريل كان يأتي ، واتصاله كان قائماً بالسماء ، فقال مرسله ومنزل الوحي عليه :

﴿ لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا . الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً ﴾ (١٧٩).

وقبله أقرت الملائكة بقصور علمهم ، واعترفهم بعدم احاطتهم بملكوت السماء يوم قالوا : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ﴾ (١٨٠)

فأقرهم الله عز وجل على القصور وعدم المعرفة بالغيب بقوله : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (١٨١).

هذا وأما المنوفى الحسينى فينقل عن إبراهيم الدسوقي أنه كان يقول : « ان للأولياء الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما فى البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء ، وما فى جباه الانس والجان مما يقع لهم فى الدنيا والآخرة » (١٨٢).

وأما الشاذلى فنقلوا عنه : « من عبد الله باسمه الحى ودام عليه ، واستغرق فيه ليلاً ونهاراً شاهد حياة كل شيء ، وكوشف بسر الملك والملوك .

ومن عبد الله باسمه الأحد المحيى وأكثر منه ، ولا حد لأكثره ، شاهد حياة كل شيء ومحبيه .

ومن ذكرهم جميعاً صعدت روحه إلى الملأ الأعلى ، وصعدت روحه إلى العرش ، ليكتب عند الله من الكاملين الصديقين » (١٨٣).

وقال أفضل الدين :

(١٧٩) سورة الكهف الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(١٨٠) سورة البقرة الآية ٣٢ .

(١٨١) سورة البقرة الآية ٣٣ .

(١٨٢) جمهرة الأولياء للمنوفى الحسينى ص ٢٤٢ .

(١٨٣) أبو الحسن الشاذلى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٦١٤ .

«لا يعطى أحد القطبية حتى يعرف جميع عوالم هذه العروش والكراسى
والسموات والأرضين بأسمائهم وأنسابهم وأعمارهم وأعمالهم» (١٨٤).

ونقل الشعرانى عن ابراهيم المتبولى أنه قال :

«يرسم الوجود كله فى قلب الفقير (أى الصوفى) فيراه من قلبه . وايضاح ذلك
أن القلب اذا انجلى صار كالمرآة الكبيرة ، فاذا قابلها بالعالم العلوى والسفلى ارتسم
كله فيها» (١٨٥).

وروى أيضا عن على الخواص أنه قال :

«لا يكمل إيمان عبد حتى يصير الغيب عنده كالشهادة فى عدم الريب» (١٨٦).

ويقول محمد ضيف الله الجعلى السودانى :

«كشف الأولياء على قسمين : منهم من ينظر فى اللوح فانه لا يتغير ولا يتبدل
كسيدى على الخواص . ومنهم من ينظر فى ألواح المحو والاثبات ، وعدتها ثلاثمائة
وستون لوحا فانها تتغير وتتبدل ، فاذا أخبر الولي بكلام ولم يقع فلا ينكر عليه بأن
يقال : كذب ، بل يحمل على أنه نظر فى ألواح المحو والاثبات» (١٨٧).

فانظر هذه الخرافة المختلفة ما أشنعها وأقبح بها .

وأما ابن عربى ومدرسته فقد تكلموا فى مثل هذا كثيرا ، ولا يخلو كتاب من
كتبهم عن مثل هذه الخرافات والموبقات ، فيقول ابن عربى :

«فأما العلم اللدنى ، فمتعلقه الالهيات وما يؤدى إلى تحصيلها من الرحمة
الخاصة . وأما علم النور فظهر سلطانه فى الملاء الأعلى قبل وجود آدم بآلاف السنين من
أيام الرب .

وأما علم الجمع والتفرقة فهو البحر المحيط ، الذى اللوح المحفوظ جزء منه ،
ومنه يستفيد العقل الأول ، وجميع الملاء الأعلى منه يستمدون . وما ناله أحد من الأمم
سوى أولياء هذه الأمة . وتتنوع تجلياته فى صدورهم على ستة آلاف ومئتين .

(١٨٤) الأخلاق المتبوية للشعرانى ج ١ ص ٩٩ .

(١٨٥) أيضا ج ٣ ص ١٤٥ .

(١٨٦) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٥٦ .

(١٨٧) كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان لمحمد ضيف الله الجعلى

الفضلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ المكتبة الثقافية بيروت لبنان .

فمن الأولياء من حصل جميع هذه الأنواع، كأبى يزيد البسطامي، وسهل بن عبد الله، ومنهم من حصل بعضها» (١٨٨).

ويقول في إحدى رسائله:

«للأرواح الانسانية اذا صفت وزكت معارج في العالم العلوى المفارق وغير المفارق فينظر مناظر الروحانيات المفارقة، فترى مواقع نظرهم في أرواح الأفلاك ودورانها بها، فينزل مع حكم الأدوار وترسل طرفها في رقائق التنزيلات حتى ترى مساقط نجومها في قلوب العباد، فتعرف ما تحويه صدورهم وما تنطوى عليه ضمائرهم، وما تدل عليه حركاتهم . . . واذا توجهت الأسرار نحو قارئها بفناء وبقاء، وجمع وفرق سقطت عليها أنوار الحضرة الالهية من حيثها، لا من حيث الذات، فأشرقت أرض النفوس بين يديه فالتفت فعلم ما أدركه بصره وأخبر بالغيب وبالسرائر وبما تكنه الضمائر وما يجري في الليل والنهار» (١٨٩).

ويقول:

«من يكن الحق سمعه وبصره فكيف يخفى عليه شىء» (١٩٠).

وقال:

«يرتقى الولي إلى عالم الغيب فيشاهد اليمين ماسكة قلمها وهي تخطط في اللوح» (١٩١).

و: «من الصوفية من لا يزال عاكفا على اللوح، ومنهم من يشهده تارة تارة» (١٩٢).

ونقل ابن عربي في كتابه عن الجنيد أنه قال:

«العارف هو الذى ينطق عن سرِّك وأنت ساكت» (١٩٣).

ولقد بين في إحدى كتبه طريق اطلاع الصوفية على الغيب فقال:

(١٨٨) شرح المسائل الروحانية لابن عربي المنشور في كتاب ختم الولاية للترمذي الملقب بالحكيم ص ١٤٢، ١٤٣ ط المطبعة الكاثوليكية بيروت.

(١٩٩) كتاب التجليات لابن عربي ص ٢٢ من مجموعة رسائله ط حيدر آباد دكن الهند ١٣٦٧هـ.

(١٩٠) التدبيرات الالهية لابن عربي ص ١١٨ ط ليدن ١٣٣٦هـ.

(١٩١) مواقع النجوم لابن عربي ص ٨٢.

(١٩٢) أيضا ١٤٨.

(١٩٣) أيضا ١٤٩.

«الكشف والاطلاع على الغيب يكون بطريق التجلى ، اما بالتنزل أو بالعروج» (١٩٤).

ويقول أيضا:

«تجلى صورة العقل في ذات الخليفة، فتلوح له الأسرار والعلم المنقوشة فيه» (١٩٥).

فهذه هي آراء ابن عربي وأقواله ، صريحة في معناها ، جلية في مغزاها ، واضحة في مرادها ، لا غموض فيها ولا تعقيد ، ولا تحتاج إلى التبيين والتوضيح .

وأما تلميذه محمد بن اسحاق القونوي المتوفى ٦٧٣ هـ فيقول:

«ان الكمل ومن شاء الله من الأفراد أهل الاطلاع على اللوح المحفوظ ، بل وعلى المقام القلبي ، بل وعلى حضرة العلم الالهى ، فيشعرون بالمقدر كونه لسبق العلم بوقوعه» (١٩٦).

ويقول شهاب الدين السهروردي المقتول:

«الأنبياء والفضلاء المتألهون يتيسر لهم الاطلاع على المغيبات ، لأن نفوسهم قوية بالفطرة أو تتقوى بطرائقهم وعلومهم ، فينتقشون بالمغيبات ، لأن نفوسهم كالمرايا المصقولة تجلى فيها نقوش من الملكوت . فقد يسرى شبح إلى الحس المشترك ، يخاطبهم ألد مخاطبة وهو في أشرف صورة ، وربما يرون الغيب بالحس المشترك مشاهدة ، وربما يسمعون صوت هاتف ، أو يقرؤون من مسطور» (١٩٧).

وقال لسان الدين بن الخطيب في روضته:

«النفوس عند صفائها تشبه بالملأ الأعلى ، وتنتقش فيها أمثلة الكائنات المتعشقة فيه بنوع ما ، وتشاهد المحجوبات ، وتؤثر في العوالم السفلية» (١٩٨).

وبمثل ذلك يقول داؤد بن محمود القيصرى:

«إذا خلص الرجل ، وصفا وقته ، وطاب عيشه بالالتذاذ بما يجده في طريق

(١٩٤) انشاء الدوائر لابن عربي ص ٣٥ ط مطبعة بريل ليدن ١٣٣٦ هـ .

(١٩٥) التدويرات الالهية لابن عربي ص ١٥٩ ، ومثله في ص ١٧١ .

(١٩٦) رسالة النصوص لمحمد بن اسحاق القونوي ص ٤٠ ، ٤١ ط مشهد ايران .

(١٩٧) الألواح العبادية للسهروردي ص ٦٤ المطبوع ضمن رسائله الثلاثة باسمه رساله شي اشراق بتحقيق

نجف قلى الايراني ط مركز تحقيقات فارسية ايران باكستان .

(١٩٨) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٤٦٣ بتحقيق عبد القادر أحمد عطاء دار الفكر العربى .

المحبوب - بصر باطنه، فيظهر له لوامع أنوار الغيب، وينفتح له باب الملكوت، ويلوح منه لوايح» (١٩٩).

والترمذى الملقب بالحكيم يقول: ان الأولياء لهم علامات وعلوم، وأما ما يعرفونه من العلوم فهي «علم البدء، وعلم الميثاق، وعلم المقادير، وعلم الحروف، فهذه أصول الحكمة، وهى الحكمة العلمية، وإنما يظهر هذا العلم عن كبراء الأولياء ويقبله من له حظ فى الولاية» (٢٠٠).

ويقول الجيلى عبد الكريم:

«كل واحد من الأفراد والأقطاب له التصرف فى جميع المملكة الوجودية، ويعلم كل واحد منهم ما اختلج فى الليل والنهار فضلاً عن لغات الطيور.

وقد قال الشبلى رحمه الله تعالى: لودبت نملة سوداء على صخرة صماء فى ليلة ظلماء ولم أسمعها لقلت: انى مخدوع أو ممكور بى.

وقال غيره: لا أقول: ولم أشعر بها لأنه لا يتهياً لها ان تدب إلا بقوتى وأنا محرکها» (٢٠١).

هذا ومثل هذا أكثر من أن يسعه كتاب، أو تشمله رسالة، ولقد تأتى حكايات المتصوفة المتضمنة اخبارهم بالغيب، واحاطتهم بجميع علوم الكون وأحواله، واطلاعهم على ما كان وما يكون فى محله وفى باب مستقل إن شاء الله.

(١٩٩) شرح مقدمة التائية الكبرى لداود القيصرى مخطوط ص ١٠٤ نقلا عن كتاب ختم الأولياء ص ٤٩٦.

(٢٠٠) ختم الولاية للحكيم الترمذى ص ٣٦٢.

(٢٠١) الانسان الكامل للجيلى ص ١٢٢.

الْمَسَاوَاةُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْوَلِيِّ

وأما تسوية الصوفية بين الولاية والنبوة، بل وتفضيلهم الولاية على النبوة والرسالة، والأولياء على أنبياء الله ورسله، مثل الشيعة، فتدل عليه عبارات القوم وتصريحاتهم، فيقول لسان الدين بن الخطيب:

«الولاية: أن يتولى الله الواصل إلى حضر قدسه، بكثير مما تولى به النبي، من حفظ وتوفيق، وتمكين واستخلاف وتصريف.

فالولي يساوي النبي في أمور، منها: العلم من غير طريق العلم الكسبي، والفعل بمجرد الهمة، فيما لم تجربه العادة أن يفعل إلا بالجوارح والجسوم، مما لا قدرة عليه لعالم الجسوم.

كان الفضيل بن عياض، على جبل من جبال منى، فقال: لو أن وليا من أولياء الله أمر هذا الجبل أن يمد لمد، فتحرك الجبل، فقال: أسكن. لم أدرك بهذا، فسكن الجبل.

ويفعل بالهمة في عالم الخيال وفي الحس، فإنه يسمع ويرى، ما لا يرى ولا يسمع وهو بين الناس.

وفارق الولي النبي في المخاطبة الالهية، والمعارج، فإنها يجتمعان في الأصول وهي المقامات، إلا أن النبي يعرج بالنور الأصلي، والولي يعرج بما يفيض من ذلك النور الأصلي، وإن جمعهما مقام مختلفا بالوحدة في كل مقام، من فناء وبقاء، وجمع وفرق. والولي يأخذ المواهب بواسطة روحانية نبيه، ومن مقامه يشهد، إلا ما كان من الأولياء المحمديين، فإنه لما كان نبيهم صلوات الله وسلامه عليه جامعا لمقامات الأنبياء (أورثهم الله مقامات الأنبياء)، وأوصل إليهم أنوارهم، من نور نبيهم الوارث، وبوساطته، فإنه هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح.

ثم شاركت الأولياء الأنبياء في الأخذ عنه، وإليه الإشارة بقوله: «أولياء أمتي أنبياء من دونهم». فقد يرث ولي من الأولياء آدم، أو إدريس، أو إسحاق، أو إسماعيل، أو يوسف، أو موسى، أو عيسى، لكن لا يتوصل إلى نوره ولا حاله إلا من

محمد صلوات الله عليه وعليهم وسلامه، إلا القطب وحده، فإنه على قلب محمد ﷺ (ولمثل هذا المقام الكريم فليعمل العاملون) «(٢٠٢)».

و«ان الأولياء لهم أربعة مقامات: الأول مقام خلافة النبوة، والثاني مقام خلافة الرسالة، والثالث مقام خلافة أولى العزم، والرابع مقام خلافة أولى الاصطفاء».

فمقام خلافة النبوة للعلماء.

ومقام خلافة الرسالة للأبدال.

ومقام خلافة أولى العزم للأوتاد.

ومقام خلافة الاصطفاء للأقطاب.

فمن الأولياء من يقوم في عالم مقام الأنبياء، ومنهم من يقوم في عالم مقام الرسل، ومنهم من يقوم في عالم مقام أولى العزم، ومنهم من يقوم في عالم مقام أولى الاصطفاء «(٢٠٣)».

وعلى ذلك قالوا:

«الولاية ظل النبوة، والنبوة ظل الالهية... فالأنبياء عليهم السلام مصادر الحق، والأولياء مظاهر الصدق... والأولياء خصوا بإشارات نبوية، وإطلاعات حقيقية، وأرواح نورية، وأسرار قدسية، وأنفاس روحانية، ومشاهدات أزلية» «(٢٠٤)».

وبمثل هذا قال الكمخشخاوى في كتابه جامع أصول الأولياء «(٢٠٥)».

وآخر قال بوضوح أكثر:

«ما قيل في النبي يقال في الولي» «(٢٠٦)».

وكذب على رسول الله ﷺ أنه حكى عن الله عز وجل أنه قال:
«أولئك كلامهم كلام الأنبياء» «(٢٠٧)».

(٢٠٢) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٢٠٣) جامع الأصول في الأولياء للكمخشخاوى ص ٥ ط المطبعة الوهبية طرابلس ١٣٩٨ هـ.

(٢٠٤) الفتح المبين فيما يتعلق بترىاق المحيين لأبى الظفر ظهير الدين القادرى ص ٥٢ ط المطبعة الخيرية مصر الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ.

(٢٠٥) انظر ص ٧٠ ط المطبعة الوهبية طرابلس الشام ١٢٩٨ هـ.

(٢٠٦) الفتوحات الالهية لابن عجيبة الحسنى ص ٢٦٤ ط عالم الفكر القاهرة ١٩٨٣ م.

(٢٠٧) أيضا ص ١١٦.

تَفْصِيلُ الْوَلِيِّ عَلَى النَّبِيِّ

ولم يقتصر القوم على مثل هذه السخافات والأباطيل، بل زادوا في غلوائهم حيث فضلوا الولاية على النبوة والرسالة، والأولياء على الأنبياء والمرسلين، فقالوا: «خضنا بحورا وقفت الأنبياء بسواحلها» (٢٠٨).

و«معاشر الأنبياء، أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوه» (٢٠٩).

ونقلوا عن البسطامي أنه قال:

«تالله ان لوائى، أعظم من لواء محمد ﷺ، لوائى من نور تحته الجان والجن والانس، كلهم من النبيين» (٢١٠).

وهذا ما صرح به بعضهم:

«مقام النبوة فى برزخ فوق الرسول ودون الولي» (٢١١).

لأن «الولاية: هى الفلك الأقصى، من سبح فيه اطلع، ومن اطلع علم، ومن علم تحول فى صورة ما علم. فذلك الولي المجهول الذى لا يعرف، والنكرة التى لا تتعرف، لا يتقيد بصورة، ولا تعرف له سريرة، يلبس لكل حالة لبوسها، أما نعيمها وأما بؤسها.

يوماً يصان اذا لاقيت ذايمن وإن لقيت معديا فعدنان
أمعة، لما فى فلكه من السعة» (٢١٢).

و«ان الولاية هى المحيطة العامة، وهى الدائرة الكبرى، فمن حكمها أن يتولى الله من شاء من عباده بنبوة وهى من أحكام الولاية، وقد يتولاه بالرسالة وهى

(٢٠٨) الابريز للدباغ ص ٢٧٦ نقلا عن أبى يزيد البسطامي، أيضا جمهرة الأولياء للمنوفى ج ١ ص ٢٦٦، طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٦، الفتوحات الالهية لابن عجيبة ص ٢٦١، كذلك الانسان الكامل للجىلى نقلا عن أبى الغيث ج ١ ص ١٢٤.

(٢٠٩) الانسان الكامل للجىلى ج ١ ص ١٢٤، كذلك الجواهر والدرر ص ٢٨٦ بهامش الابريز، الجواب المستقيم لابن عربى ص ٢٤٧ نقلا عن الجىلى.

(٢١٠) لطائف المنن والأخلاق للشعرانى ج ١ ص ١٢٥، أيضا شرح شطحيات (فارسي) روزبهان بقلى شيرازى ص ١٣٢ بتصحيح هنرى كرين ط طهران ١٩٨١ م.

(٢١١) انظر طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٨ ط دار العلم للجميع.

(٢١٢) كتاب التجليات ص ٢٠ من رسائل ابن عربى ط الهند.

من أحكام الولاية أيضا. فكل رسول لابد أن يكون نبيا، وكل نبي لابد أن يكون وليا، فكل رسول لابد أن يكون وليا. فالرسالة بخصوص مقام في الولاية. والرسالة في الملائكة دنيا وآخرة، لأنهم سفراء الحق لبعضهم. . . والرسالة في البشر لا تكون إلا في الدنيا، وينقطع حكمها في الآخرة. وكذلك تنقطع في الآخرة بعد دخول الجنة والنار نبوة التشريع، لا النبوة العامة.

وأصل الرسالة في الأسماء الالهية. وحقيقة الرسالة ابلاغ كلام من متكلم إلى سامع. فهي حال لا مقام، ولا بقاء لها بعد انقضاء التبليغ، وهي تتجدد» (٢١٣).

بخلاف الولاية فانها لا تنقطع أبدا، ولا تحدّ، لا بالزمان ولا بالمكان، ولها الانبء العام «والله لم يتسمّ بنبي ولا رسول، وتسمّى بالوليّ، واتصف بهذا الاسم، فقال: الله وليّ الذين آمنوا، وقال: هو الوليّ الحميد، وهذا الاسم باق جار على عباد الله دنيا وآخرة» (٢١٤).

وان الوليّ يعلم علمين: علم الشريعة، وعلم الحقيقة، أى الظاهر والباطن، والتنزيل والتأويل، حيث أن الرسول من حيث هو رسول ليس له علم إلا بالظاهر والتنزيل والشريعة «فاذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو وليّ عارف، ولهذا مقامه من حيث هو عارف أتمّ وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع» (٢١٥).

وان النبي والرسول يستمدّ بالعلم والمعرفة من الملك الذى يبلغه الوحي الالهى بواسطته، ولا يمكنه الأخذ من الله مباشرة، والوليّ يستمد المعرفة من حيث يأخذها الملك الذى يؤدى بدوره الى الأنبياء والرسل «فمرجع الرسول والنبي المشرع إلى الولاية والعلم» (٢١٦).

فلذلك قال ابن عربى بصراحة لا تحتل التأويل :

«وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسل الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الوليّ الخاتم، حتى أن الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من

(٢١٣) الفتوحات المكية لابن عربى ج ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢١٤) فصوص الحكم لابن عربى بتعليقات الدكتور أبى العلاء العفيفى ج ١ ص ١٣٥ ط دار الكتاب العربى

بيروت.

(٢١٥) أيضا فصّ حكمة قدرية في كلمة عزيرية ص ١٣٥.

(٢١٦) أيضا الفصّ العزيرى.

مشكاة خاتم الأولياء : فإن الرسالة والنبوة - أعني نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون ، من كونهم أولياء ، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى . . . لما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن وقد كُمِّلَ سوى موضع لبنة ، فكان ﷺ تلك اللبنة . غير أنه ﷺ لا يراها كما قال لبنة واحدة . وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثله به رسول الله ﷺ ، ويرى في الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب وفضة . فيرى اللبتين اللتين تنقص الحائط عنهما وتكمل بهما ، لبنة ذهب ولبنة فضة ، فلا بد أن يرى نفسه تنطبق في موضع تينك اللبتين ، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبتين . فيكمل الحائط . والسبب الموجب لكونه رآها لبتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر وهو موضع اللبنة الفضة ، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول . فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع بكل شيء . فكل نبي من لدن آدم إلى آخرني ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين ، وإن تأخر وجود طينته ، فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله ﷺ : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » . وغيره من الأنبياء ما كان نبياً إلا حين بُعث ، وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين ، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية في الاتصاف بها من كون الله تعالى تسمّى « بالولي الحميد » . خاتم الرسل من حيث ولايته ، نسبتها مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه ، فإنه الولي الرسول النبي . وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب » (٢١٧) .

ولا أدري كيف يدافع من يدافع عن ابن عربي بأنه لا يفضل الولي على النبي ، بعد هذه التصريحات كلها ؟ حيث يجعل خاتم الأولياء منبع العلوم ، ومصدر الفيض لجميع الأنبياء والرسل ، وأنهم لا يستمدون إلا منه ، ولا يستقون إلا من ذلك

المنهل والمورد، ولا يستضيئون إلا من مشكاته، وهذا الفيض الشيثي والعزيرى نص في القضية.

ولذلك ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية في رسائله بشدة عليه، وعلى من نهج منهجه وسلك مسلكه، في رسائله وكتبه، ونسب كلامه إلى الكفر الذى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا (٢١٨).

وقال شيخ الإسلام في فتاواه:

«وكذا لفظ «خاتم الأولياء» لفظ باطل لا أصل له، وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعى انه خاتم الأولياء: كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعى انه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا؛ فان خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء. فان أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن بقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم عمر: اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما» (٢١٩).

وقبل أن نورد نصوصاً أخرى من القوم ممن خلف ابن عربي في مثل هذه المقولات وسبقوه نوّد أن نلفت أنظار القراء والباحثين إلى أن خاتم الأولياء الذى صعد وارتقى تلك المنزلة الكبرى، وحاز ذلك المنصب العظيم حتى ازداد على أنبياء الله ورسله، لم يكن عند ابن عربي إلا هو نفسه كما يقول في فتوحاته:

«أنا ختم الولاية دون شك
لورثي الهاشمى مع المسيح
كما أنى أبو بكر عتيق

(٢١٨) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ج ٤ ص ٥٧ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢١٩) فتاوى شيخ الإسلام ج ١١ ص ٤٤٤ جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه.

أجاهل كلّ ذى جسم وروح
 بأرواح مثقفة طوال
 وترجمة بقرآن فصيح
 أشدّ على كتيبة كل عقل
 تنازعنى على الوحي الصريح
 لى الورع الذى يسمواعتلاء
 على الأحوال بالنبأ الصحيح
 وساعدنى عليه رجال صدق
 من الورعين من أهل الفتوح
 يوالون الوجوب وكلّ ندب
 ويستثنون سلطنة المييح» (٢٢٠)

وهناك تصريحات أخرى منه ومن أتباعه، نذكرها في ترجمته في باب مستقل في الجزء الثانى من هذا الكتاب، تحت تراجم كبراء المتصوفين - إن شاء الله الرحمان .
 وأما الحكيم الترمذى الذى منه أخذ ابن عربى تلك الفكرة في أخذ النبى العلم والمعرفة من الملك، وأخذ الولّى بدون واسطة، فيقول في جواب سؤال : ما الفرق بين النبوة والولاية ؟ :

«الفرق بين النبوة والولاية أن النبوة كلام يفصل من الله وحيا، ومعه روح من الله فيقبضى الوحي ويختم بالروح . . . والولاية لمن ولى الله حديثه على طريق أخرى، فأوصله إليه فله الحديث، ويفصل ذلك الحديث من الله عز وجل، على لسان الحق معه السكينة، تتلقاه السكينة التى فى قلب المحدث، فيقبله ويسكن إليه» (٣٢١).

ثم يذكر خاتم الأولياء فيقول :

«لما قبض الله عز وجل نبيه ﷺ صير في أمته أربعين صديقا بهم تقوم الأرض، وهم آل بيته، فكلما مات واحد منهم خلفه من يقوم مقامه، حتى اذا انقضى عددهم وأتى وقت زوال الدنيا ابتعث الله وليا اصطفاه واجتباها، وقربها وأدناها، وأعطاه ما أعطى الأولياء، وخصه بخاتم الولاية، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر

(٢٢٠) الفتوحات المكية لابن عربى ج ٤ الباب الثالث والأربعون ص ٧١ بتحقيق عثمان إبراهيم يحى مذكور

ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م.

(٢٢١) كتاب ختم الولاية الفصل العاشر علامات الأولياء ص ٣٤٦، ٣٤٧.

الأولياء، فيوجد عنده بذلك الختم صدق الولاية على سبيل ما وجد عند محمد ﷺ من صدق النبوة فلم ينله العدو، ولا وجدت النفس إليه سبيلا إلى الأخذ بحظها من الولاية.

فاذا برز الأولياء يوم القيامة واقتضوا صدق الولاية والعبودية وجد الوفاء عند هذا الذى ختم الولاية تماما، فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم، وكان شفيعهم يوم القيامة، فهو سيدهم، ساد الأولياء، كما ساد محمد ﷺ الأنبياء، فينصب له مقام الشفاعة، ويشئى على الله تعالى ثناء ومحمده بمحامد يقرّ الأولياء بفضلهم عليهم فى العلم بالله تعالى.

فلم يزل هذا الولي مذكورا فى البدء، أولا فى الذكر، وأولا فى العلم، ثم هو الأول فى المشيئة، ثم هو الأول فى اللوح المحفوظ، ثم الأول فى الميثاق، ثم الأول فى المحشر، ثم الأول فى الجوار، ثم الأول فى الخطاب، ثم الأول فى الوفاة، ثم الأول فى الشفاعة، ثم الأول فى دخول الدار، ثم الأول فى الزيارة، فهو فى كل مكان أول الأولياء» (٢٢٢).

وقد سئل : أين مقامه؟ فقال :

«فى أعلى منازل الأولياء، فى ملك الفردانية، وقد انفراد فى وحدانيته، ومناجاته كفاحا فى مجالس الملك، وهداياه من خزائن السعى.

قال : وما خزائن السعى؟

قال : انما هى ثلاث خزائن : المنن للأولياء، وخزائن السعى لهذا الامام القائد، وخزائن القرب للأنبياء عليهم السلام، فهذا (خاتم الأولياء) مقامه من خزائن المنن، ومتناوله من خزائن القرب، فهو فى السعى أبدا، فمرتبه هنا، ومتناوله من خزائن الأنبياء عليهم السلام، قد انكشفت له الغطاء عن مقام الأنبياء ومراتبهم وتحفهم» (٢٢٣).

ويقول أيضا :

«وقد يكون فى الأولياء من هو أرفع درجة، وذلك عبد قد ولى الله استعماله، فهو فى قبضته يتقلب، به ينطق، وبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يعقل، شهره فى

(٢٢٢) ختم الولاية للترمذى الحكيم الفصل التاسع ص ٣٤٤، ٣٤٥.

(٢٢٣) أيضا ص ٣٦٧.

أرضه، وجعله امام خلقه، وصاحب لواء الأولياء، وأمان أهل الأرض، ومنظر أهل السماء، وريحانة الجنان، وخاصة الله، وموضع نظره، ومعدن سره، وسوطه في أرضه، يؤدب به خلقه، ويحيي القلوب الميتة برؤيته، ويرد الخلق إلى طريقه، وينعش به حقوقه. - مفتاح الهدى، وسراج الأرض، وأمين صحيفة الأولياء، وقائدهم، والقائم بالثناء على ربه، بين يدي رسول الله، ﷺ! - يباهي به الرسول في ذلك الموقف، وينوه الله باسمه في ذلك المقام، ويقر عين رسول الله، ﷺ! قد أخذ الله بقلبه أيام الدنيا، ونحله حكمته العليا، وأهدى إليه توحيده، ونزه طريقه عن رؤية النفس، وظل الهوى. - وأثمنه على صحيفة الأولياء، وعرفه مقاماتهم، وأطلعهم على منازلهم. فهو سيد النجباء، وصالح الحكماء، وشفاء الادواء، وإمام الاطباء. كلامه قيد القلوب، ورؤيته شفاء النفوس، وإقباله قهر الالهواء، وقربه طهر الادناس. - فهو ربيع يزهر نوره أبداً، وخريف يجنى ثماره دائماً، وكهف يلجأ إليه، ومعدن يؤمل ما لديه، وفصل بين الحق والباطل. وهو الصديق والفاروق والولي والعارف والمحدث. هو واحد الله في أرضه» (٢٢٤).

وأما ما قاله المتأخرون فهو أظهر وأصرح، فيقول داود القيصرى:
«فالنبوة دائرة تامة مشتملة على دوائر متباينة متفاوتة في الحيطه، وقد علمت أن الظاهر لا يأخذ التأيد والقوة والقدرة والتصرف والعلوم، وجميع ما يفيض من الحق تعالى عليه إلا بالباطن: وهو مقام الولاية، المأخوذة من الولي، وهو القرب، والولي بمعنى الحبيب أيضاً منه.

فباطن النبوة الولاية، وهى تنقسم بالعامة والخاصة. فالأولى تشتمل على كل من آمن بالله وعمل صالحاً، على حسب مراتبهم كما قال الله تعالى: الله وليّ الذين آمنوا.

والثانية تشتمل على الواصلين من السالكين فقط، عند فنائهم فيه ويقائهم به في الولاية الخاصة، عبارة عن فناء العبد في الحق. فالولى هو الفانى فيه الباقي به. . . وهذا الفناء موجب لأن يتعين العبد بتعينات حقانية وصفات ربانية مرة أخرى، وهو البقاء بالحق، فلا يرتفع التعيين منه مطلقاً، وهذا المقام دائرة أتم وأكبر من دائرة النبوة، لذلك انختمت النبوة، والولاية دائمة، وجعل الولي، اسماً من أسماء الله

تعالى دون النبي ، ولما كانت الولاية أكبر حيلة من النبوة وباطنها لها ، شملت الأنبياء والأولياء . فالأنبياء هم أولياء قانون بالحق ، باقون به ، منبثون عن الغيب وأسراره . . . ولا نهاية لكمال الولاية ، فمراتب الأولياء غير متناهية» (٢٢٥) .

هذا ومثل هذا كثير عنده .

وهناك تلميذ آخر لابن عربي شيعي ، فقال مثل ما قاله القيصري :
« وفي الحقيقة : الولاية هي باطن النبوة ، والفرق بين النبي والرسول والولي أن النبي والرسول لهما التصرف في الخلق بحسب الظاهر والشرعية ، والولي له التصرف فيهم بحسب الباطن والحقيقة ومن هذا قالوا : النبوة تنقطع ، والولاية لا تنقطع أبدا» (٢٢٦) .

وقال النسفي عزيز الدين بن محمد المتوفى ٦٧١ هـ في كتابه (زبدة الحقائق) :
« ان طائفة من الصوفية ذهبت إلى تفضيل الولاية على النبوة ، وقالوا : ان النبوة باطنها الولاية ، وأما الولاية فباطنها عالم الاله» (٢٢٧) .

هذا ما ذكره في كتابه (زبدة الحقائق) ، وبمثل ذلك ذكر في كتابه (الانسان الكامل) (٢٢٨) .

وأما ما قاله في كتابه (كشف الحقائق) فهو :
« أيها العارف ، ان العارفين عند أهل الوحدة ثلاثة طوائف : حكماء وأنبياء وأولياء ، فالحكيم من يكون عارفا بطبائع الأشياء ، والنبي من يكون عارفا بطبائع الأشياء وخواصها ، والولي من يكون عارفا بطبائع الأشياء وخواصها وحقائقها ، فظهر أنه لا يوجد في العالم أحد يضاهي الولي في العلم والقدرة ، لأن الله له تجليان : تجلي عام ، وتجلي خاص .

فالتجلي العام عبارة عن أفراد الموجودات ، والتجلي الخاص عبارة عن الولي ، وهذا هو معنى قول الله عز وجل : فالله هو الولي وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير .

(٢٢٥) مقدمة شرح الفصوص للقيصري مخطوط ص ٨٦ وما بعد المنقول من كتاب ختم الأولياء ص ٤٩١ .

(٢٢٦) كتاب نص النصوص لحيدر الأملي مخطوط ص ٩١ وما بعد .

(٢٢٧) زيد الحقائق للنسفي طبعة فارسية ص ٥٩ بتصحيح تعليق حق وردى ناصري ط ايران ١٤٠٥ هجرى .

قمري .

(٢٢٨) انظر ص ١١٠ .

قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علماً» (٢٢٩).

ويقول في موضع آخر من كتابه:

«المعرفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول معرفة طبيعة كل شيء، وهذه رتبة الحكماء، والثاني معرفة خاصية كل شيء، وهذه رتبة الأنبياء، والثالث معرفة حقيقة كل شيء، وهذه رتبة الأولياء، واعلم أن أهل الوحدة فضلوا النبي على الحكيم، والولي على النبي، فإن كل نبي حكيم، وكل ولي نبي، وليس كل نبي ولياً» (٢٣٠).

وأما صوفي آخر سعد الدين حمويه فيقول في مثنيّه:

«واو الولاية أقرب إلى الحضرة الالهية من نون النبوة، فلأجل هذا التقرب تعتبر الولاية أفضل من النبوة، ثم يبين ذلك في أبياته قائلا:

الحرف الأول من كلمة الولاية هو الواو
والواو في وسطها ألف أيها المريد
والحرف الأول من كلمة النبوة هو النون
والنون في وسطها حرف الواو
فاذن الولي قلب النبي وروحه
وروح الولي هو ذات الله ونفسه» (٢٣١)

فهذه هي عقيدة المتصوفة في الأولياء، والولاية، عين تلك العقيدة الشيعية الشنيعة التي ذكرناها من قبل، وهي تتضمن تفضيل الأولياء على أنبياء الله ورسله، والبعض الآخر كتموها عملاً بالتقية التي لم يأخذوها أيضاً إلا من الشيعة كما سنذكرها.

فإن الولي عندهم فوق الرسول والنبي، ودون الله قليلاً، وأحياناً يحذفون هذا الفرق البسيط أيضاً بينه وبين الله، ويجعلونه ذات الله وعينه، سواء اتحد به، أو ذلك اتحد به، وعلى ذلك قالوا:

«لو كشف عن حقيقة الولي لعبد» (٢٣٢).

(٢٢٩) كشف الحقائق لعزير الدين النسفي بتصحيح وتعليق دكتور أحمد مهدوي طبعه فارسية ص ٥٩ ط طهران

١٣٥٩ هجري قمرى.

(٢٣٠) كشف الحقائق للنسفي طبعه فارسية ص ١٠٢.

(٢٣١) انظر جهل مجلس لعلاؤ الدين سمناني بتصحيح عبد الرافع حقيقت ص ٤٥، ٤٦.

(٢٣٢) غيث المواهب العلية للنفرى الرندى ج ١ ص ٢٣٥ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

إِجْرَاءُ النَّبُوءَةِ

وبهذه المناسبة نريد أن نذكر ههنا عقيدة صوفية خبيثة أخرى، أخذوها من بعض فرق الشيعة، من الخطابية، والخرمية، والمنصورية وغيرها بأن رسالة الله لا تنقطع أبداً، وأن النبوة جارية، ويأتى نبيّ حيناً بعد حين (٢٣٣).

وهم بدورهم أخذوها من اليهودية مثل العقائد الأخرى كما ذكره وهوزن: «ان النبي الصادق واحد يعود أبداً» (٢٣٤).

ومعلوم أن هذه العقيدة لم تعتنقها فرق الشيعة إلا للقضاء على الإسلام وهدم كيانه، وفتح الأبواب على الدجالين والكذابين لترويج نبواتهم الباطلة ودعائهم الكاذبة، وإخراج المسلمين عن حظيرة الاسلام، وإدخالهم في بؤرة الكفر والارتداد، وإبعادهم عن محمد الصادق المصدوق الأمين عليه الصلاة والسلام وعن شريعته السائرة السمحاء، ونشر الفتن والفتن والفتن بينهم، وفكّ جمعيّتهم، وتشيت شملهم، وتفرق كلمتهم، وتمزيق جماعتهم، والقضاء على شأنهم وشوكتهم، وسدّ سيل النور كي لا يعمّ المعمورة، ويشمل الكون، ووضع العراقيل في طريقه، مخالفين النصوص الصريحة المعارضة في كلام الله المحكم، وحديث رسول الله الثابت عنه عليه الصلاة والسلام مثل قوله جل وعلا:

﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (٣٣٥).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (٣٣٦).

وقوله جلّ من قائل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٢٣٧).

(٢٣٣) انظر لذلك فرق الشيعة للنسويختي ص ٧٠ وما بعد، كذلك كتاب المقالات والفرق للأشعري القمي، اشيعي ص ٤٦ و ٥٤ و ٦٤، وانظر كذلك كتب السنة من مقالات الاسلاميين للأشعري، والفرق بين الفرق للبغدادي والملل والنحل للشهرستاني وغيرها.

(٢٣٤) انظر «الأحزاب المعارضة الدينية السياسية في صدر الاسلام لوهورن ص ٢٤٩ ترجمة عربية للبديوي.

(٢٣٥) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

(٢٣٦) سورة المائدة الآية ٣.

(٢٣٧) سورة سبأ الآية ٢٨.

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٣٨).

وقول رسول الله ﷺ: «أنا خاتم النبيين لا نبيّ بعدى» (٢٣٩).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إني آخر الأنبياء ومسجدي آخر المساجد» (٢٤٠).

وقوله ﷺ: «مثلى ومثل الأنبياء كمثّل قصر أحسن بنيانه، ترك منه موضع لبنة، فطاف به النظّار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة، فكنت أنا سدّدت موضع اللبنة، ختم بي النبيان، وختم بي الرسل» (٢٤١).

وغيرها من الأحاديث الكثيرة الكثيرة في هذا المعنى ولكن القوم يقولون عكس ذلك، معرضين عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ، متبعين غير سبيل المؤمنين، فيقول شيخهم الأكبر متفوّها الكفر الصريح:

«ويجمع النبوة كلها أمّ الكتاب، ومفتاحها: بسم الله الرحمن الرحيم. فالنبوة سارية إلى يوم القيامة في الخلق. وإن كان التشريع قد انقطع، فالتشريع جزء من أجزاء النبوة، فانه يستحيل أن ينقطع خبر الله وأخباره من العالم، اذ لو انقطع لم يبق للعالم غذاء يتغذى به في بقاء وجوده: قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا، : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، وقد أخبر الله أنه ما من شيء يريد إيجاده إلا يقول له: كن، فهذه كلمات الله لا تنقطع، وهى النداء العام لجميع الموجودات. فهذا جزء واحد من أجزاء النبوة لا ينفد، فأين أنت من باقى الأجزاء التى لها» (٢٤٢).

فهذه هى عقيدة القوم بلسان قديسهم، وفى فتوحاته التى يقولون فيها، وفيه:

فتوحات شيخى غادة مدنية	كستها نفيسات العلوم ملابسا
فلا عجب لو تشتهىها نفوسنا	وأبجائها أبدت إلينا نفائسا
فلله درّ الشيخ أكبر عصره	بأنفاسه لازال يحىي المجالسا

(٢٣٨) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٢٣٩) أخرجه أبو داود والترمذى.

(٢٤٠) أخرجه مسلم.

(٢٤١) متفق عليه.

(٢٤٢) الفتوحات المكية لابن عربى ج ٢ ص ٩٠.

وهذه العقيدة هي التي شجعت الكثيرين من المتنبيين والكذابين على الله أن يدعوا النبوة بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه، مثل الغلام القادياني الذي استشهد على تنبئه بكلام ابن عربي هذا (٢٤٣)، وغيره من الدجاللة الآخرين، مع تصريح رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون، كلهم يزعم أنه رسول الله، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدى» (٢٤٤).

ولكن ابن عربي يقول معاكسا لذلك في فتوحاته: «ويتضمن هذا الباب المسائل التي لا يعلمها إلا الأكابر من عباد الله، الذي هم في زمانهم بمنزلة الأنبياء في زمان النبوة، وهي النبوة العامة.

فان النبوة التي انقطعت بوجود رسول الله ﷺ إنما هي نبوة التشريع لا مقامها فلا شرع يكون ناسخا لشرعه ﷺ، ولا يزيد في حكمه شرعا آخر. وهذا معنى قوله ﷺ: ان الرسالة والنبوة انقطعت، فلا رسول بعدى ولا نبي: أى لا نبي بعدى يكون على شرع يكون مخالفا لشرعى، بل اذا كان، يكون تحت حكم شريعتي... فهذا هو الذي انقطع وسدّ بابه، لا مقام النبوة» (٢٤٥).

فهل يقول المتنبيون الدجالون الكذابون غير هذا؟

فانهم لا يلتقطون إلا من موائد الصوفية وخوانها، ولا يستوحون إلا من أمثال شيخهم الأكبر.

ويقول ابن عربي كذلك مجيبا على سؤال الترمذى الملقب بالحكيم: أين مقام الأنبياء من مقام الأولياء؟ يجيب على هذا ويقول:

«وان كان سؤاله عن مقام الأنبياء من الأولياء، أى أنبياء الأولياء - وهي النبوة التي قلنا انها لم تنقطع، فانها ليست نبوة الشرائع - وكذلك في السؤال عن مقام الرسل، الذين هم أنبياء - فلنقل في جوابه: ان أنبياء الأولياء، مقامهم من الحضرات الالهية الفردانية؛ والاسم الالهي الذي تعبدهم (هو) الفرد؛ وهم المسمون الافراد. فهذا هو مقام نبوة الولاية، لا نبوة الشرائع. واما مقام الرسل، الذين هم أنبياء - فهم الذين لهم خصائص على ما تعبدوا به اتباعهم. كمحمد ﷺ، فيما قيل له: «خالصة

(٢٤٣) انظر جريدة الحكم القاديانية الصادرة ١٠ ابريل / ١٩٣٠م المنقول من كتابنا (القاديانية دراسات وتحليل) ص ٢٨٦ الطبعة العشرون ط ادارة ترجمان السنة باكستان.

(٢٤٤) رواه أبو داود والترمذى.

(٢٤٥) الفتوحات المكية لابن عربي ج ٢ ص ٣.

لك من دون المؤمنين» في النكاح بالهبة . فمن الرسل من لهم خصائص على أمتهم . ومنهم من لا يختصه الله بشيء دون أمته .

وكذلك الأولياء : فيهم أنبياء ، أي خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي ، من العلم الالهي . ويكون حكمهم من الله ، فيما أخبرهم به ، حكم الملائكة . ولهذا قال (تعالى) في نبي الشرائع : « ما لم تحط به خبراً » ، أي ما هو ذوقك ، ياموسى ! مع كونه كلم الله . فخرق (الخض) السفينة ، وقتل الغلام حكماً ، وأقام الجدار - مكارم خلق - عن حكم أمر الالهي ، (هذا كله) كخسف البلاد على يدي جبريل ومن كان من الملائكة . ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمين من الملائكة ، وأنبيأؤ هم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء» (٢٤٦) .

هذا ويقول الآخرون مثل ما قاله ابن عربي ، فيقول الفرغانى :
« أما الولاية فهي التصرف في الخلق بالحق ، وليست في الحقيقة إلا باطن النبوة ، لأن النبوة ظاهرة الأنبياء ، وباطنها التصرف في النفوس باجراء الأحكام عليها .
والنبوة مختومة من حيث الأنبياء ، اذ لا نبى بعد محمد ﷺ ، دائمة من حيث الولاية والتصرف» (٢٤٧) .

وأما السهروردى المقتول فيقول :
« ان اتفق في الوقت متوغل في التأله والبحث فله الرياسة ، وان لم يتفق فالمتوغل في التأله المتوسط في البحث . وان لم يتفق فالحكيم المتوغل في التأله عديم البحث ، وهو خليفة الله .
ولا تخلو الأرض من متوغل في التأله أبداً» (٢٤٨) .

فهذه هي عقيدة أخرى منافية للإسلام ومخالفة له ، ومعارضة لأسسه وقواعده ، مناقضة لشرعته وتعاليمه ، متبطنة الكفر أشد الكفر ، ومتضمنة الارتداد كل الارتداد ، مأخوذة من الشيعة واليهودية .

ومعروف أنهم لم يمتنعوا هذه العقيدة ولم يخلقوها ليوصلوا المتصوفة إلى مقام النبوة ومكانتها كما وصل الشيعة إليها أئمتهم ، فوصفوهم بجميع أوصاف النبوة ، واختصاصاتها . ومن أهمها العصمة .

(٢٤٦) الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذى الحكيم سؤال رقم ١٨ ص ١٦٧ ، ١٦٨ من كتاب ختم الأولياء .

(٢٤٧) المقتدات للفرغانى مخطوط آيا صوفيا رقم ١٨٩٨ نقلا عن ختم الأولياء للترمذى ص ٤٨٧ ط بيروت .

(٢٤٨) مجموعة في الحكمة المشرقية للسهروردى ص ٢٣ ، ٢٤ .

الْعَصْمَة

فالعصمة في تبليغ رسالات الله ضرورية للأنبياء والرسل كي لا يقع الخطأ والغلط في أداء أوامر الله ونواهيه، وأحكام الله وإرشاداته، فيدعمون ويسددون بالوحي ونزول الملائكة عليهم، فما ينطقون عن الهوى، ويجب اتباعهم في كل ما يقولونه ويأمرون به، لسلامتهم من الخطأ، والزلل بخلاف غيرهم، فانهم يمكن عليهم الخطأ والنسيان، والزلل والغلط، فلا يؤمن جانبهم من هذه الأمور كلها.

ولكن الشيعة الذين جعلوا أئمتهم كالأنبياء أو المشركين في النبوة والمضاهين لها، اختلقوا لهم هذه المكانة، وادعوا لهم هذه المنزلة، فقالوا: «ان الامام يجب أن يكون معصوما» (٢٤٩).

وقال ابن بابويه القمي الملقب بالصدوق عند الشيعة: «اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة عليهم السلام أنهم معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً لا صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم، ومن جهلهم فهو كافر.

واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عسيان ولا جهل» (٢٥٠).

وقال خاتمة محدثي الشيعة ملا باقر المجلسي: «الشرط الثاني في الامام أن يكون معصوماً، واجماع الامامية منعقد على أن الامام مثل النبي صلى الله عليه وآله معصوم من أول عمره إلى آخر عمره من جميع الذنوب الصغائر والكبائر والأحاديث المتواترة على هذا المضمون واردة» (٢٥١).

(٢٤٩) منهاج الكرامة للحلي ص ٧١ المنشور مع منهاج السنة النبوية لابن تيمية ط باكستان أيضاً تلخيص الشافى للطوسى ج ١ ص ١٨١ ط قم ايران، كمال الدين القمى ج ١ ص ١٠٠.
(٢٥٠) اعتقادات الصدوق ص ١٠٨.
(٢٥١) حق اليقين للمجلسي ص ٣٩.

وروا في هذا الخصوص روايات مكذوبة على النبي ﷺ ، وعلى علي رضي الله عنه وأولاده .

منها ما رواها ابن بابويه القمي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون» (٢٥٢) .

وروى المفيد في أماليه عن جعفر بن محمد أنه قال : «ان الله فرض ولايتنا ، وأوجب مودتنا ، والله ، ما نقول بأهوائنا ، ولا نعمل بآرائنا ، ولا نقول إلا ما قال ربنا عز وجل» (٢٥٣) .

وقال ابن بابويه القمي في كتاب الخصال مفسرا قول الله عز وجل : لا ينال عهدى الظالمين ، يقول في تفسير : «فاذن لا يكون الامام إلا معصوما ، ولا تعلم عصمته إلا بنص الله عز وجل عليه» (٢٥٤) .

وبمثل ذلك قال المتصوفة في كبرائهم وأوليائهم .

وقبل أن نذكر النصوص في هذا الخصوص نورد ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب عن الشيعة ومن تبعهم في ذلك من المتصوفين :

«وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة فان فيهم من ادّعى الالهية في علي وهؤلاء شر من النصارى وفيهم من ادعى النبوة فيه ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه باتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبيين إلا أن عليا رضي الله عنه برىء من هذه الدعوة بخلاف من ادعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله وهؤلاء الامامية يدعون ثبوت امامته بالنص وأنه كان معصوما هو وكثير من ذريته وأن القوم ظلموه وغصبوه ودعوى العصمة تضاهي المشاركة في النبوة فان المعصوم يجب اتباعه في كل ما يقول لا يجوز أن يخالف في شيء وهذه خاصة الأنبياء ولهذا أمرنا أن نؤمن بما أنزل إليهم فقال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ فأمرنا أن نقول آمنا بما أوتى النبيون وقال تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من

(٢٥٢) عيون أخبار الرضا لابن بابويه القمي ج ١ ص ٦٤ ط طهران .

(٢٥٣) الأمالي للمفيد ص ٥٩ ، ٦٠ ط قم ايران ١٤٠٣ هـ .

(٢٥٤) كتاب الخصال لابن بابويه القمي باب الخمسة ج ١ ص ٣١٠ ط ايران .

رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين﴾ ﴿٢﴾ فالإيمان بما جاء به النبيون مما أمرنا أن نقوله ونؤمن به وهذا مما اتفق عليه المسلمون أنه يجب الإيمان بكل نبي ومن كفر بنبي واحد فهو كافر ومن سبه وجب قتله باتفاق العلماء وليس كذلك من سوى الأنبياء سواء سموا أولياء أو أئمة أو حكماء أو علماء أو غير ذلك فمن جعل بعد الرسول معصوما يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها ويقال لهذا ما الفرق بين هذا وبين أنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا مأمورين باتباع شريعة التوراة وكثير من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في شيخه نحو ذلك ويقولون الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلا وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والاسمعية تدعى في أئمتها أنهم كانوا معصومين وأصحاب ابن تومرت الذى ادعى أنه المهدي يقولون انه معصوم ويقولون في خطبة الجمعة الامام المعصوم والمهدي المعلوم ويقال انهم قتلوا بعض من أنكر أن يكون معصوما ومعلوم أن كل هذه الأقوال مخالفة لدين الاسلام للكتاب والسنة واجماع سلف الأمة وأئمتها فان الله تعالى يقول ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول﴾ الآية فلم يأمرنا بالرد عند التنازع إلا إلى الله والرسول فمن أثبت شخصا معصوما غير الرسول أوجب رد ما تنازعوا فيه إليه لأنه لا يقول عنده إلا الحق كالرسول وهذا خلاف القرآن وأيضا فان المعصوم يجب طاعته مطلقا بلا قيد ومخالفة يستحق الوعيد والقرآن إنما أثبت هذا فى حق الرسول خاصة قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ وقال ﴿ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ . فدل القرآن فى غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة ولم يشترط فى ذلك طاعة معصوم آخر ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول ﷺ هو الذى فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغى والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذى قسم الله به عبادته إلى شقى وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وليست هذه المرتبة لغيره ولهذا اتفق أهل العلم أهل الكتاب والسنة على أن كل شخص سوى الرسول فانه يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ فانه يجب تصديقه فى كل ما أخبر وطاعته فى كل ما أمر فانه المعصوم

الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى» (٢٥٥).

وهو كما قال شيخ الاسلام ان الصوفية يعتقدون في أوليائهم ما يعتقد الشيعة في أئمتهم من تأليههم، وجعلهم أنبياء أو كالأنباء، معصومين، ولو أنهم كثيراً ما يتجنبون عن استعمال هذه اللفظة، ويستبدلون بالحفظ، ولا يقصدون من ورائها إلا العصمة التي يستعملها الشيعة توقياً وتحفظاً من طعن الطاعنين واعتراض المعترضين، وسترا لتلك الصلة الوثيقة التي تربطهم مع الشيعة، ولو أن بعض المتهورين منهم لم يراعوا هذا الكتمان والاختفاء، وباحوا بهذا السرجها وعلمنا، عارفين بأن تقيتهم هذه لا تسمن ولا تغنى من جوع، لأن المراد من كلتا اللفظتين واحد، لا اختلاف بينهما من حيث المدلول، فقال قائلهم:

«وأما صور تلقيات الموحدين الخطابية فهو أن تنبعث اللطيفة الانسانية مجردة عن الفكر طالبة ما لا تعلم ممن لا تعلم منه إلا نسبة الوجود إليه بتقيدها به فاذا نزل هذا العقل بحضرة من الحضرات نزل إليه بحكم التدلى أو برزله أو ظهر له اسم من الأسماء الحسنى بما فيه من الأسرار فيهبه بحسب تجريده وصحة قصده وعصمته في طريقه فيرجع إلى عالم كونه عالماً بما القى إليه من علم ربه بربه أو من علم ربه بضرب من كونه ثم ينزل نزولاً آخر هكذا ابداً (ما ادرى ما يفعل بى ولا بكم - ان اتبع إلا ما يوحى إلى) وهو خير البشر وأكثرهم عقلاً وأصحهم فكرة وروية فأين الفكر هنا هيهات تلف أصحاب الأفكار والقائلون باكتساب النبوة والولاية كيف لهم ذلك والنبوة والولاية مقامان وراء طور العقل ليس للعقل فيهما كسب بل هما اختصاصان من الله تعالى لمن شاء» (٢٥٦).

فاستعمل الشيخ الأكبر للصوفية العصمة للأنبياء والأولياء، وسوى بينهما، ولم ير الفرق في كونهما مصطفىين مختارين من قبل الله عز وجل، ومنزلتهما ومكانتهما لا تدركان بالعقل، ومنصبهما لا يكتسب.

وقال في مقام آخر:

«ان من شرط الامام الباطن (يعنى الولي) أن يكون معصوماً، وليس الظاهر ان كان غيره مقام العصمة» (٢٥٧).

(٢٥٥) منهاج السنة النبوية لشيخ الاسلام ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢٥٦) كتاب التراجم لابن عربى من مجموعة رسائله ص ٤.

(٢٥٧) الفتوحات المكية لابن عربى ج ٣ ص ١٨٣.

وبمثل ذلك قال أبو الحسن الشاذلي :
« ان من خواص القطب امداد الله له بالرحمة والعصمة والخلافة والنيابة » (٢٥٨) .
وروى صوفي قديم أبو عبد الرحمن السلمى فى (طبقات الصوفية) عن أبى بكر
محمد الدينورى أنه سئل عن علامة الصوفى ما هى ؟
فقال : « أن يكون مشغولا بكل ما هو أولى به من غيره ، ويكون معصوما عن
المذمومات » (٢٥٩) .

ونقل الدكتور عبد الحليم محمود عن صوفى متقدم أبى بكر الواسطى المتوفى
٣٢٠هـ أنه قسّم المتصوفة على ثلاثة أقسام ، فقال :
« الناس على ثلاث طبقات ، الطبقة الأولى : من الله عليهم بأنوار الهداية ،
فهم معصومون من الكفر والشرك والنفاق .
والطبقة الثانية : من الله عليهم بأنوار العناية فهم معصومون من الصغائر
والكبائر .

والطبقة الثالثة : من الله عليهم بالكفاية فهم معصومون عن الخواطر الفاسدة
وحركات أهل الفضيلة » (٢٦٠) .

ويزيل السهروردى عبد القاهر فى عوارفه بعض الحجاب عن ذلك السرّ الذى
طلما أخفاه المتصوفة اخفاء على تشيعهم ، ومصدر تصوفهم ، ومنبع أفكارهم ،
فيقول :

« الشيخ للمريدين أمين الالهام ، كما أن جبريل أمين الوحي ، فكما لا يخون
جبريل فى الوحي ، لا يخون الشيخ فى الالهام ، وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن
الهوى فالشيخ مقتد برسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا ، لا يتكلم بهوى النفس » (٢٦١) .

لأن الشيخ «والعارف معدن علم الله ، مرضع أرواح الطالبين بنفسه ، صحف

(٢٥٨) كتاب القصد للشاذلى المنقول من كتاب (الصلة بين التصوف والتشيع) ج ١ ص ٤١٧ .

(٢٥٩) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٠٩ ط مطابع الشعب القاهرة ١٣٨٠هـ .

(٢٦٠) انظر غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية للنفذى الرندى ج ١ ص ١٦٠ حاشية رقم ٢ لعبد

الحليم محمود الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٠ .

(٢٦١) عوارف المعارف للسهروردى ص ٤٠٤ ط دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٣م .

أسرار ربّ العالمين بروحه، العارف وإن كان بدويا وحشيا فهو معدن العقل والعلم» (٢٦٢).

وهم معصومون «لأنهم أطفال في حجر الحق» (٢٦٣).

«كالأب الشفيق» (٢٦٤).

أو «كولد اللبوة في حجرها» (٢٦٥).

و«انهم قائمون بالله، قد تولى الله أمرهم، فاذا ظهرت منهم طاعة، لم يرجوا عليها ثوابا، لأنهم لم يروا أنفسهم محالاً لها، وإن ظهرت منهم زلة فالدية على العاقلة، لم يشاهدوا غيره في الشدة والرخاء، قيامهم بالله، ونظرهم إليه، وخوفهم هيبتهم، ورجاؤهم الأنس به» (٢٦٦).

و«انهم لا يعرفون إبليس والشيطان» (٢٦٧).

«أو ما خلق الله خلقاً أهون عليهم من إبليس، ولولا أن الله أمرهم أن يتعبدوا منه ما تعبدوا منه» (٢٦٨).

ولربما استعملوا الحفظ على أوليائهم ومتصوفيهم، بدل العصمة الشيعية لأئمتهم، لكن في نفس المعنى والمقصود، فقالوا:
«ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً» (٢٦٩).

(٢٦٢) مناقب العارفين للأفلاكي ج ١ ص ٢٨٦. ملحوظة: ان الدكتور الشيبى أخطأ في فهم عبارة الأفلاكي نقلا عن جلال الدين الرومي في منقبة الحلاج حيث ظنّ مقولة رسول الله المتمثل المتجسد أمام الحلاج - حسب زعم القوم - مقولة الحلاج، متضمنة معنى العصمة لذاته (انظر كتاب الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٤١٩)، وليس الأمر كذلك كما قلنا.

(٢٦٣) التعرف للكلاباذي ص ١١٠.

(٢٦٤) الأخلاق المتبوية للشعراني ج ٣ ص ٢٦١.

(٢٦٥) طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٢.

(٢٦٦) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٤٢٣.

(٢٦٧) غيث المواهب العلية للنفزي الرندي ج ٢ ص ١٥٣، أيضا جبهة الأولياء للمنوفي الحسيني ج ٢

ص ٢٤١.

(٢٦٨) غيث المواهب العلية ج ٢ ص ١٥٣ نقلا عن أبي سليمان الداراني.

(٢٦٩) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٢١، وروضة التعريف ص ٥٢١، مواقع النجوم لابن عربي ص ٨٠، غيث

المواهب للنفزي ص ١٣١، جبهة الأولياء ج ١ ص ٩٧، مشارق أنوار القلوب للدباغ ص ١٠٣، فوائذ الجمال لنجم الدين الكبرى ص ٨٢ وغيرها من الكتب الكثيرة.

لأن الحق يتولى تصريفه «فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل وهو العصمة» (٢٧٠).

و«أن تصير الأشياء كلها له واحدة، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته» (٢٧١).

و«لطائف الله في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعدّ» (٢٧٢).

وبمثل ذلك قال القشيري :

«الوليّ له معنيان : أحدهما : فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره، قال الله تعالى : ﴿وهو يتولى الصالحين﴾، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.

والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان.

وكلا الوصفين واجب حتى يكون الوليّ ولياً : يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء» (٢٧٣).

وقال أيضاً :

«فان قيل : ما معنى الوليّ؟

قيل : يحتمل أمرين : أحدهما أن يكون فعילה مبالغة من الفاعل، كالعليم والقدير وغيره فيكون معناه : من توالى طاعاته من غير تخلل معصية.

ويجوز أن يكون فعيله بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه، حفظه وحراسته على الأدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة،

(٢٧٠) التعرف للكلاباذي ص ١٤٧.

(٢٧١) أيضاً ص ٤٨.

(٢٧٢) أيضاً ص ١٥٥.

(٢٧٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٢٠.

قال الله تعالى : ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ (٢٧٤).

ويمثل ذلك قال الحكيم الترمذى تحت عنوان «ولى حق الله وولى الله» :
«فهؤلاء كلهم أولياء حقوق الله ، وهم أولياء الله يصيرون إلى الله تعالى فى مراتبهم ، فيحلون بها ويتنسّمون روح القرب ، ويعيشون فى فسحة التوحيد والخروج عن رقّ النفس ، قد لزموا المراتب ، فلا يشتغلون بشيء إلا بما أذن لهم فيه من الأعمال . فإذا صرفهم الله من المرتبة إلى عمل أبدانهم حرسهم ، فيمضون مع الحرس فى تلك الأعمال ، ثم ينقلبون إلى مراتبهم ، هذا دأبهم» (٢٧٥) .

وعلق ابن عجيبة على قول الشبلى : «الصوفية أطفال فى حجر الحق تعالى» ،
علق عليه بقوله :
«يعنى أنه يتولى حفظهم وتدبيرهم على ما فيه لصلاحتهم ولا يكلهم إلى أنفسهم» (٢٧٦) .

وظاهر أن من يكون هذا شأنه لا يكون إلا معصوما محضا ، لذلك ان الصوفية حينما يستعملون الحفظ ، لا يريدون من وراء ذلك إلا العصمة ، ولذلك ذكر الهجويرى كلتا اللفظتين فى معنى واحد ، بصورة الألفاظ المترادفة حيث حكى عن الجنيد أنه قال :

«تمتيت وقتا ما أن أرى إبليس - عليه اللعنة - وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فإذا بشيخ يقبل من بعيد متجها إلي ، فلما رأيته أحسست وحشة فى قلبى ، فلما اقترب منى قلت : من أنت أيها الشيخ ، اذ لا طاقة لعينى برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبى بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : أنا الذى تتمنى مشاهدتى . قلت : ياملعون ! ما منعك أن تسجد لآدم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور أنى أسجد لغيره ؟ قال الجنيد : فتحيرت فى كلامه ، فنوديت فى سرى أن : «قل له : كذبت ، ولو

(٢٧٤) أيضا ج ٢ ص ٦٦٤ ، ٦٦٥ .

(٢٧٥) كتاب ختم الأولياء للترمذى ص ١٣٩ .

(٢٧٦) أيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة الحسنى ص ١٦٨ الطبعة الثالثة ١٩٨٢ القاهرة .

كنت عبدا لما خرجت عن أمره ونهيه . فسمع النداء من قلبي ، فصاح وقال : أحرقتني بالله ! وغاب» (٢٧٧) .

ثم علق عليها بقوله :

«وفي هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظ أوليائه في كل الأحوال من كيد الشيطان» (٢٧٨) .

وتؤيد وتدعم أنهم يعدّون أوليائهم ومتصوفيهم معصومين ، مقولاتهم في كتبهم أنه لا يجوز الاعتراض على وليّ من أوليائهم أو على أحد من متصوفيهم ، ولو كان عمله يعارض الشرع ، أو يظهر بصورة منكرة ، فيقول الشعراني :

«من دخل في صحبة شيخ ، ثم اعترض عليه بعد ذلك فقد نقض عهد الصحبة» (٢٧٩) .

ثم نقل حكایتين خبيثتين تدلان على عقيدة القوم في مشائخهم وكونهم معصومين ، فيقول :

«كان أبو سهل الصعلوكي رحمه الله يقول :

كان لبعض الأشياخ مجلس يفسر فيه القرآن العظيم فأبدله بمجلس قوال ، فقال مريد بقلبه : كيف يبدل مجلس القرآن بمجلس قوال ؟
فناداه الشيخ : يا فلان ، من قال لشيخه : لم ، لا يفعل .

فقال المريد : التوبة . . . وزار أبو تراب النخشبى وشقيق البلخى أبا يزيد البسطامي ، فلما قدّم خادمه السفارة قال له : كل معنا يا فتى ، فقال : لا ، إني صائم . فقال له أبو تراب : كل ، ولك أجر صوم شهر .

فقال : لا ، فقال له شقيق : كل ، ولك أجر صوم سنة ، فقال : لا ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين رعاية الله عز وجل ، فسرق ذلك الشاب بعد سنة ، فقطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ - ثم نقل عن الشيخ برهان الدين أنه قال - :

(٢٧٧) كشف المحجوب للهجویری ص ٣٤٢ ترجمة عربية للدكتورة اسعاد عبد الهادی قنديل ط دار النهضة

بیروت ١٩٨٠ م .

(٢٧٨) أيضا .

(٢٧٩) انظر الأنوار القدسية فی معرفة القواعد الصوفیة للشعرانی ج ١ ص ١٧٤ .

من لم يخطأ الشيخ أحسن من صوابه لم ينتفع به» (٢٨٠).

وبمثل ذلك قال شيخ الأزهر السابق نقلا عن سيده أحمد الدردير أنه قال :
«فالأداب التي تطلب من المريد في حق شيخه أوجبها تعظيمه وتوقيره ظاهرا
وباطنا، وعدم الاعتراض عليه في أي شيء فعله، ولو كان ظاهره أنه الحرام، ويؤول
ما انبههم عليه، وتقديمه على غيره، وعدم الالتجاء لغيره من الصالحين، فلا يزور
وليا من أهل العصر، ولا صالحا إلا بإذنه، ولا يحضر مجلس غيره إلا بإذنه، ولا يسمع
من سواه حتى يتم سقيه من ماء سرّ شيخه» (٢٨١).

فهل هناك ضلال بعد هذا الضلال، وتسفيه للعقول بعد هذا كله؟
ومن رجل جعل شيخا لأكبر جامعة اسلامية وأقدمها في العالم؟

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت
الوهاب﴾ (٢٨٢).

ولطرافة كلام الشيخ نقل ههنا ما كتبه في آداب المريد، فيقول :
«ومن آداب المريد للشيخ : أن لا يكثر الكلام بحضرته ولو باسطه، ولا يجلس
على سجاده، ولا يسبح بسبحته، ولا يجلس في المكان المعدّ له، ولا يلح عليه في
أمر، ولا يسافر، ولا يتزوج، ولا يفعل فعلا من الأمور المهمة إلا بإذنه، ولا يمسك
يده للسلام مثلا ويده مشغولة بشيء كقلم أو أكل أو شرب، بل يسلم بلسانه، ويتنظر
بعد ذلك ما يأمر به، وأن لا يمشى أمامه ولا يساويه في مشى إلا لبيل مظلم ليكون
مشيه أمامه صونا له من مصادفة ضرر. . . وأن يرى كل بركة حصلت له من بركات
الدنيا والآخرة فبركته. . . وأن يصبر على جفوته واعراضه عنه، ولا يقول : لم فعل
بفلان كذا ولم يفعل بي كذا، وإلا لم يكن مسلما له قياده : اذ من أعظم الشروط تسليم
قياده له ظاهرا وباطنا. . . وأن يجعل كلامه على ظاهره فيمثله الا لقرينة صارفة عن
ارادة الظاهر، فإذا قال له : اقرأ كذا، أو صلّ كذا، أو صمّ كذا وجب عليه المبادرة،
وكذا اذ قال له وهو صائم : أفطر وجب عليه الفطر، أو قال : لا تصلّ كذا إلى غير

(٢٨٠) الأنوار القدسية للشعراني ج ١ ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢٨١) انظر كتاب سيدى أحمد الدردير للدكتور عبد الحليم محمود ص ١١٩ ط دار الكتب الحديثة القاهرة.

(٢٨٢) سورة آل عمران الآية ٨.

ذلك . . . وأن لا يدخل عليه في خلوة إلا باذنه ، وأن لا يرفع الستارة التي فيها الشيخ إلا باذنه وإلا هلك كما وقع لكثير» (٢٨٣).

فلنرجع إلى موضوعنا ونقول : ان القوم يجعلون متصوفيهم معصومين حيث لا يميزون الاعتراض عليهم ، ويقولون :
«من قال لأستاذه : لم لا يفلح» (٢٨٤).
لأن «الشيخ في أهله كالنبي في أمته» (٢٨٥).

وعلى ذلك قال القشيري :

«من شرط المرید أن لا يكون بقلبه اعتراض على شيخه» (٢٨٦).

وهناك حكايات ومقولات كثيرة في هذا المعنى تنبئ وتدل صراحة على أن عصمة المتصوفة وأوليائهم ، مثل عصمة الأنبياء ، وتعبير صحيح كعصمة أئمة الشيعة ، مثل الحكاية التي رواها ابن عجيبة في فتوحاته ، عن بعض مشائخه قال :
«رأيت يوما شخصا استحسنته فاذا لطمته وقعت على عيني ، فسالت على خدي ، فقلت : آه فقيل لي : لحظة بلطمة ، ولوزدت لزدناك» (٢٨٧).

فمن كان هذا القائل يا ترى؟

فانظر كيف يدعون العصمة حتى من النظر إلى أحد بتلذذ؟

وكذلك نقل أحد الرفاعيين عن الرفاعي أنه قال :

«قال لي الشيخ يعقوب : رأيت الشيطان واقفا على باب دارى فهمت بضربه ، فقال : أى يعقوب ، أنتم أهل الانصاف ، ان في بيتكم الأحمر والأصفر (أى الذهب والفضة أو الدنانير والدراهم) ، وهما لي كيف لم أجيء إلى بيتكم؟» (٢٨٨).

(٢٨٣) كتاب سيدى أحمد الدردير للدكتور عبد الحليم محمود ص ١١٩، ١٢٠، ١٢١.

(٢٨٤) انظر غيث المواهب العلية للمفزي الرندي ج ١ ص ١٩٧.

(٢٨٥) انظر كشف المحجوب للهجویری ص ٢٥٢ ، غيث المواهب ج ١ ص ١٩٧ ، صوم القلب لعمار البديسی مخطوط ورقة رقم ١٩ المنقول من ملحق كتاب فوائح الجبال لنجم الدين الكبري تعليقة رقم ٢٢ ط ألمانيا ١٩٥٧م ، أيضا كتاب العروة للسمنانی مخطوط المنقول من ختم الأولياء ص ٤٨٩ ، كذلك الفتوحات الالهية لابن عجيبة الحسنى ص ١٧٣.

(٢٨٦) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٧٣٦ ، أيضا التدبيرات الالهية لابن عربى ص ٢٢٦ ، جامع الأصول

للكميشخانى ص ٢.

(٢٨٧) الفتوحات الالهية ص ١٦٣.

(٢٨٨) انظر قلادة الجواهر لمحمد أبى الهدى الرفاعي ص ١٣٥ ط دار الكتب العلمية . بيروت.

صوفي رأى الشيطان وهم بضربه، فالمعنى أن الصوفي لا يمكن أن يغويه الشيطان، فاذن هو معصوم عن الوقوع في المعاصي والخطايا، والزلات والسيئات. هذا ومثل هذا كثير.

فهذه هي العقيدة الأخرى التي أخذها الصوفية عن الشيعة، ان دلت على شيء دلت على روابط عتيقة وثيقة بين التصوف والتشيع، وكون الأول مأخوذاً عن الثاني.

عَدَمُ خُلُوقِ الْأَرْضِ مِنَ الْحُجَّةِ

من العقائد الشيعية المعروفة، الخاصة بهم أن الأرض لا تخلو من الحجة، وهو الإمام عندهم فلقد بَوَّبَ محدثوهم وفقهاؤهم ومتكلموهم أبواباً مستقلة لبيان هذه العقيدة المختلفة المصطنعة، وأوردوا فيها روايات مكذوبة على رسول الله ﷺ، وعلى عليّ رضي الله عنه وأولاده، أئمة القوم حسب زعمهم، وآراء كبرائهم، وعبارات قادتهم.

فلقد أورد محدثهم الكبير الكليني - وهو بمنزلة البخاري عند المسلمين السنة - في كافيّه الذي هو أحد الصحاح الأربعة الشيعية، وبمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة روايات عديدة تحت عنوان: «لَمْ يبقَ في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة: ومنها ما رواها عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال: «لَوْ لَمْ يَكُنْ في الأرض إلا اثنان لكان الإمام أحدهما» (٢٨٩).

كما أورد روايات كثيرة في باب: «أن الأرض لا تخلو من حجة»: منها ما رواها أيضاً عن جعفر أنه سئل:

«أَتَخْلُو الْأَرْضَ بِغَيْرِ إِمَامٍ؟»

قال: «لَوْ بَقِيَتِ الْأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا» (٢٩٠).

وبمثل ذلك روى ابن بابويه القمي المتوفى ٣٨١ هـ أحد رجال الصحاح

(٢٨٩) الأصول من الكافي للكليني المتوفى ٣٢٩ هـ ج ١ ص ١٨٠ ط دار الكتب الإسلامية طهران الطبعة الثالثة

١٣٨٨ هـ.

(٢٩٠) أيضاً كتاب الحجة ج ١ ص ١٧٩.

الأربعة الشيعية، في عيونه عن علي بن موسى الرضا - الامام الثامن المعصوم لدى القوم - أنه سئل :

«تخلو الأرض من حجة ؟ فقال : لو خلت الأرض طرفة عين من حجة لساخت بأهلها» (٢٩١).

وكذلك بَوَّب القمى بابا مستقلا في كتابه (كمال الدين وقام النعمة) العلة التي من أجلها يحتاج إلى الامام : وأورد فيه أكثر من عشرين رواية : منها ما رواها عن الباقر بن علي زين العابدين :

«لو أن الامام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله» (٢٩٢).

وأورد الملا باقر المجلسي في بحاره أكثر من مائة حديث عن أئمتيه في هذا المعنى ، منها ما رواها عن علي بن الحسين أنه قال :

«ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم عليه السلام من حجة الله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله» (٢٩٣).

وكتب القوم مليئة من مثل هذه الروايات والأحاديث، نكتفى على هذا القدر من البيان .

وان الصوفية لأخذوها منهم بكاملها بدون أى تغيير وتبديل، غير أنهم جعلوا الحجة وليا من أوليائهم، أو صوفيا من جماعتهم بدل الامام لدى الشيعة، فيقول أبو طالب المكي في قوته، مستعملا حتى الألفاظ الشيعية ومصطلحاتهم نقلا عن علي رضى الله عنه أنه قال :

«لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجة، أمّا ظاهر مكشوف، وأمّا خائف مقهور لثلا تبطل حجج الله تعالى وبيّناته» (٢٩٤).

ومثل ذلك أورد الطوسى السراج أبو نصر عنه :

(٢٩١) عيون أخبار الرضا لابن بابويه القمى ج ١ ص ٢٧٢ ط انتشارات جهان طهران .

(٢٩٢) كمال الدين وقام النعمة لابن بابويه القمى الباب الحادى والعشرون ج ١ ص ٢٠٢ ط دار الكتب الاسلامية طهران الطبعة الثانية ١٣٩٥ هجرى قمرى .

(٢٩٣) بحار الأنوار للمجلسي ج ٢٣ في مواضع شتى .

(٢٩٤) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبى طالب المكي ج ١ ص ١٣٤ .

«لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة لثلا تبطل آياته، وتدحض حججه» (٢٩٥).

ويمثل ذلك قال الحكيم الترمذى، وأحمد بن زروق:

«لا تخلو الدنيا في هذه الأمة من قائم بالحجة» (٢٩٦).

وقال السلمى في مقدمة طبقاته:

«وأتبع (الله) الأنبياء عليهم السلام بالأولياء، يخلفونهم في سننهم، ويحملون أمتهم على طريقتهم وسمتهم، فلم يخل وقتنا من الأوقات من داع إليه بحق أودال عليه ببيان وبرهان. وجعلهم طبقات في كل زمان، فالولى يخلف الولى... فعلم ﷺ أن آخر أمته لا يخلو من أولياء وبدلاء، يبينون لأمته ظواهر شرائعه وبواطن حقائقه» (٢٩٧).

وقال ابن عربى:

«لا يخلو زمان عن كامل» (٢٩٨).

وقال أحد اتباعه البارزين علاء الدولة السمنانى:

«ولابد في كل حين من مرشد يرشد الخلق إلى الحق، خلافة عن النبى المحق، ولا بد للمرشد من التأيد الالهى، ليتمكن له تسخير المسترشدين، وإفادة المستفيدين، وتعليم المتعلمين... وهو العالم، الولى، الشيخ. وإلى هذا أشار النبى عليه السلام حيث قال: الشيخ في قومه كالنبى في أمته... ولا يكون قطب الارشاد في كل زمان من الأزمان إلا واحد يكون قلبه على قلب المصطفى صاحب الوراثة الكاملة» (٢٩٩).

وقال صاحب الجمهرة:

«قد صحت الروايات والنصوص المؤكدة الثابتة بالكتاب والسنة على أن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، ومن عارف بالحقيقة الكامنة خلف الظواهر، ومن يميز بين اللباب والقشور، وعابد لله على الوجه الصحيح، وسائر إلى الله على بصيرة

(٢٩٥) كتاب اللمع للطوسى أبى نصر السراج بتحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ص ٤٥٨ ط دار الكتب الحديثة مصر ١٩٦٠م، أيضا جهرة الأولياء للمنوفى الحسينى ج ٢ ص ٣٢.
(٢٩٦) كتاب ختم الأولياء للترمذى الحكيم ص ٣٦٠، قواعد التصوف لابن زروق ص ٤٨ ط القاهرة ١٩٧٦م.

(٢٩٧) كتاب طبقات الصوفية، المقدمة للسلمى ص ٧.

(٢٩٨) عقلة المستوفز لابن عربى ص ٩٧ ط ليدن.

(٢٩٩) كتاب العروة للسمنانى مخطوط ورقة ٨٨ ب المنقول من كتاب ختم الأولياء ص ٤٨٩ ط بيروت.

صريحة، وعقيدة وضّاءة إلى أن تقوم الساعة» (٣٠٠).

ونقل عن قطب الدين القسطلاني في كتاب له في التصوف:

«ان الله بحكمته ونعمته أقام في كل عصر من جعل له لسانا معبرا عن عوارف المعارف الالهية، مخبرا عن لطائف العواطف الربانية، يصل الله به ما انقطع من علوم الأنبياء ومعارف الأولياء» (٣٠١).

وقال لسان الدين بن الخطيب:

«ولابدّ عندهم أن يكون في العالم شخص واصل اليه في كل زمان، وهو الخليفة المتلقى عن الله أسرار الموجودات، ان ظاهرا فنبيّ ورسول أو باطنا فقطب» (٣٠٢).

وقال الشعراني نقلا عن عليّ الخواص أنه قال:

«من نعم الله تعالى على عباده كونه تعالى لا يخلى الأرض من قائم له بحجة في دينه، رضيه لولايته، واختاره لمعاملته، يبين به دلالته، ويوضح به طرقاته، فطوبى لمن كان كذلك في هذا الزمان» (٣٠٣).

وهذا ما أشار إليه شيخ الاسلام ابن تيمية في فتاواه بعد ذكر كلام الصوفية في هذا الخصوص:

«وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لابدّ في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين، لا يتم الايمان إلا به» (٣٠٤).

وَجُوبُ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ

ويمناسبة ما ذكرناه أنفا نريد أن نورد ههنا معتقدا شيعيا آخر مرتبطا بالعقيدة السالف ذكرها، وهو أنه يجب على الناس معرفة ذلك الإمام الذي لا تخلو الأرض منه، ومن مات ولم يعرف ذلك الامام فقد مات ميتة جاهلية، أو ميتة كفر وضلال كما قال الشريف المرتضى الشيعي الملقب بعلم الهدى عند القوم:

(٣٠٠) جهرة الأولياء ج ١ ص ٧.

(٣٠١) أيضا ج ١ ص ٩٤.

(٣٠٢) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٥٨٠.

(٣٠٣) الأخلاق المتبوية للشعراني ج ٢ ص ١١٦، ١١٧.

(٣٠٤) فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ج ١١ ص ٤٣٩ ط ١٣٩٨ هـ.

«ان المعرفة بهم (يعنى بالأئمة) كالمعرفة به تعالى ، فانها إيمان وإسلام ، وان الجهل والشك فيهم كالجهل والشك فيه فانه كفر، وخروج من الايمان ، وهذه المنزلة ليست لأحد من البشر إلا لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من بعده ، على وأولاده الطاهرين . . . والذي يدل على أن معرفة إمامة من ذكرناه من الأئمة عليهم السلام من جملة الايمان ، وأن الاخلال بها كفر ورجوع عن الايمان باجماع الامامية» (٣٠٥).

وقال الطوسى الملقب بشيخ الطائفة :

«دفع الامامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وميتة الجاهلية لا تكون إلا على كفر» (٣٠٦).

ولقد أورد محدثو الشيعة روايات كثيرة في هذا المعنى في أبواب مستقلة بويوها في مصنفاتهم ، مثل الكليني في كافيّه ، وابن بابويه القمي في كتبه ، والطوسى في شافيه ، والبرقى في محاسنه ، والنعماني في غيبته ، والحر العاملى في فصوله ، والمجلسى في بحاره ، والبحرانى في برهانه ، وغيرهم في غيره ، حتى قال محدثهم العاملى : «الآيات والروايات من طريق العامة والخاصة ، والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصى» (٣٠٧).

فهذا المعتقد من المبادئ الشيعية الأساسية التى بنى عليها مذهب القوم . والمقصود منه أنه يجب على كل شخص أن يعتقد بعدم خلو الأرض من إمام ، ثم يوجب على نفسه أن يعرفه ، ويجعله قدوة له ، وهاديا ومرشدا ومطاعا ، فيأخذ منه معالم الدين ، ويهتدى بهديه ، ويسلك مسلكه ، وينهج بمنهجه ، وبدونه وبدون ارشاده وتوجيهه يضل الطريق ، ويهوى فى المزالق والمهالك ، مزالق الكفر ومهالك الجاهلية . هذا ما يعتقده الشيعة ، ولم يكن غريبا أن يؤمن بهذا المبدأ ، ويعتقد بهذا المعتقد مشائخ الصوفية ، وكبراء التصوف ، لأنهم وراءهم حذو القذة بالقذة ، فقالوا :

(٣٠٥) الرسالة الباهرة فى العترة الطاهرة - نقلا عن مقدمة البرهان ص ٢٠ .

(٣٠٦) تلخيص الشافى للطوسى ج ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣٠٧) انظر الفصول المهمة فى معرفة الأئمة للحر العاملى المتوفى ١١٠٤ ، باب وجوب معرفة الامام ص ١٤١ ط مكتبة بصيرتى قم ايران .

من لم يكن له شيخ فامامه الشيطان كما ذكر ذلك المتصوفة عن أبي يزيد أنه قال :

«من لم يكن له أستاذ فامامه الشيطان» (٣٠٨).

ويقول لسان الدين بن الخطيب :

«يكون المرتاض يعتمد على شيخ، يلقي أزمته بيده، ليهديه قبل أن تسبقه إليها يد الشيطان.

كن المعزى لا المعزى به ان كان لابد من الواحد وما ينقل : من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه» (٣٠٩).

وبمثل ذلك قال ابن عربي :

«اعلم ان مقام الدعوة إلى الله ، وهو مقام النبوة والوراثة الكاملة ، والحاصل فيه يقال له النبي في زمان النبوة ، ويقال له الشيخ والوارث والأستاذ في حق العلماء بالله من غير أن يكونوا أنبياء وهو الذي قالت فيه السادة من أهل طريق الله ، من لم يكن له أستاذ فان الشيطان أستاذه» (٣١٠).

وقال الشعراني :

«اعلم يا أخى أن أحدا من السالكين لم يصل إلى حالة شريفة في الطريق أبدا إلا بملافة الأشياخ ومعانقة الأدب معهم ، والاكتثار من خدمتهم ، ومن ادعى الطريق بلا شيخ كان شيخه إبليس . . . وقد كان الامام أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول : من سلك بغير شيخ ضلّ وأضلّ» (٣١١).

وكتب في كتابه (الأخلاق المتبوية) نقلا عن علي المرصفي أنه قال :

«لو أن مريدا عبد الله تعالى كما بين السماء والأرض بغير شيخه فعبادته كالهباء المنثور . . . وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

(٣٠٨) انظر الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٧٣٥ ، عوارف المعارف للسهروردى ص ٩٦ ، وكذلك جامع الأصول في الأولياء للكمشخانى ص ١٢٠ ، الفتوحات الالهية لابن عجيبة ص ٨٨ ، أيضا كتاب سيدى أحمد الدردير ص ١٠٠ ، أيضا قلادة الجواهر لمحمد الرفاعى ص ١٤٣ .

(٣٠٩) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٤٦٩ ط دار الفكر العربى .
(٣١٠) الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط لابن عربى ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ المنشور مع ذخائر الأعلام له أيضا بتحقيق محمد عبد الرحمن الكروى ط القاهرة .
(٣١١) الأنوار القدسية للشعراني ص ١٧٣ ، ١٧٤ ط دار احياء التراث العربى بغداد العراق .

«لو أن العبد قرأ ألف كتاب في العلم ولا شيخ له فهو كمن حفظ كتب الطب مع جهله بالداء والدواء . . . وان كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ حكمه حكم من يعبد الله على حرف» (٣١٢).

وهذا مثل ما قاله الشيعة نقلا عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال :
انما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف امامه من أهل البيت ، ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الامام من أهل البيت فانما يعرف ويعبد غير الله هكذا والله ضلالا» (٣١٣).

وعنه أنه قال :

«كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا امام له من الله فسعيه غير مقبول» (٣١٤).

وعلى ذلك يقول نيكلسون بعد نقل كلام أبي يزيد البسطامي : «من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه ، يقول بعده :
هي فكرة يظهر أن لها صلة بالنظرية الشيعية ، الذي كان عبد الله بن سبأ أول من قال بها» (٣١٤).

الْوَلَايَةُ وَالْوَصَايَةُ

وتشابه آخر بين الصوفية والشيعة هو أن الصوفية أضفوا على أوليائهم عين تلك الأوصاف والاختيارات التي أضفى الشيعة على أئمتهم وأوصيائهم ، فان الشيعة يقولون :

«ان الأئمة ولادة أمر الله ، وخزنة علم الله ، وعيبة وحى الله» (٣١٥).

ويروى أبو جعفر محمد بن الحسن الصفار المتوفى ٢٩٠ هـ شيخ الكليني ، في بصائره ، عن محمد الباقر بن علي زين العابدين أنه يقول :
«نحن جنب الله ونحن صفوته ونحن خيرته ونحن مستودع موارث الأنبياء

(٣١٢) الأخلاق المتبوية للشعراني ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣١٣) الكافي للكليني ج ١ ص ١٨١ .

(٣١٤) أيضا ص ١٨٣ .

(٣١٥) في التصوف الاسلامي وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية لأبي العلاء العفيفي ص ١٩ .

ونحن امناءُ الله ونحن حجة الله ، ونحن أركان الايمان ، ونحن دعائم الاسلام ،
ونحن من رحمة الله على خلقه ، ونحن الذين بنا يفتح الله وبنا يختم ، ونحن أئمة
الهدى ، ونحن مصابيح الدجى ، ونحن منار الهدى ، ونحن السابقون ، ونحن
الاخرون ، ونحن العلم المرفوع للخلق ، من تمسك بنا لحق ، ومن تخلف عنا غرق ،
ونحن قادة الغر المحجلين ، ونحن خيرة الله ، ونحن الطريق ، وصراط الله المستقيم
إلى الله ، ونحن من نعمة الله على خلقه ، ونحن المنهاج ونحن معدن النبوة ، ونحن
موضع الرسالة ، ونحن الذين الينا مختلف الملائكة ، ونحن السراج لمن استضاء بنا ،
ونحن السبيل لمن اقتدى بنا ، ونحن الهداة الى الجنة ، ونحن عز الاسلام ، ونحن
الجسور والقناطر من مضى عليها سبق ، ومن تخلف عنها محق ، ونحن السنام
الاعظم ، ونحن الذين بنا نزل الرحمة وبنا تسقون الغيث ، ونحن الذين بنا يصرف
عنكم العذاب ، فمن عرفنا ونصرنا وعرف حقنا وأخذ بأمرنا فهو منا والينا» (٣١٦).

وروى الكليني عنه أيضا أنه قال :

«نحن خزان علم الله ، ونحن تراجمه وحى الله ، ونحن الحجة البالغة على من
دون السماء ومن فوق الأرض» (٣١٧).

وروا عنه أيضا أنه قال :

«نحن المثاني التي أعطاها الله النبي صلى الله عليه وآله ، ونحن وجه الله
نتقلب في الأرض بين أظهركم ، عرفنا من عرفنا ، وجهلنا من جهلنا . من عرفنا فامامه
اليقين ، ومن جهلنا فامامه السعير» (٣١٨).

والروايات في هذا المعنى كثيرة جدا ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتبنا
الأربعة في هذا الموضوع ، أو كتب الشيعة كبصائر الدرجات للمصنف ، والكافي
للكليني ، وبحار الأنوار للمجلسي ، والفصول المهمة للعاملی ، والبرهان للبحراني
وغيرها من الكتب الشيعية الكثيرة .

مع العلم بأن كتاب الله القرآن الكريم ، وكتب السنة النبوية المطهرة ، وتراجم
أصحاب النبي ﷺ خالية عن مثل هذه الخرافات والهفوات ، والشركيات
واليهوديات .

(٣١٦) بصائر الدرجات الكبرى للمصنف الجزء الثاني ص ٨٣ ط منشورات الأعلمى طهران ١٤٠٤ هجرى

قمرى .

(٣١٧) الكافي للكليني كتاب الحجة ج ١ ص ١٩٢ .

(٣١٨) بحار الأنوار للمجلسي ج ٢ ص ١١٤ .

ولكن الصوفية استقوا مبادئهم وأفكارهم ومعتقداتهم من التشيع والشيعة، بدل الكتاب والسنة، فقالوا في أوليائهم ومتصوفهم نفس ما قاله الشيعة في أئمتهم وأوصيائهم، فانظر ما كتبه أعظم مؤرخ صوفي في التاريخ القديم والحديث أبو نصر السراج الطوسي - حسب ما قاله طه عبد الباقي، والدكتور عبد الحليم محمود - لاحظ التوافق الكامل والتشابه التام بين ألفاظه وعبارته وبين عبارة الشيعة وألفاظهم فهوينبىء عن المصدر الأصلي، والمأخذ الحقيقي، والمنبع الأصيل، فيكتب:

«ان هذه العصابة أعنى الصوفية هم أمناء الله عز وجل في أرضه، وخزنة أسرارهِ وعلمهِ وصفوته من خلقهِ، فهم عباده المخلصون، وأوليائهُ المتقون، وأحبائهُ الصادقون الصالحون؛ منهم الأخيار والسابقون، والأبرار والمقربون، والبلاء والصديقون، هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم، وزين بخدمته جوارحهم، وألهم بذكره ألسنتهم، وطهر بمراقبته أسرارهم، سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية، فتوجههم بتاج الولاية، وألبسهم حلل الهداية، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفاً، وجمعهم بين يديه تلطفاً، فاستغنوا به عما سواه، وآثروا على مادونه، وانقطعوا إليه، وتوكلوا عليه، وعكفوا ببابه، ورضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وفارقوا فيه الأوطان، وهجروا له الإخوان، وتركوا من أجله الأنساب، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به مستوحشين مما سواه: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾» (٣١٩).

وتقلوا عن ذي النون المصري أنه قال:

«هم حجج الله تعالى على خلقهِ، ألبسهم النور الساطع عن محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لارادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل مجاملته، وكساهم حالا من نسج مودته، ووضع على رؤسهم تيجان مسرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي معلقة بمواصلته، فهمومهم اليه نائرة، وأعينهم اليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من قربه، وأجلسهم على كرسى أطباء أهل معرفته (٣٢٠).

وأيضاً: «هم خرس فصحاء، وعمى بصراء، عنهم تقصر الصفات، وبهم

(٣١٩) كتاب اللمع للطوسي مقدمة ص ١٩.

(٣٢٠) جبهة الأولياء للمنوفى الحسينى ج ١ ص ١٠٢.

تدفع النقمات، وعليهم تنزل البركات، فهم أحلى الناس منقطعا ومذاقا، وأوفى الناس عهدا وميثاقا، سراج العباد، ومنار البلاد، ومصابيح الدجى، ومعدن الرحمة، ومنابع الحكمة» (٣٢١).

وقال ابن عجيبة:

«هم باب الله الأعظم، ويد الله الآخذة بالداخلين إلى حضرة الله، فمن مدحهم فقد مدح الله، ومن ذمهم فقد ذم الله» (٣٢٢).

وقال ابن قضيبة البان:

«القطب فاروق الوقت، وقاسم الفيض، واليه مفوض أزمة الأمور، وقلب قطب خزانة أرواح الأنبياء، وله بكل وجه وجه، وأرواح الأنبياء خزائن أسرار الحق... الكون كله صورة القطب... وهو الباب الذى لا دخول ولا خروج إلا منه... وفؤاد القطب شمعة نصبت لفراش أرواح العالم، ونطقه شهد حقائق المعارف، الذى فيه شفاء أسرار المقربين، وصلاح مشاهد العارفين، وغذاء أفئدة الواصلين... نفس القطب صور برزخ الشؤون الصفاتية، وعقله اسرافيله، ومن نفسه قيام عمود السموات الروحية والأرضين الجسمية، واراته الماثرة فيهما، ومن اختياره هم أهل زمانه... القطب الفرد الواحد فى كل زمان الحقيقة المحمدية، ولكل زمان قطب منها، وهو خطيب سر الولاء بكلمة: بلى» (٣٢٣).

هذا وإن ابن عربى قال بصراحة ووضوح بدون ابهام ولا إيهام:

«أنا القرآن والسبع المثانى وروح الروح لا روح الأوانى
فؤادى عند معلومى مقيم يشاهده وعندكم لسانى» (٣٢٤)
ويعتقد الشيعة أن أئمتهم يعرفون جميع الألسن واللغات، وحتى لغات الطيور والوحوش.

فيذكر الصفار فى بصائره العناوين الأربعة لبيان علوم أئمته:

«باب فى الأئمة عليهم السلام أنهم يعرفون الألسن كلها».

(٣٢١) أيضا ص ١٠٣.

(٣٢٢) إيقاظ المهم لابن عجيبة ص ٢٧٢.

(٣٢٣) المواقف الإلهية لابن قضيبة البان ١٩٠.

(٣٢٤) الفتوحات المكية لابن عربى ج ١ ص ٧٠ بتحقيق وتقديم دكتور عثمان يحيى ط الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٨٥ م.

«باب في الأئمة أنهم يتكلمون الألسن كلها».

«باب في الأئمة أنهم يعرفون منطق الطير».

«باب في الأئمة عليهم السلام أنهم يعرفون منطق البهائم . ويعرفونهم ، ويجيبونهم اذا دعوهم» (٣٢٥).

ثم يورد تحتها روايات كثيرة تنبئ عن تدل على كل ما ذكره في العناوين .

فمثلا يروى عن جعفر بن الباقر أنه قال :

«قال الحسن بن علي عليه السلام : ان لله مدينتين ، احدهما بالشرق ، والأخرى بالمغرب ، عليهما سوران من حديد ، وعلى كل مدينة ألف ألف مصراع من ذهب ، وفيها سبعون ألف ألف لغة يتكلم كل لغة بخلاف لغة صاحبه ، وأنا أعرف جميع اللغات وما فيها وما بينهما وما عليهما حجة غيري والحسين أخى» (٣٢٦).

ويروى عن محمد الباقر أنه قال :

«علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء» (٣٢٧).

وغير ذلك من الروايات الكثيرة ، وأورد مثلها كل من الكليني في كافيّه ، والحرّ العاملي في الفصول المهمة .

ومثل ذلك ذكر المتصوفة في كتبهم عن أوليائهم ومشائخهم ، فيقول الشعراني في طبقاته عن ابراهيم الدسوقي :

«وكان رضى الله عنه يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي ، وسائر لغات الطيور والوحوش» (٣٢٨).

وقال عماد الدين الأملى :

«العارفون يفهمون كلام المخلوقين من الحيوانات والجمادات» (٣٢٩).

وكتب الشعراني في كتابه (الأنوار القدسية) :

(٣٢٥) انظر بصائر الدرجات الكبرى للصفار الجزء التاسع ص ٣٥٧ وما بعد ، ومثل ذلك في الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ص ١٥٥ ، كذلك في الأصول من الكافي ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣٢٦) انظر بصائر الدرجات الجزء السابع ص ٣٥٩ .

(٣٢٧) أيضا ص ٣٦٢ .

(٣٢٨) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٦٦ .

(٣٢٩) انظر حياة القلوب لعماد الدين الأملى بهامش قوت القلوب لأبى طالب المكي ج ٢ ص ٢٧٥ .

«الولّى يعطيه الله تعالى معرفة سائر الألسن الخاصة بالانس والجن، فلا يخفى عليه فهم كلام أحد منهم» (٣٣٠).

وذكر القوم حكايات كثيرة عن متصوفيهم تشتمل على تكلمهم مع السباع والطيور وغيرها، سنذكرها في الجزء الثاني من هذا الكتاب في باب مستقل إن شاء الله.

ولكن للطرافة نذكر حكاية واحدة ذكرها الشعراني في طبقاته الكبرى، فيقول:

«أقام الشيخ أبويعزى في بدايته خمس عشرة سنة فيء البرّ، لا يأكل إلا من حبّ الشجر في البادية، وكانت الاسد تأوى إليه، والطيور يعكف عليه. وكان اذا قال للأسد: لا تسكني هنا، تأخذ أشبالها وتخرج بأجمعها.

قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه: زرتة مرة في الصحراء وحوله الأسد والوحوش والطيور، تشاوره على أحوالها، وكان الوقت وقت غداء، فكان يقول لذلك الوحش: اذهب الى مكان كذا وكذا، فهناك قوتك، ويقول للطيور مثل ذلك فتتقاد لأمره.

ثم قال: يا شعيب، ان هذه الوحوش والطيور أحبت جوارى فتحملت ألم الجوع لأجلى، رضى الله عنه» (٣٣١).
فهذا هو التطابق الكلى بين الشيعة والصوفية في هذه القضية.

الْحُلُولُ وَالتَّنَاسُخُ

وان فرقا من الشيعة يعتقدون في أئمتهم بأنهم هم الذين ظهوروا في مختلف الصور في الأزمنة المتعددة، والأمكنة المختلفة، وهم الذين ظهوروا أيام آدم بصورة آدم، وفي دور نوح بنوح، وكذلك شيث وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في زمانهم، وان أئمتهم هم الذين نجّوا نوحا، وأغرقوا الخلق في عهد نوح، وخرقوا السفينة، وقتلوا الغلام وغير ذلك.

(٣٣٠) الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية للشعراني ج ٢ ص ١١٥ ط دار احياء التراث العربى بغداد - العراق.

(٣٣١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٣٦.

فها هم يكذبون على على رضى الله عنه أنه قال :

«أنا ومحمد نور واحد من نور الله . . . أنا صاحب الرجفة ، صاحب الآيات . . . أنا أهلك القرون الأولى ، وأنا النبا العظيم الذى هم فيه مختلفون . . . أنا الكتاب . . . أنا اللوح المحفوظ . . . أنا القرآن الحكيم . . . أنا محمد ومحمد أنا . . . ان ميتنا لم يمّت ، وقتيلنا لم يقتل ، ولا نلد ولا نولد . . . وأنا الذى نجّيت نوحا . . . ونطقت على لسان عيسى بن مريم فى المهد ، فأدم وشيث ونوح وسام وابراهيم واسماعيل وموسى ويوشع وعيسى وشمعون ومحمد وأنا كلنا واحد . . . أنا أحيى وأميت . . . وكذلك الأئمة المحقون من ولدى ، لأننا كلنا شىء واحد يظهر فى كل زمان» (٣٣٢) .

وروا عنه أيضا أنه قال لسلمان : «أنا أحيى الموتى ، واعلم ما فى السموات والأرض ، وأنا الكتاب المبين ، يا سلمان ، محمد مقيم الحجة ، وأنا حجة الحق على الخلق ، وبذلك الروح عرج به الى السماء ، أنا حملت نوحاً فى السفينة ، أنا صاحب يونس فى بطن الحوت ، وأنا الذى حاورت موسى فى البحر ، وأهلك القرون الأولى ، أعطيت علم الأنبياء والأوصياء ، وفصل الخطاب ، وبى تمت نبوة محمد ، أنا اجريت الأنهار والبحار ، وفجرت الأرض عيونا ، أنا كاب الدنيا لوجهها ، أنا عذاب يوم الظلمة ، أنا الخضر معلم موسى ، أنا معلم داود وسليمان ، أنا ذو القرنين ، أنا الذى دفعت سمكها بإذن الله عز وجل ، أنا دحوت أرضها ، أنا عذاب يوم الظلمة ، أنا النادي من مكان بعيد ، أنا دابة الأرض ، أنا كما يقول لى رسول الله (ص) : أنت يا علي ذوقنيها ، وكلا طرفيها ، ولك الآخرة والأولى ، يا سلمان إن ميتنا إذا مات لم يمّت ، ومقتولنا لم يقتل ، وغائبنا إذا غاب لم يغيب ، ولا نلد ولا نولد فى البطون ، ولا يقاس بنا أحد من الناس ، أنا تكلمت على لسان عيسى فى المهد ، أنا نوح ، أنا ابراهيم ، أنا صاحب الناقة ، أنا صاحب الرجفة ، أنا صاحب الزلزلة ، أنا اللوح المحفوظ ، إلىّ انتهى علم ما فيه ، أنا أنقلب فى الصور كيف شاء الله ، من رأهم فقد رآنى ، ومن رآنى فقد رأهم ، ونحن فى الحقيقة نور الله الذى لا يزول ولا يتغير» (٣٣٣) .

وروا عن جعفر بن الباقر أنه قال :

(٣٣٢) انظر زهر المعاني لادريس عباد الدين الباب السابع عشر ص ٧٤ وما بعد من (المنتخب من بعض الكتب الاسماعيليه) لايوانوف ط أجل بريس بومبي .

(٣٣٣) مشارق أنوار اليقين للمحافظ رجب البرسى ص ١٦١ ط دار الأندلس بيروت ، أيضا طرائق الحقائق للحاح معصوم شيرازى ج ١ ص ٧٧ ، ٧٨ ط طهران ١٣٣٩ هجرى شمسى .

«أنا من نور الله، نطقت على لسان عيسى بن مريم في المهد، فآدم وشيث ونوح وسام وإبراهيم وإسماعيل وموسى ويوشع وعيسى وشمعون ومحمد كلنا واحد، من رأنا فقد رأهم... أنا أحيى وأميت وأخلق وأرزق، وأبرئ الأكمة والأبرص، وأنبتكم بما تأكلون وتدخرون في بيوتكم بإذن ربى، وكذلك الأئمة المحقون من ولدى لأنا كلنا شىء واحد» (٣٣٤).

وذكروا عن راشد الدين بن سنان السورى الداعى الاسماعيلى أنه قال: «ظهرت بدور نوح فغرقت الخلائق... وظهرت فى دور ابراهيم على ثلاث مقالات... خرقت السفينة، وقتلت الغلام، وأقمت الجدار... ثم ظهرت بالسيد المسيح، فمسحت بيدي الكريمة عن أولادى الذنوب، وكنت بالظاهر شمعون - إلى آخر الهفوات والخرافات» (٣٣٥).

فهذه الروايات تدل صراحة على اعتقاد القوم بالحلول والتناسخ، وأن أئمتهم خلقوا من نور الله الذى لم يتغير ولم يتبدل، ولكن هذا النور كان يحل في أجسام مختلفة في أزمنة مختلفة، وكان يلبس ألبسة متنوعة متفرقة، فبذلك الجسد واللباس كان يسمى بتلك الأسماء، فتارة بآدم، وتارة بنوح، وتارة بإبراهيم، وتارة بموسى، وتارة بعيسى، وتارة بمحمد، مع أن هذا النور كان بجوهره واحداً.

فهذا عين ما قالته الصوفية حيث سمّوا ذلك النور الأزلى، والجوهر الأصلى الحقيقة المحمدية والصورة المحمدية. فهذه الحقيقة هي التي كانت تتجلى في أجسام مختلفة، وتنادى بذلك الاسم، فاختلفت أسماؤها حسب الزمان والأجساد، مع أنها كانت واحدة. كما يقول الجيلي:

«اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الأبدى، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر؛ فاسمه الأصلى الذى هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في

(٣٣٤) كتاب بيت الدعوة الإسلامية نسخة خطية ص ١٠ نقل عن تاريخ الدعوة الاسماعيلية لمصطفى غالب الاسماعيلي ص ٨١، ٨٢.

(٣٣٥) أجزاء عن العقائد الاسماعيلية، كتاب الداعي إبراهيم تقديم المستشرق الفرنساوى كويارد ط اميرين نيشنل بريس ١٧٨٤ م.

ملحوظة: انظر لتفصيل ذلك كتابنا الاسماعيلية.

ذلك الزمان، فقد اجتمعت به ﷺ وهو في صورة شيخى الشيخ شرف الدين اسماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنه النبي ﷺ، وكنت أعلم أنه الشيخ، وهذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعائة، وسرّ هذا الأمر تمكنه ﷺ من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصور المحمدية التي كان عليها في حياته فإنه يسميه باسمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد، فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم إلا على الحقيقة المحمدية، ألا تراه ﷺ لما ظهر في صورة الشبلى رضى الله عنه قال الشبلى لتلميذه: أشهد أنى رسول الله، وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر غير منكور، وهو كما يرى النائم فلانا في صورة فلان. وأقل مراتب الكشف أن يسوغ به في اليقظة ما يسوغ به في النوم، لكن بين النوم والكشف فرق، وهو أن الصورة التي يرى فيها محمد ﷺ في النوم ولا يوقع اسمها في اليقظة على الحقيقة المحمدية، لأن عالم المثال يقع التعبير فيه فيعبر عن الحقيقة المحمدية إلى حقيقة تلك الصورة في اليقظة، بخلاف الكشف فإنه اذا كشف لك عن الحقيقة أنها متجلية في صورة من صور الأدميين، فيلزمك إيقاع اسم تلك الصورة على الحقيقة المحمدية. ومجب عليك أن

تأدب مع صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد ﷺ، لما أعطاك الكشف أن محمداً ﷺ متصور بتلك الصورة، فلا يجوز ذلك بعد شهود محمد ﷺ فيها أن تعاملها بما كنت تعاملها به من قبل؛ ثم إياك أن تتوهم شيئاً في قولى من مذهب التناسخ، حاشا لله وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون ذلك مرادى، بل إن رسول الله ﷺ له من التمكن في التصور بكل صورة حتى يتجلى في هذه الصورة، وقد جرت سنته ﷺ أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلى شأنهم ويقيم ميلانهم، فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم» (٣٣٦).

وهذا ما قاله الدكتور أبو العلاء العفيفى معلقاً على الفص السابع والعشرين (فصّ حكمة فردية في كلمة محمدية) من فصوص ابن عربى، فقال:

«شاع من أوائل عهد الاسلام القول بأزلية محمد عليه السلام، أوبعبارة أدق بأزلية «النور المحمدي». وهو قول ظهريين الشيعة أولاً ولم يلبث أهل السنة أن أخذوا به، واستند الكل في دعواهم إلى أحاديث يظهر أن أكثرها موضوع. من ذلك أن النبي (ﷺ) قال: «أنا أول الناس في الخلق» ومنها: «أول ما خلق الله نوري»، ومنها:

«كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وغير ذلك من الأحاديث التي استنتجوا منها أنه كان لمحمد عليه السلام وجود قبل وجود الخلق، وقبل وجوده الزماني في صورة النبي المرسل؛ وأن هذا الوجود قديم غير حادث، وعبروا عنه بالنور المحمدي. وقد أفاضت الشيعة في وصف هذا النور المحمدي، فقالوا إنه ينتقل في الزمان من جيل إلى جيل، وأنه هو الذي ظهر بصورة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء، ثم ظهر أخيراً بصورة خاتم النبيين محمد عليه السلام. وبهذا أرجعوا جميع الأنبياء من آدم إلى محمد، وكذلك ورثة محمد إلى أصل واحد. وهو قول نجد له صدى في الغنوصية المسيحية. يقول الأب كليمنت الأسكندري: «ليس في الوجود إلا نبي واحد وهو الانسان الذي خلقه الله على صورته، والذي يحمل فيه روح القدس، والذي يظهر منذ الأزل في كل زمان بصورة جديدة».

نجد لكل هذا الكلام نظيراً في كتب ابن عربي فيما يسميه الكلمة المحمدية أو الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي. فهو لا يقصد بالكلمة المحمدية في هذا الفصل محمداً الرسول، وإنما يقصد الحقيقة المحمدية التي يعتبرها أكمل مجلى خلقي ظهر فيه الحق، بل يعتبره الانسان الكامل والخليفة الكامل بأخص معانيه. وإذا كان كل واحد من الموجودات مجلى خاصاً لبعض الأسماء الالهية التي هي أرباب له، فإن محمداً قد انفرد بأنه مجلى للاسم الجامع لجميع تلك الأسماء، وهو الاسم الأعظم الذي هو «الله». ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة، ومرتبة التعيين الأول الذي تعينت به الذات الأحدية، إذ ليس فوقه إلا هذه الذات المنزهة في نفسها عن كل تعيين وكل صفة واسم ورسم.

ولهذه الحقيقة المحمدية التي هي أول التعينات - وإن شئت فقل أول المخلوقات - وظائف أخرى ينسبها إليها ابن عربي. فهي من ناحية صلتها بالعالم مبدأ خلق العالم، إذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء. أو هي العقل الالهي الذي تجلى الحق فيه لنفسه في حالة الأحدية المطلقة، فكان هذا التجلي بمثابة أول مرحلة من مراحل التنزل الالهي في صور الوجود. فلما انكشفت له حقيقة ذاته وكمالها، وما فيها من أعيان الممكنات التي لا تحصى، أحب إظهار كماله في صور تكون له بمثابة المرايا التي يرى فيها نفسه، فكانت أعيان الممكنات الخارجية تلك المرايا.

ومن ناحية صلة الحقيقة المحمدية بالانسان، يعتبرها ابن عربي صورة كاملة

للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود، ولذلك يسميها آدم الحقيقي، والحقيقة الانسانية. ويعدّها من الناحية الصوفية مصدر العلم الباطن، ومنبعه، وقطب الأقطاب.

في هذا الوصف الاجمالي لما يسميه ابن عربي «الكلمة المحمدية»، أو الحقيقة المحمدية، عناصر مختلفة مستمدة من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والفلسفة المسيحية واليهودية، مضافاً إلى ذلك بعض أفكار من مذهب الاسماعيلية الباطنية والقرامطة. مزج جميع تلك العناصر على طريقته الخاصة، فضيع بذلك معالم الأصول التي أخذ عنها، وخرج على العالم بنظرية في طبيعة الحقيقة المحمدية، لا تقل في خطرها وأهميتها في تاريخ الأديان عن النظريات التي وضعها المسيحيون في طبيعة المسيح، أو النظريات اليهودية أو الرواقية، أو اليونانية التي تأثرت بها النظرية المسيحية» (٣٣٧).

وبمثل ذلك قال الفرغاني :

«وكل نبي من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ مظهر من مظاهر نبوة الروح الأعظم. فنبوته ذاتية دائمة، ونبوة المظاهر عرضية منصرمة، إلا نبوة محمد ﷺ، فانها دائمة غير منصرمة، اذ حقيقته حقيقة الروح الأعظم، وصورته صورة الحقيقة التي ظهر فيها بجميع أسمائها وصفاتها. وسائر الأنبياء مظاهرها ببعض الأسماء والصفات، تجلت في المظهر المحمدي بذاتها وجميع صفاتها، وختم به النبوة، فكان الرسول ﷺ سابقاً على جميع الأنبياء من حيث الحقيقة، متأخراً عنهم من حيث الصورة، كما قال: نحن الآخرون السابقون، وقال: كنت نبيا وآدم بين الماء والطين: وفي رواية أخرى: بين الروح والجسد: أي لا روحاً ولا جسداً» (٣٣٨).

ويدل أيضاً على اعتقاد الصوفية بالتناسخ ما ذكره الدباغ في الابريز بأن روح الوليّ تقدر على أن تخرج من ذات الولي وتتصور بصورة غير صورته (٣٣٩). وأيضاً ما ذكره الشعراني عن صوفي أنه «ظهر لأعدائه في هيئة أسد عظيم» (٣٤٠).

(٣٣٧) فصوص الحكم لابن عربي - قسم التعليقات الثاني ص ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١.

(٣٣٨) المقدمات للفرغاني مخطوط ورقة ١١ إلى ١٤ نقلاً عن كتاب ختم الأولياء ص ٤٨٦ ط بيروت.

(٣٣٩) انظر الابريز للدباغ ص ٢٠٤.

(٣٤٠) انظر طبقات الشعراني ج ٢ ص ٣.

وكذلك ذكر المنوفى فى جمهرته صوفيا «كان يظهر فى مظهر السباع والفيلة» (٣٤١)

فالحاصل أن الصوفية اقتبسوا من الشيعة هذه الأفكار، وأخذوا منهم هذه العقائد الزائفة الزائغة الباطلة، وقالوا عن أوليائهم مثل ذلك، بل زادوا عليهم فى غلوئهم وغيهم وضلالهم، حيث قالوا نقلا عن ابراهيم الدسوقي أنه قال عن نفسه فى أبياته:

«أنا ذلك القطب المبارك أمره
أنا شمس إشراق العقول ولم أفل
يرونى فى المرأة وهى صديـة
وبى قامت الأنبياء فى كل أمة
ولا جامع إلا ولى فيه منبر
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة
فلىلى وهند والرباب وزينب
عبارات أسماء بغير حقيقة
نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداءه
أنا كنت مع إدريس لما أتى العلا
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة

فإن مدار الكل من حول ذروتى
ولا غبت إلا عن قلوب عمية
وليس يرونى بالمرأة الصقيلة
بمختلف الآراء والكل أمتى
وفى حضرة المختارفت ببيغيتى
أجدد فيها حلة بعد حلة
وعلوى وسلمى بعدها وبثينة
ومالوحوا بالقصد إلا لصورتى
وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
على الدرة البيضاء فى خلويتى
بلطف عنايات وعين حقيقة
وأسكن فى الفردوس أنعم بقعة
وأعطيت داودا حلاوة نغمة
بحارا وطوفانا على كف قدرة
أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة» (٣٤٢)

وروا عن أحد المتصوفة البارزين أنه كان يقول:

«أنا موسى الكليم فى مناجاته، أنا على فى حملاته، أنا كل ولى فى الأرض
خلقته بيدى، ألبس منهم من شئت، أنا فى الساء شاهدت ربى، وعلى الكرسي
خاطبته، أنا بيدى أبواب النار أن أغلقها أغلقها بيدى، ويدي جنة الفردوس أن
فتحتها أفتحتها، ومن زارنى أدخلته جنة الفردوس» (٣٤٣).

(٣٤١) انظر جمهرة الأولياء للمنوفى الحسينى ج ٢ ص ٢٦٤.

(٣٤٢) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨٠، ١٨١.

(٣٤٣) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٨٠، أيضا النسخة العلية فى أورداد الشاذلية جمع عبد القادرزكى ص ٢٥٦ ط

مكتبة المتبنى القاهرة.

وقال فتح الله بوراس :

«أنا كلّ ولى فى الأرض قد أوليته

أنا كل حكيم من أهل السماء قد علمته

وأيوب من جميع الأمراض قد أشفيته

وبصر يعقوب أنا الذى قد رددته

وابنه يوسف من الجبّ الغريق قد أظهرته

ويونس من بطن الحوت بالعراء قد نبذته

ونوح من بحر الطوفان أنا الذى أنجيتـه

وفى السماء السابعة شاهدت ربّى وكلمته

وبيدى باب الجنان قد فتحته ودخلته

وما فيه من الحور العين قد رأيته وحصيته

ومن رآنى ورأى من رآنى وحضر مجلسى

فى جنة عدن وبستانها قد أسكته» (٣٤٤).

وذكر فريد الدين العطار عن أبى يزيد البسطامى أنه سئل عن العرش

والكرسى فقال: «أنا العرش والكرسى، وقال: أنا ابراهيم، وأنا موسى، وأنا

محمد» (٣٤٥). وهذا عين ما رواه الشيعة أنفسهم عن علي رضى الله عنه أنه قال:

«أنا اللوح، وأنا القلم، وأنا العرش، وأنا الكرسى، وأنا السموات السبع،

وأنا السموات الحسنى، والكلمات العليا» (٣٤٦).

والجدير بالذكر أن الصوفية ينقلون لبيان معتقداتهم نفس الروايات الموضوعة

المكذوبة التى يرونها الشيعة عن على رضى الله عنه وأولاده.

فمثلا يروى الشعرانى ومحمد الرفاعى وغيرهما عنه رضى الله عنه أنه كان يقول

فى خطبته على رؤوس الأشهاد:

«أنا نقطة بسم الله، أنا جنب الله، الذى فرطتم فيه، أنا القلم وأنا اللوح

المحفوظ، وأنا العرش وأنا الكرسى، وأنا السموات السبع والأرضون» (٣٤٧).

(٣٤٤) الوصية الكبرى لعبد السلام الفيتورى ص ٧٤، ٧٥ ط طرابلس ليبيا ١٣٩٦ هـ .

(٣٤٥) انظر تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٩٩ ط باكستان .

(٣٤٦) مشارق أنوار اليقين لحافظ رجب البرسى ص ١٥٩ ط دار الأندلس بيروت الطبعة الحادية عشر .

(٣٤٧) الجواهر والدرر للشعرانى ج ٢ ص ٣١١ بهامش الابريز للدباغ ط مصر .

مَرَاتِبُ الصَّوْفِيَّةِ

وأما مراتب الصوفية، التي وضعوها لبيان طبقات المتصوفة ومكانتهم، وقدرتهم واختيارهم على الخلق، وأعدادهم، وهم حسب كلام لسان الدين بن الخطيب: «خواص الله في أرضه، ورحمة الله في بلاده على عباده: الأبدال، والأقطاب، والأوتاد، والعرفاء، والنجباء، والنقباء، وسيدهم الغوث» (٣٤٨).

ولدى الهجویری هم: «أهل الحل والعقد، وقادة حضرة الحق جل جلاله، فثلاثائة يدعون الأخيار، وأربعون آخرون يسمون الأبدال، وسبعة آخرون يقال لهم: الأبرار، وأربعة يسمون الأوتاد، وثلاثة آخرون يقال لهم: النقباء، وواحد يسمى القطب والغوث.

وهؤلاء جميعا يعرفون أحدهم الآخر، ويحتاجون في الأمور لأذن بعضهم البعض» (٣٤٩).

ومثل ذلك ذكرهم الجرجاني في تعريفاته :

«القطب، وهو الغوث: عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ومكان، وهو على قلب اسرائيل عليه السلام.

الامامان: هما شخصان، أحدهما عن يمين الغوث ونظرة في الملكوت، والآخر عن يساره، ونظرة في الملك، وهو أعلى من صاحبه، وهو الذي يخلف الغوث.

الأوتاد: عبارة عن أربعة رجال منازلهم على أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة.

البدلاء: هم سبعة، ومن سافر من القوم عن موضعه وترك جسدا على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد، فذلك هو البدل لا غير، وهم على قلب ابراهيم عليه السلام.

النجباء: أربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق فلا يتصرفون إلا في حق الغير.

(٣٤٨) انظر روضة التعريف ص ٤٣٢ .

(٣٤٩) كشف المحجوب للهجویری ترجمة عربية ص ٤٤٧، ٤٤٨

النقباء: هم الذين استخرجوا خبايا النفوس، وهم ثلاثمائة» (٣٥٠).

وهذا الترتيب مأخوذ عن ابن عربي في فتوحاته كما قال:

«والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات أمهات: أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء» (٣٥١).

ومثل ذلك ورد في (الوصية الكبرى) لشيخ العروسية عبد السلام الفيتوري (٣٥٢).

وفي (جامع الأصول في الأولياء) للكمشخانوي (٣٥٣).

وفي (طبقات السلمي) للسلمي (٣٥٤).

ولا بأس من إيراد عبارة داود بن محمود القيصرى ههنا، لما فيها من زيادة توضيح لهذا الأمر، فيقول:

«ولهم مراتب. الأولى مرتبة القطبية، ولا يكون فيها أبداً إلا واحد بعد واحد. ويسمى غوثاً، لكونه مغياً للخلق في أحوالهم. ثم مرتبة الامامين، وهما كالوزيرين للسلطان. أحدهما صاحب اليمين، وهو المتصرف بإذن القطب في عالم الملكوت والغيب، وثانيهما صاحب اليسار، وهو المتصرف في عالم الملك والشهادة. وعند ارتحال القطب إلى الآخرة، لا يقوم مقامه، منها، الا صاحب اليسار، لكونه أكمل في السير من صاحب اليمين: لأنه، بعد، ما نزل في السير من عالم الملكوت إلى عالم الملك، وصاحب اليسار نزل اليه، وكملت دايـرته في السير والوجود. ثم مرتبة الأربعة، كالأربعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين! ثم مرتبة البدلاء السبعة، الحافظين للاقاليم السبعة. وكل منهم قطب للاقليم الخاص به. ثم مراتب الأولياء العشرة، كالعشرة المبشرة. ثم مراتب الاثنى عشر، الحاكمين على البروج الاثنى عشر، وما يتعلق بها ويلزمها من حوادث الاكوان. ثم العشرين والأربعين والتسعة والتسعين، مظاهر الأسماء الحسنى، الى الثلاثمائة والستين.

«وهؤلاء قايمون في العالم على سبيل البدل، في كل زمان، لا يزيد عددهم ولا

(٣٥٠) التعريفات للجرجاني ص ١٥٤.

(٣٥١) الفتوحات المكية لابن عربي ج ٢ ص ٤٠.

(٣٥٢) انظر ص ٤٨.

(٣٥٣) انظر ص ١٠٧.

(٣٥٤) انظر ص ٥٧.

ينقص إلى يوم القيامة . وغيرهم من الأولياء يزيدون وينقصون ، بحسب ظهور التجلي الالهي وخفائه . وبعدهم : مرتبة الزهاد والعباد والعلماء من المؤمنين ، الكائنين في كل زمان إلى يوم الدين . وجميع هؤلاء المذكورين ، داخلون في حكم القطب .

«والأفراد الكمل ، الذين تعادل مرتبتهم مرتبة القطب إلا في الخلافة ، هم الخارجون من حكمه . فانهم يأخذون من الله ، سبحانه ، ما يأخذون من المعاني والأسرار الالهية بخلاف الداخلون في حكمه ، فانهم لا يأخذون شيئاً إلا منه» (٣٥٥) .

وقد ذكرهم المستشرق الفرنسيون ماسينيون بقوله :

«ويزعم الصوفية أن العالم يدوم بقاءه بفضل تدخل طبقة من الأولياء المستورين عددهم محدود ، وكلما قبض منهم واحد خلفه غيره ، ورجال الغيب هم : ثلاثمائة من النقباء ، وأربعون من الأبدال ، وسبعة أمناء ، وأربعة عمد ، ثم القطب ، وهو الغوث» (٣٥٦) .

فهذه المراتب والترتيب والأعداد لم يأخذها المتصوفة إلا من الشيعة أيضاً ، وخاصة من الشيعة الاسماعيلية والنصيرية كما ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية في رسائله وفتاواه :

«وأما الأسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامّة مثل الغوث الذي يكون بمكة ، والأوتاد الأربعة ، والأقطاب السبعة ، والأبدال الأربعين ، والنجباء الثلاثمائة ، فهذه الأسماء ليست موجودة في كتاب الله ، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ لا باسناد صحيح ولا ضعيف محتمل ، إلا لفظ الأبدال فقد روى فيهم حديث شامى منقطع الاسناد عن علي بن أبي طالب مرفوعاً الى النبي ﷺ أنه قال : ان فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال أربعين رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً : ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذه الترتيب . . . وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من امام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الايمان إلا به ، ثم مع هذا يقولون : انه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة ، ولا يعرف له عين ولا أثر ، ولا يدرك له حس ولا خبر .

(٣٥٥) شرح مقدمة التائية الكبرى للقصيرى مخطوط ص ١٠٤ نقلا عن كتاب ختم الأولياء للترمذى الحكيم

ص ٤٩٥ ط بيروت .

(٣٥٦) التصوف لماسينيون ترجمة عربية ص ٤٥ ، ٤٦ .

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم معناها للرافضة من بعض الوجوه، بل هذا الترتيب والاعتداد يشبه من بعض الوجوه ترتيب الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم في السابق والتالى والناطق والأساس والحدّ وغير ذلك من الترتيب الذى ما أنزل الله به من سلطان» (٣٥٧).

وبذلك قال ابن خلدون فى هذا الخصوص، والمسائل الأخرى التى ذكرناها بأن المتصوفة أخذوها من التشيع، فيقول:

«إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملاؤا الصحف منه مثل الهروي فى كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأوهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا فى كتاب الاشارات فى فضول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء» (٣٥٨).

هذا وقد أقر بذلك أحمد أمين المصرى، فكتب: «أن الصوفية اتصلت بالتشيع اتصالاً وثيقاً، وأخذت فيما أخذت عنه فكرة المهدي، وصاغتها صياغة جديدة وسمته «قطباً»، وكونت مملكة من الأرواح على نمط مملكة الأشباح، وعلى رأس هذه المملكة الروحية القطب، وهونظير الإمام أو المهدي فى التشيع؛ والقطب هو الذى «يدبر الأمر فى كل عصر، وهو عماد السماء، ولولاه لوقعت على الأرض»؛ ويلى القطب النجباء، قال ابن عربى فى الفتوحات المكية: «وهم اثنا عشر نقيباً فى كل زمان، لا يزيدون ولا

(٣٥٧) انظر مجموعة الرسائل والمسائل للإمام ابن تيمية ج ١ ص ٥٧ و ٦٠ ط بيروت ١٩٨٣ م، كذلك مجموعة فتاوى ابن تيمية ج ١١ ص ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٩.
(٣٥٨) انظر مقدمة ابن خلدون الفصل الجادى عشر فى علم التصوف ص ٤٧٣ ط القاهرة.

ينقصون، على عدد بروج الفلك الاثنى عشر، كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات... واعلم أن الله تعالى قد جعل بأيدي هؤلاء النقباء علوم الشرائع المنزلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة مكرهات وخداعها، وإبليس مكشوف عندهم، يعرفون منه ما لا يعرفه من نفسه، وهم من العلم بحيث اذا رأى أحدهم وطأة شخص في الأرض علم أنها وطأة سعيد أو شقيّ مثل العلماء بالآثار والقيافة» (٣٥٩).

وأما من أراد مقارنة هذه المراتب بالمراتب الاسماعيلية فليرجع إلى كتابنا (الاسماعيلية القدامى تاريخ وعقائد) الباب السابع منه (ماهية الدعوة الاسماعيلية ونظامها).

ولا بأس من ايراد عبارة عن القاضى الاسماعيلى النعمان بن محمد المغربى، ذكر فيها أصحاب المراتب العليا، فيقول:

«والحدود السفلية هم: الأسس، الأئمة، والحجج، والنقباء، والأجنحة» (٣٦٠).

ومثل ذلك ذكر الداعى الاسماعيلى حميد الدين الكرمانى فى كتابه راحة العقل (٣٦١).

وابراهيم بن الحسين الحامدى (٣٦٢).

فهذه هى العقيدة الشيعية الأخرى التى تسربت إلى التصوف، وتحكمت فيهم، وسنوضح معانى هذه المصطلحات مع القضايا الأخرى فى جزء مستقل من هذا الكتاب إن شاء الله.

(٣٥٩) ضحى الاسلام لأحمد أمين ص ٢٤٥ ط القاهرة ١٩٥٢م.

(٣٦٠) انظر أساس التأويل للنعمان القاضى المغربى ص ٧١، ٧٠ ط دار الثقافة بيروت.

(٣٦١) انظر ص ٢٥٢ وما بعد.

(٣٦٢) انظر تحفة القلوب ورقة ١٤٤ نسخة خطية فى مكتبتى.

التقية

من أهم المبادئ الشيعية وأسسهم ومعتقداتهم الاخفاء والكتان، و اظهار ما لا يعتقدونه في السر، و اعلان ما يبطنون خلافه، وهذا من أخطر ما يؤمن به الشيعة، ويميزهم من الطوائف المسلمة الأخرى، وبحول بينهم وبين الالتقاء بهم، لأنه لا يعلم ظاهريهم من باطنيهم، وكذبهم من صدقهم، كما قال السيد محب الدين الخطيب:

«وأول موانع التجاوب الصادق بالاخلاص بيننا وبينهم ما يسمونه التقية، فانها عقيدة دينية تبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يبطنون، فيخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم في التفاهم والتقارب، وهم لا يريدون ذلك ولا يرضون به ولا يعملون له» (٣٦٣).

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية:

«النفاق والزندقة في الرافضة أكثر منه في سائر الطوائف، بل لا بد لكل منهم من شعبة نفاق، فان أساس النفاق الذي بنى عليه الكذب، وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين: انهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية، وتحكى هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك حتى يحكوا ذلك عن جعفر الصادق أنه قال: التقية ديني ودين آبائي، وقد نزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقا وتحقيقا للإيمان، وكان دينهم التقوى، لا التقية» (٣٦٤).

فهناك روايات كثيرة فوق الحصر، التي أوردتها الشيعة في كتبهم لاعتناق هذه العقيدة من أئمتهم المعصومين، ونحن أوردنا العديد منها في كتابنا الشيعة والسنة، وخصصنا بابا مستقلا ليبيان هذا المبدأ وأهميته عند القوم، كما عقدنا فصلا مستقلا في كتابنا الجديد (بين الشيعة وأهل السنة) لهذا الموضوع، فمن أراد التعمق والتفصيل فليرجع اليهما، ولكن نذكر هنا روايتين عن القوم:

(٣٦٣) الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها مذهب الشيعة الاثني عشرية ص ٨ الطبعة السادسة.

(٣٦٤) منهاج السنة النبوية لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ١ ص ١٥٩ ط باكستان.

روى الكشى عن حسين بن معاذ بن مسلم النحوى: «عن أبى عبد الله (ع) قال:

«قال لى (أبو عبد الله): بلغنى أنك تقعد فى الجامع، فتفتى الناس؟ قال: قلت: نعم، وقد أردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج إنى أقعد فى الجامع، فيجىء الرجل، فيسألنى عن الشىء فاذا عرفته بالخلاف أخبرته بما يقولون... قال (أى معاذ بن مسلم) فقال لى (أبو عبد الله): اصنع كذا، فانى أصنع كذا» (٣٦٥).

ورواية أخرى رواها الكلينى عن جعفر أنه قال لأصحابه معلى بن خنيس: «يا معلى، اكنم لأمرنا ولا تدعه، فانه من كنم أمرنا ولم يدعه أعزه الله به فى الدنيا، وجعله نورا بين عينيه فى الآخرة، يقوده فى الجنة. يا معلى، من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به فى الدنيا، ونزع النور من بين عينيه فى الآخرة، وجعله ظلمة تقوده إلى النار.

يا معلى، ان التقية من دينى ودين آبائى، ولا دين لمن لا تقية له» (٣٦٦).

وعلى ذلك قال صدوقهم ابن بابويه القمى:

«اعتقدنا فى التقية أنها واجبة، لا يجوز رفعها إلى أن يقوم القائم، ومن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الامامية، وخالف الله ورسوله والأئمة» (٣٦٧).

وقال مفيدهم:

«التقية كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه، ومكاتمة المخالفين، وترك مظاهرهم بما يعقب ضررا فى الدين أو الدنيا، وفرض ذلك اذن علم بالضرورة أو قوى فى الظن» (٣٦٨).

فهذا هو معتقد الشيعة ومبدؤهم الذى اشتهروا به، وعيروا عليه، وطعنوا فيه.

ولكن المتصوفة أخذوه بكامله عنهم، وزادوا عليهم حيث اتهموا رسول الله بتهمة برأ الله ساحته عنها بقوله: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ (٣٦٩).

(٣٦٥) رجال الكشى ص ٢١٨ تحت ترجمة معاذ بن مسلم ط مؤسسة الأعلمى كربلاء العراق.

(٣٦٦) الأصول من الكافى للكلينى ج ٢ ص ٢٢٣، ٢٢٤ ط إيران.

(٣٦٧) الاعتقادات لابن بابويه القمى ص ٤٤.

(٣٦٨) شرح اعتقادات الصدوق فصل التقية ص ٢٤١.

(٣٦٩) سورة التكويد الآية ٢٤.

واستندوا بحديث مكذوب على رسول الله ﷺ مع علمهم بأنه هو القائل :
 «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (٣٧٠).
 فقالوا :

«أمر الله نبينا محمدا ﷺ بكنتم أشياء مما لا يسعه غيره للحديث المروى عنه ﷺ
 أنه قال : أوتيت ليلة أسرى بى ثلاثة علوم ، فعلم أخذ على في كتبه ، وعلم خيرت في
 تبليغه ، وعلم أمرت بتبليغه .

فالعلم الذى أمر بتبليغه هو علم الشرائع ، والعلم الذى خير في تبليغه هو علم
 الحقائق ، والعلم الذى أخذ عليه في كتبه هو الأسرار الإلهية ولقد أودع الله جميع ذلك
 فى القرآن . فالذى أمر بتبليغه ظاهر . والذى خير في تبليغه باطن لقوله (سنريهم آياتنا
 فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقوله (وما خلقنا السموات والأرض
 وما بينهما إلا بالحق) وقوله (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) وقوله
 (ونفخت فيه من روحى) فإن جميع ذلك له وجه يدل على الحقائق ووجه يتعلق
 بالشرائع ، فهو كالتخير ، فمن كان فهمه إلهيا فقد بلغ ذلك ، ومن لم يكن فهمه ذلك
 الفهم وكان مما لو فوجىء بالحقائق أنكرها ، فإنه ما بلغ إليه ذلك لثلا يؤدى ذلك إلى
 ضلالته وشقاوته . والعلم الذى أخذ عليه في كتبه فإنه مودع فى القرآن بطريق التأويل
 لغموض الكتم ، فلا يعلم ذلك إلا من أشرف على نفس العلم أولا ، وبطريق
 الكشف الإلهى ، ثم سمع القرآن بعد ذلك ، فإنه يعلم المحل الذى أودع الله فيه شيئا
 من العلم المأخوذ على النبى ﷺ فى كتبه وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما يعلم تأويله
 إلا الله) على قراءة من وقف هنا ، فالذى يطلع تأويله فى نفسه هو المسمى بالله
 فافهم» (٣٧١).

ويقول أبو نصر السراج الطوسى :
 «ان حقائق رسالة محمد ﷺ وما خصه الله تعالى به من العلم ، لو وضعت على
 الجبال لذابت إلا أنه كان يظهرها لهم على مقاديرهم» (٣٧٢).
 أى لم يظهر النبى ﷺ جميع العلوم التى كان قد خصه الله بها - حسب زعمهم -
 وذلك لأجل أن الناس لم يكونوا يقدرّون على جملها ومعرفتها .

(٣٧٠) رواه البخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد وغيرهم .
 (٣٧١) الانسان الكامل لعبد الكريم الجيلى ج ١ ص ١١٧ الطبعة الرابعة ١٤٠٢ هـ مصر .
 (٣٧٢) كتاب اللمع للطوسى ص ١٥٩ .

وبمثل ذلك نقل الشعراني عن سيده محمد الحنفى أنه قال :
«وههنا كلام لو أبديناك لكم لخرجتم مجانين لكن نظويه عنم ليس من
أهله» (٣٧٣).

وهذا عين ما ذكره الشيعة عن جعفر بن الباقر أنه قال :
«ان عندنا والله سرا من سر الله ، وعلمنا من علم الله ، أمرنا الله بتبليغه ، فبلغنا
عن الله عز وجل ما أمرنا بتبليغه ، فلم نجد له موضعا ولا أهلا ولا حالة
يحملونه» (٣٧٤).

ونسبوا إلى على رضى الله عنه أنه قال :
«ان أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، ولا يعى
حديثنا إلا صدور أمينة ، وأحلام رزينة» (٣٧٥).
أيضا «لا يحتمله ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا مؤمن امتحن الله قلبه
للإيمان» (٣٧٦).

هذا وان الصوفية اتهموا أبا هريرة رضى الله عنه أنه قال :
«حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من العلم : أما أحدهما فبثته في الناس ،
وأما الآخر فلو بثته لقطع منى هذا البلعوم» (٣٧٧).

كما كذبوا على على بن الحسين زين العابدين أنه قال :
«يا ربّ جوهر علم لو أبوح به
لقليل لي : أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي
يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إنى لأكتم من علمى جواهره
كى لا يرى الحق ذوجهل فيفتنا» (٣٧٨).

(٣٧٣) طبقات الشعراني ج ٢ ص ٩٨ .

(٣٧٤) الأصول من الكافي ج ١ ص ٤٠٢ ، أيضا بصائر الدرجات الكبرى للصفا ص ٤٠ .

(٣٧٥) انظر نهج البلاغة .

(٣٧٦) الأصول من الكافي ج ١ ص ٤٠٢ .

(٣٧٧) إيقاظ الهمم لابن عجيبة الحسنى ص ١٤٥ ط مصر .

(٣٧٨) أيضا .

وقال النفزى الرندى :

«فى قلوب الأحرار قبور الأسرار، والسرامانة الله تعالى عند العبد، فافشى بالتعبير عنه خيانة، والله تعالى لا يجب الخائنين، وأيضا فان الأمور المشهودة لا يستعمل فيها إلا الإشارة والاياء، واستعمال العبارات فيها افصح بها واشهار لها، وفى ذلك ابتذالها واذاعتها، ثم ان العبارة عنها لا تزيد لها إلا غموضا وانغلاقا، لأن الأمور الذوقية يستحيل ادراك حقائقها بالعبارات النطقية، فيؤدى ذلك إلى الانكار والقده فى علوم السادة الأخيار.

قال أبو على الروذبارى رضى الله تعالى عنه : علمنا هذا اشارة، فاذا صار عبارة خفى» (٣٧٩).

وأما لسان الدين بن الخطيب فقال :

«حملة علم النبوة هم الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله : علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل، قالوا: وهذا العلم هو الذى لا يجوز كشفه، ولا اذاعته ولا ادعاؤه، ومن كشفه واذاعه وجب قتله واستحل دمه وينسبون فى ذلك إلى خواص النبوة وخلفائها كثيرا كقوله :

ياربّ جوهر علم لو أبوح به
لقليل لي: أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي
يرون أقبح ما يأتونه حسنا» (٣٨٠)

وكان كبار المتصوفة يعملون بهذا المبدأ، ولم يكونوا يظهرون للناس علومهم وأفكارهم كما روى الكلاباذى عن الجنيد أنه قال للشبلى :
«نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا، ثم خبأناه فى السرايب، فجئت أنت، فأظهرته على رؤس الملأ.

فقال : أنا أقول وأنا أسمع، فهل فى الدارين غيرى» (٣٨١).

ونقل الشعرانى كذلك عن الجنيد أنه «كان يستر كلام أهل الطريق عن من ليس

(٣٧٩) غيث المواهب العلية للنفزى الرندى ج ١ ص ٢١٤ .

(٣٨٠) روضة التعريف بالحب الشريف ص ٤٣٢ .

(٣٨١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٧٢ ط القاهرة .

منهم ، وكان يستتر بالفقه والافتاء على مذهب أبى ثور، وكان إذا تكلم فى علوم القوم أغلق باب داره، وجعل مفتاحه تحت وركه» (٣٨٢).

وأيضاً روى عن الشاذلى أنه كان يقول:

«امتنعت عنى الرؤيا لرسول الله ﷺ ، ثم رأيته، فقلت: يارسول الله، ماذا نبى؟ فقال: انك لست بأهل لرؤيتنا لأنك تطلع الناس على أسرارنا» (٣٨٣).

والصوفية يكتمون آراءهم ومعتقداتهم عن غيرهم، ويوصون مريدتهم فى كتبهم ومؤلفاتهم التى كتبت للخاصة وخاصة الخاصة، فالصوفى الشهير عبد السلام الفيتورى يكتب فى كتابه (الوصية الكبرى):

«اخوانى، وسنذكر لكم كلاماً فى المغيبات لكن يجب الامساك عنها إلا لأهله الذين يكتمونهم، ولا ينبغى اظهاره للسفهاء الذين يلحقون به إلى الأمراء والجبابة وأهل الدنيا» (٣٨٤).

وهناك نص مهم جداً ذكره الشعرانى يقطع فى هذا الموضوع فيقول:

وكان بعض العارفين يقول:

«نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا، وكذلك لا يجوز لأحد أن ينقل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به دخل هو والمنقول إليه جهنم الانكار، وقد صرح بذلك أهل الله تعالى على رؤس الأشهاد وقالوا: من باح بالسّر استحق القتل» (٣٨٥).

وقد ذكر الدبّاغ حكايات كثيرة عن الذين لم يكتموا السّر فابتلاهم الله ببلايا عديدة، من القتل والصلب والحرق والعمى وغير ذلك (٣٨٦).

وكان منهم الحلاج، لأنه لم يقتل إلا لأفشاء سرّه (٣٨٧).

وكما يروون أن الخضر عير على الحلاج وهو مصلوب، فقال له الحلاج:

«هذا جزاء أولياء الله؟»

(٣٨٢) البواقيت والجواهر للشعرانى ج ٢ ص ٩٣ ط مصطفى البابى الحلبي مصر ١٣٧٨ هـ.

(٣٨٣) انظر طبقات الشعرانى ج ٢ ص ٧٥.

(٣٨٤) الوصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتورى ص ١٠٥ ط مكتبة النجاح طرابلس ليبيا الطبعة الأولى.

(٣٨٥) البواقيت والجواهر للشعرانى ص ١٧ ط مصطفى البابى الحلبي مصر.

(٣٨٦) انظر الابريز للدبّاغ ص ١٢.

(٣٨٧) انظر تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ص ٢٥٢ ط باكستان.

فقال له الخضر: نحن كتمنا فسلمنا، وأنت بحث فمت» (٣٨٨).

وكما رووا عن أبي بكر الشبلي أنه قال:

«كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا إلا أنه أظهر وكتمت» (٣٨٩).

وننقل أخيرا أن أحمد بن زروق، وابن عجيبة ذكرا عن الجنيد أنه كان يجيب عن المسألة الواحدة بجوابين مختلفين، فكان يجيب هذا بخلاف ما يجيب ذاك (٣٩٠).

هذا عين ما رواه الشيعة على محمد الباقر كما ذكر الكليني عن زرارة بن أعين أنه قال:

«سألت أبا جعفر عن مسألة فأجابني، ثم جاءه رجل فسأله عنها فأجابه بخلاف ما أجابني. ثم جاء رجل آخر فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلما خرج الرجلان قلت: يا ابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان فأجبت كل واحد منهما بغير ما أجبته به صاحبه؟

فقال: يازرارة، ان هذا خير لنا وأبقى لنا ولكم، ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدقكم الناس علينا، ولكان أقل لبقائنا وبقائكم.

قال: ثم قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيعتكم لو حملتموهم على الأُسنة أو على النار لمضوا وهم يخرجون من عندكم مختلفين، قال: فأجابني بمثل جواب أبيه» (٣٩١).

فهذا هو المبدأ الخطير الآخر الذي أخذه المتصوفة من الشيعة ليكونوا حزبا سرّيا يعمل في الخفاء لهدم مبادئ الاسلام وتعاليمه، ولتأسيس ديانة جديدة تعمل لتوهين القوى الاسلامية ونشاط المسلمين لنشر الكتاب والسنة، والتقاعد عن الجهاد والغزوات، وبناء المجتمع الاسلامي على أسس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد وضعناه أمام الباحثين والقراء مع المقارنة بين أفكار الأخذيين والذين أخذ عنهم، معتمدين على أوثق الكتب وأثبتها وأهمها لدى الطرفين.

(٣٨٨) شرح حال الأولياء لعز الدين المقدسي مخطوط ورقة ٢٥١.

(٣٨٩) أربعة نصوص ص ١٩ بتحقيق ماسينيون. ط باريس.

(٣٩٠) انظر قواعد التصوف لابن زروق ص ١١. ط القاهرة، أيضا ابقاظ الهمم لابن عجيبة ص ١٤٤.

(٣٩١) الأصول من الكافي كتاب فضل العلم باب اختلاف الحديث ج ١ ص ٦٥. ط طهران.

الظَاهِرُ وَالْبَاطِنُ

وأما الفكرة الأخرى التى تسرّبت إلى التصوف من التشيع، واعتنقها الصوفية بتمامها هى فكرة تقسيم الشريعة إلى الظاهر والباطن، والعام والخاص.

ومنها تدرّجت وتطرّقت إلى التأويل الباطنى والتفسير المعنوى، وتفریق المسلمين بين العامة والخاصة، فإن الشيعة بجميع فرقها، وخاصة الاسماعيلية منهم يعتقدون أن لكل ظاهر باطنا، وقد اختص بمعرفة الباطن علىّ رضى الله عنه، وأولاده أى أئمتهم المعصومون حسب زعمهم، فسَمّوا الموالين لهم بالخاصة، وغير المؤمنين بهذه الفكرة بالعامة.

فلقد قالوا:

«لابدّ لكل محسوس من ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع الحواسّ عليه، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنّه فيه، وظاهره مشتمل عليه» (٣٩٢).

وكذبوا على رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما نزلت علىّ آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حدّ، ولكل حدّ مطلع» (٣٩٣).

ثم قسموا الظاهر والباطن بين النبى والوصى حيث قالوا:

«كانت الدعوة الظاهرة قسط الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والدعوة الباطنة قسط وصيّهِ الذى فاض منه جزيل الانعام» (٣٩٤).

ثم قالوا:

«ان الظاهر هو الشريعة، والباطن هو الحقيقة، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد صلوات الله عليه، وصاحب الحقيقة هو الوصى علىّ بن أبى طالب» (٣٩٥).

هذا ولقد فصلنا القول فى ذلك فى كتابنا (الاسماعيلية القدامى تاريخ وعقائد)

(٣٩٢) كتاب أساس التاويل للنماني القاضي ص ٢٨. ط دار الثقافة بيروت.

(٣٩٣) أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي تحقيق صلاح الصادى. ط انجمن فلسفة ايران ١٣٩٧هـ.

(٣٩٤) كتب الذخيرة فى الحقيقة للداعى الاسماعيلى على بن الوليد المتوفى سنة ٦١٢هـ ١١٣. ط دار الثقافة

بيروت.

(٣٩٥) انظر الافتخار للداعى أبى يعقوب السجستاني ص ٧١. ط لبنان.

حيث بَوَّنا بابا مستقلا لبيان هذه العقيدة الخطرة للتلاعب بنصوص القرآن والسنة .
فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه .

وان الشيعة الآخرين كالشيعة الاثنى عشرية يقولون بهذا القول أيضا كما روى
كلينهم في كافيه عن موسى الكاظم - الامام السابع عندهم - أنه قال :
« ان القرآن له ظهر وبطن » (٣٩٦) .

وأيضاً ما رواه ابن بابويه القمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في
حديث طويل أنه قال :

« ان رسول الله صلى الله عليه وآله علمني ألف باب من العلم يفتح كل باب
ألف باب ، ولم يعلم ذلك أحد غيري » (٣٩٧) .

ويقولون : ان هذه العلوم توارثها أئمتهم بعده ، فعلى ذلك يقول الكليني
محدث الشيعة في خطبة كتابه :

« فأوضح الله بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا صلى الله عليه وآله عن دينه ،
وأبلغ بهم عن سبيل مناهجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، وجعلهم مسالك
لمعرفته ، ومعالم لدينه ، وحجاً بابا بينه وبين خلقه ، والباب المؤدّي إلى معرفة حقه ،
وأطلعهم على المكنون من غيب سره .

كلما مضى منهم إمام نصب لخلق من عقبه إماماً بيننا ، وهادياً نيراً ، وإماماً قيماً ،
يهدون بالحق وبه يعدلون » (٣٩٨) .

والجدير بالذكر أن التفريق بين الشريعة والحقيقة ، وبين الظاهر والباطن من
خواص التشيع إلا أنه لا توجد طائفة شيعية إلا وتؤ من بذلك ، وكتب الفرق والكلام
شاهدة على هذا ، بل انهم لم يختلفوا فيما بينهم في تعيين الامام إلا بناء على هذا
المبدأ ، حيث أنهم اختلفوا : « إلى من أفضى الامام الراحل أسرار العلوم واطلاعه
على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل ، وتصوير
الظاهر على الباطن ، لأنهم كلهم مؤمنون بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل شخص

(٣٩٦) انظر كتاب الحجة من أصول الكافي للكليني ج ١ ص ٣٧٤ . ط طهران .

(٣٩٧) كتاب الخصال لابن بابويه القمي أبواب السبعين وما فوقه ص ٥٧٢ . ط مكتبة الصدوق ١٣٨٩ هجري

قمي .

(٣٩٨) الأصول من الكافي خطبة الكتاب ج ١ ص ٤ .

روحا، ولكل تنزيل تأويلا، ولكل مثال حقيقة في هذا العالم» (٣٩٩).

فحاصل ما قلناه ان تقسيم الشريعة والعلوم إلى الظاهر والباطن من أهم الميزات التي تتميز بها الشيعة بفرقها عن الآخرين من المسلمين، وهم الذين تقولوا بها متأثرين باليهودية التي استقوا منها أفكارهم، بوساطة عبد الله بن سبأ اليهودي، المؤسس الحقيقي الأول لديانتهم ومذهبهم.

ثم أخذ المتصوفة بدورهم أفكار الشيعة ومعتقداتهم، فأمنوا بها واعتقدوها، وجعلوها من الأصول والقواعد لعصابتهم، فقالوا مثل ما قاله الشيعة والفرق الباطنية:

«العلوم ثلاثة: ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الانسان له ظاهر، وباطن، وباطن الباطن».

فعلم الشريعة ظاهر، وعلم الطريقة باطن، وعلم الحقيقة باطن الباطن» (٤٠٠).

وقال الطوسي أبونصر السراج:

«ان العلم ظاهر وباطن... ولا يستغنى الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عز وجل: ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم: فالمستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك... فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والاسلام ظاهر وباطن» (٤٠١).

وذكر المتصوفة نفس تلك الرواية التي نقلها الشيعة والاسماعيلية، وهي:

«لكل آية ظاهر وباطن، وحدّ ومطلع» (٤٠٢).

ولم يكن التشابه والتوافق مع الشيعة، والاستفادة والاقتباس منهم منحصرافي

(٣٩٩) انظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠١ بهامش الفصل لابن حزم.

(٤٠٠) انظر الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ص ٣٣٣.

(٤٠١) كتاب اللمع للطوسي ص ٤٣، ٤٤.

(٤٠٢) لطائف المنن لابن عطاء الله الأسكندري ص ٢٤٨ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود. ط مطبعة حسان القاهرة. ١٩٧٤م، أيضا عوارف المعارف للسهروردي ص ٢٥، أيضا روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٤٣١، أيضا ايقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٤٦١، ومثله في جبهة الأولياء للمنوفي ج ١ ص ١٦٠، تفسير ابن عربي ج ٢ ص ٢.

هذا فحسب، بل كان هناك تجانس وتداخل أكثر من هذا، حيث قالوا باختصاص علي رضي الله عنه دون الآخرين بعلم الباطن، فقال قائلهم:

ان جبريل عليه السلام نزل إلى رسول الله ﷺ أولاً بالشرعية، فلما تقررت ظواهر الشريعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة، والحكمة المرجوة من أعمال الشريعة، هي: الايمان والاحسان، فخص رسول الله ﷺ بباطن الشريعة بعض أصحابه دون البعض.

وكان أول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ . . . ثم انتشر هذا الطريق انتشارا لا ينقطع حتى ينقطع عمر الدنيا» (٤٠٣).

وأوردوا في كتبهم تلك الرواية الشيعية بعينها، التي نحن ذكرناها منهم عن علي رضي الله عنه أنه قال:

«علمني رسول الله ﷺ سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدا غيري» (٤٠٤).

وهناك روايات شيعية أخرى كثيرة أوردتها المتصوفة في كتبهم ومؤلفاتهم، مؤيدين لها، مؤمنين بها، مستدلين منها، مثل هذا الحديث الموضوع: «أنا مدينة العلم وعلى بابها» (٤٠٥).

ومنها ما رواه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كذبا عليه أنه قال: «كنا نمشي مع النبي ﷺ فانقطع نعله، فتناولها على يصلحها، ثم مشى، فقال: يا أيها الناس، ان منكم من يقاتله علىّ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» (٤٠٦).

ومثل ذلك ذكر عبد الرحمن الصفوري في كتابه (نزهة المجالس ومنتخب النفائس) (٤٠٧).

وقال ابن الفارض في تائيته:

«وأوضح بالتأويل ما كان مشكلا علىّ بعلم ما ناله بالوصية» (٤٠٨).

(٤٠٣) جبهة الأولياء لأبي الفيض المتوفى الحسيني ج ١ ص ١٥٩.

(٤٠٤) انظر درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص ص ٧٣ بهامش الأبريز للدباغ. ط مصر.

(٤٠٥) انظر مطالع المسرات لمحمد المهدي بن أحمد. ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٠ م.

(٤٠٦) جبهة الأولياء لأبي الفيض المتوفى الحسيني ج ٢ ص ٢٨.

(٤٠٧) انظر ص ٢٠٩. ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان.

(٤٠٨) ديوان ابن الفارض ص ٨١. ط مكتبة القاهرة ١٣٩٩ هـ.

وهذا تشيع محض بدون شك ولا شبهة .

وكذلك ما قاله ابن عربى فى تفسيره مفسرا قول الله عز وجل : ﴿عم يتساءلون
عن النبأ العظيم﴾ .

«انه القيامة الكبرى ، ولهذا قيل : ان أمير المؤمنين علي هو النبأ العظيم ، وهو
فلك نوح أى الجمع والتفصيل - باعتبار الحقيقة والشرعية - لكونه جامعا لهما» (٤٠٩) .

وعلى ذلك قال الهجویری :

«على بن أبى طالب رضى الله عنه هو ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ،
وحريق نار الولاء ، وقدرة الأولياء والأصفياء أبو الحسن على بن أبى طالب كرم الله
وجهه .

وله فى هذه الطريقة شأن عظيم ، ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام فى دقة التعبير
عن أصول الحقائق إلى حدّ أن قال الجنيد رحمه الله : شيخنا فى الأصول والبلاء على
المرتضى رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو إمام هذه الطريقة فى العلم والمعاملة ، فأهل
الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها
بالمعاملات» (٤١٠) .

والطوسى قال نقلا عن أبى على الروذبارى أنه قال :

«سمعت جنيدا رحمه الله يقول : رضوان الله على أمير المؤمنين على رضى الله
عنه ، لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معانى كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى
علم اللدنى ، والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام ، قال الله
تعالى : وعلمناه من لدنا علما» (٤١١) .

ثم نقل عن على رضى الله عنه أشياء وقال بعده :

«ولعلى رضى الله عنه أشباه ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التى
يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الاشارات وأهل المواجيد من الصوفية» (٤١٢) .

(٤٠٩) تفسير ابن عربى ج ٢ ص ١٨٤ .

(٤١٠) كشف المحجوب للهجویری ترجمة عربية ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٤١١) كتاب اللمع للطوسى ص ١٧٩ . ط دار الكتب الحديثة مصر .

(٤١٢) أيضا ص ١٨٢ .

فهذه العبارات كلها لم تكن مقتبسة منقولة من الشيع ، بل انها شيعية صرفة .
وبعد هذا كله نريد أن نبين توغل الصوفية في علم الباطن وعلاقتهم به ،
وسبب التجائهم اليه ، فنقول :

«إن الصوفية يقولون : إن علم الباطن هو المسمى بعلم القلب ويعلم التصوف ، علم جليل شريف نفيس ، وهو أجل العلوم وأشرفها ، وهو الزبدة الممخوذة من الشريعة التي لم تبعث الأنبياء عليهم السلام إلا لأجلها . . . وهو علم طريق الآخرة ، وهو العلم الذي درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهو العلم الذي لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله . وقد ساء الله تعالى في كتابه فقها وعلماء وضياء ونورا وهدى ورشدا ، وهو مستخرج من القرآن والسنة ، ومدلول عليه منهما نصا وتصريحا وتلويا وكتابة وإشارة وغير ذلك من أصناف الدلالة .

قال الغزالي : علم الباطن هو علم يقين المقربين ، وثمرته الفوز برضا الله تعالى ، ونيل سعادة الأبد ، وبه تركية النفس وتطهيرها ، وتنوير القلب وصفاءه بحيث ينكشف بذلك النور أمور جليلة ، ويشهد أحوالا عجيبة ، ويعاين ما نمت عنه بصيرة» (٤١٣) .

وقالوا :

«هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن
والعلم الظاهر هو علم العبودية والعلم الباطن هو علم الربوبية» (٤١٤)

وقالوا :

«لا تجعلوا أحدا من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن» (٤١٥) .

وخلاصة هذا أن علم الباطن هو التصوف بعينه ، وهو ما أشار اليه الكلاباذي نقلا عن عبد الواحد بن زيد أنه قال :

«سألت الحسن عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال : هو سر من سرى ، أجعله في

(٤١٣) حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحب لعبد الدين الأموي ج ١ ص ٢٥٩ و ٢٦١ بهامش قوت القلوب لأبي طالب المكي . ط دار صادر بيروت .

(٤١٤) الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ص ٣٣٣ .

(٤١٥) قواعد التصوف

قلب عبدى، لا يقف عليه أحد من خلقى .

قال أبو الحسن بن أبى ذر فى كتابه منهاج الدين أنشدونا للشبلى :
علم التصوف لا نفاذ له علم سنّى سماوى ربوبى
فيه الفوائد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والصنع الخصوصى^(٤١٦)

وبالغوا فى مدحه حتى قالوا :

«سئل بعض العلماء عن علم الباطن : أى شىء هو؟
فقال : سرّ من سرّ الله تعالى يقذفه فى قلوب عباده لم يطلع عليه ملكا ولا
بشرا»^(٤١٧) .

و«علم الباطن سرّ من أسرار الله»^(٤١٨) .

وكذب الآخر على رسول الله ﷺ حيث نسب هذا الكلام اليه صلوات الله
وسلامه عليه فقال :

«علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكمته من حكمته يقذفه فى قلوب من
يشاء من عباده»^(٤١٩) .

ولقد بينّ داود القيصرى من هم أصحاب العلم الباطن ، وما هى قيمتهم
ومنزلتهم مقابل أصحاب الظاهر ، شارحا مبينا الحديث الموضوع الذى ذكرنا فيما
سبق ، فيقول :

«ولما كان للكتاب ظهر وبطن وحد ومطلع ، كما قال ، عليه السلام : «إن للقرآن
ظهراً وبطناً وحداً ومطعاً» ، وقال عليه السلام : «إن للقرآن بطناً ولبطنه بطناً ، إلى
سبعة أبطن» وفى رواية «إلى سبعين بطناً» ؛ - وظهره : ما يفهم من الفاظه ويسبق
الذهن اليه . وبطنه : المفهومات اللازمة للنظر الأول . وحدّه : ما اليه ينتهى غاية
ادراك الفهوم والعقول ؛ ومطلعه : ما يدرك منه على سبيل الكشف والشهود ، من
الأسرار الالهية والاشارات الربانية . والمفهوم الأول ، الذى هو الظهر ، للعوام
والخواص . والمفهومات اللازمة له (هى) للخواص ولا مدخل فيها للعوام . والحدّ
للكاملين . والمطلع خلاصة أخص الخواص كأكابر الأولياء . وكذلك التقسيم فى

(٤١٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلايادى ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٤١٧) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٢٠ .

(٤١٨) جامع الأصول فى الأولياء للكمشخانوى ص ٢٥٨ .

(٤١٩) جهرة الأولياء للمنوفى الحسينى ج ١ ص ٨٨ .

الأحاديث القدسية والكلمات النبوية : فان لكل من العوام والخواص وأخص الخواص فيها انباءات رحمانية وإشارات الالهية . - (من أجل هذا كله ،) كان للشرعية ظاهر وباطن .

«ومراتب العلماء أيضاً فيها متكثرة . ففيهم فاضل ومفضل ، وعالم وأعلم ، والذي نسبته إلى نبيه أتم وقربه من روحه أقوى ، كان علمه بظاهر شريعته وباطنها أكمل . والعالم بالظاهر والباطن منه أحق ان يتبع ، لغاية قربه من نبيه ، وقوة علمه بربه ، وأحكامه ، وكشفه حقايق الأشياء ، وشهوده إياها . ثم من هودونه في المرتبة إلى أن ينزل الى مرتبة علماء الظاهر فقط» (٤٢٠) .

«وهو العلم المخزون والعلم اللدني الذي اختزنه عنده ، فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء كما قال الله تعالى في شأن الخضر عليه السلام : وعلمناه من لدنا علماً . . . وقال بعضهم : هي أسرار الله تعالى بيديها الله إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها أحد إلا الخواص .

وقال أبو بكر الواسطي رضى الله عنه في قوله تعالى : والراسخون في العلم : وهم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب ، وفي سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة ، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر بحارا ، فاستخرجوا الدرر والجواهر ، ونطقوا بالحكمة» (٤٢١) .

وقالوا :

«أهل الظاهر هم : أهل الخبر واللسان ، وعلماء الباطن هم : أرباب القلوب والعيان . . . وعلم الظاهر حكم ، وعلم الباطن حاكم ، والحكم موقوف حتى يأتي الحاكم بحكم فيه» (٤٢٢) .

«وأهل الظاهر هو أهل الشريعة ، وأهل الباطن هم أهل الحقيقة» (٤٢٣) .

(٤٢٠) مقدمة الثانية الكبرى للقيصري مخطوط ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ المنقول من ملحقات كتاب ختم الأولياء ص ٤٩٣ .

(٤٢١) غيث المواهب العلية للنفري الرندي ج ٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٤٢٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٥٨ .

(٤٢٣) انظر جامع الأصول في الأولياء للكشخاني ص ٢٥٨ .

وأما سبب التجاء المتصوفة إلى علم الباطن ، ومنه إلى التأويل هو أن الصوفية لم يجدوا في القرآن والسنة ما يمكن أن يكون سنداً لهم على منهجهم ومسلكهم ، ودليلاً على طرقهم التي اختاروها ، والمناهج التي اخترعوها للوصول إلى الله ، والحصول على معرفته ورضائه ، فالتجأوا إلى العلم الباطن والتأويل الباطني كما قال بيكلسون :

«لا يمكن أن يكون القرآن أساساً لأي مذهب صوفي ، ومع ذلك استطاع الصوفية متبعين في ذلك الشيعة - أن يبرهنوا بطريقة التأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلاً يلائم أغراضهم ، على أن كل آية ، بل كل كلمة في القرآن ، تخفى وراءها معنى باطناً لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في أوقات وجدهم . ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف سهل على الصوفية بعد أن سلموا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلاً من القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم أياً كانت ، وأن يقولوا إن التصوف ليس في الحقيقة إلا العلم الباطن الذي ورثه علي بن أبي طالب عن النبي . ويلزم من هذا المبدأ أيضاً (مبدأ التأويل) أن تأويل الصوفية لتعاليم الإسلام قد يأتي على أنحاء وأشكال لا حصر لعدددها ، وربما أدى إلى تناقض في العبادات والمسائل العملية . وكل ذلك مفروض صدقه في النوع لا في الدرجة ؛ لأن معاني القرآن لا حصر لها ، وهي تنكشف لكل صوفي بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحي . ولهذا لم تتألف من الصوفية فرقة خاصة ، ولا كان لهم مذهب محدد يصح أن نسميه مذهب التصوف . بل إن التعريفات العديدة التي وضعت للفظ التصوف نفسه لتدل على تعدد وجوه النظر في فهم معناه .

كذلك الحال في موقف الصوفية من الشريعة ، فإن هذا الموقف يختلف بحسب حال كل صوفي . ولذلك تجد بعضهم قد قام بشعائر الدين بكل دقة بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون أن صور العبادات ليس لها من القيمة ما لأعمال القلوب ، أو أنها لا قيمة لها ألبتة إلا من حيث دلالتها على الحقائق الروحية . فالحج مثلاً رمز للبعد عن المعاصي ، والإحرام خلع الشهوات والملذات مع خلع الثياب . وهذا الأسلوب من البحث أسلوب معروف عند الإسماعيلية الباطنية ، والظاهر أن الصوفية أخذوه عنهم . وآخرون منهم قالوا برفع التكالييف الدينية سواء أكانوا من الصوفية الذين تحرروا من القيود الشرعية في تفكيرهم وأعمالهم ، أم من الصوفية الصادقين في تصوفهم كالملاطية الذين دفعهم الخوف من مدح الناس إلى الظهور فيهم بما

يستجلب الملامة والذم، أم من «العارفين» الذين لم يأبهوا بمظاهر الشرع ورسومه ولا بأخلاق هذا العالم الزائل... وقد سبق أن ذكرنا أن الصوفية اعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار العلم الباطن المودع في القرآن والحديث، وأنهم استعملوا في التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والاشارات التي لا يقوى على فهمها غيرهم من المسلمين» (٤٢٤).

وسبب آخر أنهم تقولوا بكلمات كلها كفر والحاد، ونقل عن الباطنية والتشيع والفرق الباطلة الأخرى، فلما سمع العلماء هذه المقولات كفروهم بها، ورموهم بالالحاد والزندقة فلم يسعهم آنذاك إلا القول بالظاهر والباطن، والهروب إلى التأويل، وفي كتب التصوف أمثلة كثيرة مبعثة في ذلك.

فمثلا الطوسي يذكر متصوفة كثيرين رموا بالزندقة والالحاد، ولكنه يبرء ساحتهم من هذه التهم بهذه المقولة، فمثلا يقول عن أبي عبد الله الحسين بن مكى الصبيحي أنه «تكلم بشيء من علم الأسماء والصفات وعلم الحروف فكفره أبو عبد الله الزبيرى، وهيج عليه العامة، فقال: ان سهل بن عبد الله قال له: نحن فتحنا للناس جراب الهلثيت فلم يصبروا علينا، فلم كلمتهم أنت بما لا يعرفون، فكان ذلك سبب خروجه من البصرة - ثم قال: وكان اذا تكلم بعلوم المعارف يدهش العالم» (٤٢٥).

ومثل ذلك ذكر أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز فقال: «أنكر عليه جماعة من العلماء، ونسبوه إلى الكفر بالفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو: كتاب السر، فلم يفهموا معناه، وهو قوله: عبد رجع إلى الله، وتعلق بالذكر، وذكر في قرب الله وطالع ما أذن له من التعظيم لله، ونسى نفسه وما سوى الله، فلو قلت له: من أين أنت وأين تريد؟ لم يكن جواب غير قول (الله)» (٤٢٦).

هذا، وذكر الآخرين كذلك، وقبل ذلك علل سبب تكفير العلماء إياهم بقوله:

«فمنهم قوم لم يفهموا معانى ما أشاروا إليه في كلامهم من غامض العلم وجليل

(٤٢٤) في التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية لأبي العلاء العفيفى ص ٧٦، ٧٧.

(٤٢٥) انظر كتاب اللمع للطوسى ص ٥٠٠.

(٤٢٦) أيضا ص ٤٩٩.

الخطب، ولم يكن لهم زاجر من العقل ولا واعظ من الدين أن يستبحثوا عن المعاني التي أشكلت عليهم ويسألوا ذلك عن أهلها، وقاسوا من ذلك بما علموا من العلوم الميثوقة بين عوام الناس حتى هلكوا» (٤٢٧).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة لا تعد ولا تحصى .

وأخيرا يحسن بنا أن نورد بعض الأمثلة للتأويلات الصوفية في القرآن والحديث النبوي الشريف لتتام الفائدة واكمال البحث .

فيذكر ابن عطاء الله الأسكندري في لطائفه نقلا عن بعض مشائخه أنه فسر الآية: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً﴾ الحسنات ﴿وَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ العلوم، ﴿أَوْ يَزُوجْهُمْ ذَكَرَانَا وَإِنِثَاءً﴾ علومنا وحسنات، ﴿وَيَجْعَلْ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا علم ولا حسنة، كما مضى أيضا من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ .

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها، وكما سيأتى إن شاء الله في تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم افهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لمن فتح الله على قلبه» (٤٢٨).

وقال الجيلي مفسرا قول الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ . يقول في تفسيره:

«اتفقت العلماء على أن (هل) في هذا الموضوع بمعنى قد: يعنى قد أتى على الإنسان حين من الدهر، والدهر هو الله، والحين تجل من تجلياته (لم يكن شيئا) يعنى أن الإنسان لم يكن شيئا (مذكورا)، ولا وجود له في ذلك التجلى، لا من حيث الوجود العيني ولا من حيث العلمى، لأنه لم يكن شيئا مذكورا، فلم يكن معلوما، وهذا التجلى هو أزل الحق الذى لنفسه» (٤٢٩).

ثم يؤول الجيلي الصوم والصلاة والزكاة والحج تأويلا باطنيا محضا، كالاسماعيلية تماما، فيقول:

«وأما الصلاة فانها عبارة عن واحدة الحق تعالى، واقامتها اشارة إلى اقامة

(٤٢٧) أيضا ص ٤٩٧ .

(٤٢٨) اطائف المتن لابن عطاء الأسكندري ص ٢٤٨ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق .

ط مطبعة حسان القاهرة .

(٤٢٩) الإنسان الكامل للجيلي ص ١٠١، ١٠٢ .

ناموس الواحدة بالاتصاف بسائر الأسماء والصفات، فالطهر عبارة عن الطهارة من النقائص الكونية . . . وقراءة الفاتحة اشارة إلى وجود كماله في الانسان لأن الانسان هو فاتحة الوجود . . .

وأما الزكاة فعبارة عن التزكى بايثار الحق على الخلق . . . وأما كونه واحدا في كل أربعين في العين فلأن الوجود له أربعون مرتبة، والمطلوب المرتبة الالهية، فهي المرتبة العليا، وهي واحدة من أربعين . . .

وأما الصوم فاشارة إلى الامتناع عن استعمال مقتضيات البشرية ليتصف بصفات الصمدية، فعلى قدر ما يمتنع: أى يصوم عن مقتضيات البشرية تظهر آثار الحق فيه . . .

وأما الحج فاشارة إلى استمرار القصد في طلب الله تعالى، والاحرام اشارة إلى ترك شهود المخلوقات . . . ثم ترك حلق الرأس اشارة إلى ترك الرياسة البشرية . . . ثم مكة عبارة عن المرتبة الالهية، ثم الكعبة عبارة عن الذات، ثم الحجر الأسود عبارة عن اللطيفة الانسانية . . .» (٤٣٠).

وبمثل ذلك ذكر الكلاباذي عن بعض مشائخه أنه قال :
«معنى الصلاة: التجريد عن العلائق، والتفريد بالحقائق . والعلائق ما سوى الله، والحقائق ما لله ومن الله .

وقال آخر: الصلاة وصل .

قال : سمعت فارسا يقول: معنى الصوم: الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق عز وجل» (٤٣١).

والسهروردي المقتول يفسر قول الله عز وجل :
﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية﴾ : أى ليست عقلية محضة، ولا غربية : أى ليست هيولانية محضة، وهى بعينها شجرة موسى التى سمع منها النداء : فى البقعة المباركة من الشجرة، وقوله : ولولم تمسه نار: هذه النار هو الأب المقدس

(٤٣٠) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٤ وما بعد ملخصا .

(٤٣١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ١٢٠

- روح القدس - وهو النار التي جاءت في قوله : ﴿أَنْ بورك من في النار﴾ : أى المتصلين بها» (٤٣٢).

وقال أيضا :

«ألم تر أن موسى لما طلب الرؤية ، قيل له : ﴿ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى﴾ : لأن هذا جبل حائل دائم التحرك ، شاغل للنفس . فلما تعدى السانح القدسى إلى معدن التخيل ، قهره . كما قال تعالى : ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا﴾ : انقطع سلطان البشرية بظهور نور الحقيقة ، فاصطلت النفس ، وفنت عن مشاهدة الكثرة بنور القيومية» (٤٣٣).

وأما ابن عربى الذى قال فيه الدكتور أبو العلاء العفيفى محلا أسلوبه التأويلى والتفسيرى :

«إنه يحوّل القرآن بمنهجه الخطير فى التأويل إلى قرآن جديد» (٤٣٤) .

وينقل الشيخ رشيد رضا المصرى عن شيخه محمد عبده رأيه فى تفسيره ، بقوله :

«وفيه من النزعات ما يتبرء منه دين الله وكتابه العزيز» (٤٣٥) .

يقول ابن عربى هذا فى تفسير قول الله عز وجل :

﴿ألم﴾ : أشار بهذه الحروف إلى كل الوجود حيث هو كل ، لأن (أ) إشارة إلى ذات الله الذى هو أول الوجود . . . و(ل) إلى العقل الفعال المسمى جبريل ، وهو أوسط الوجود الذى يستفيض من المبدأ ، ويفيض إلى المنتهى . و(م) إلى محمد الذى هو آخر الوجود تتم به دائرته ، وتتصل بأولها ، ولهذا ختم» (٤٣٦) .

ويقول السلمى الذى قال فيه الذهبى :

«أتى السلمى فى حقائقه بمصائب وتأويلات باطنية نسأل الله العافية» (٤٣٧) .

(٤٣٢) الألواح العمادية لشهاب الدين السهروردى المقتول ص ٧٢ من مجموعة الرسائل الثلاثة له . ط مركز تحقيقات فارسى ايران وباكستان .

(٤٣٣) أيضا ص ٧٤ .

(٤٣٤) ابن عربى فى دراساته للدكتور أبى العلاء العفيفى الكتاب التذكارى ص ١٣ .

(٤٣٥) انظر تفسير الظلال ج ١ ص ١٨ .

(٤٣٦) تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥ .

(٤٣٧) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ٢٤٩ ط القاهرة .

يقول في تفسير ألم :

«الألف ألف الوجدانية، واللام لام العطف، والميم ميم الملك، معناه من وجدنا على الحقيقة - باسقاط العلائق والأغراض تلطفت له في معناه فأخرجته من رقّ العبودية إلى الملك الأعلى» (٤٣٨).

وأما القشيري ففسر ألم :

«فالألف من اسم «الله»، واللام يدل على «اللطيف»، والميم يدل على اسمه «المجيد» و«الملك».

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه.

وقيل إنها أسماء السور.

وقيل الألف تدل على اسم «الله» واللام تدل على اسم «جبريل» والميم تدل على اسم «محمد» ﷺ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد ﷺ. والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فيتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

ويقال يتذكر العبد المخلص من حاله الألف تقدس الحق سبحانه وتعالى عن التخصيص بالمكان؛ فإن سائر الحروف لها محل من الخلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه.

ويقال بطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه.

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة، والتميز عن الاتصال بشيء من أضراسها من الحروف، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا، وفاز بالدرجة

القصوى، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير مركبة، على سنة
الأحباب فى ستر الحال، وإخفاء الأمر الأجنبى من القصة - قال شاعرهم :

قلت لها قفى لنا قالت قاف
لا تحسبى أنا نسينا لا يخاف

ولم يقل وقفت سترأ على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل :
(قالت قاف) «(٤٣٩)» .

ويكتب الجيلى تحت قول الله عز وجل : ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾ :

«أشار بذلك إلى حقيقة ألف لام ميم، وذلك من طريق الاجمال إشارة إلى
الذات والأسماء والصفات (ذلك الكتاب) والكتاب الانسان الكامل (قألف لا ميم بما
أشار اليه هو حقيقة الانسان (لا ريب فيه هدى للمتقين) الذين هم وقاية عن الحق،
والحق وقاية عنهم، فان دعوت الحق فقد كُتبت به عنهم، وان دعوتهم فقد كُتبت بهم
عنه (الذين يؤمنون بالغيب) الغيب هو الله لأنه غيبهم آمنوا به أنه هو يتهم وانهم عينه
(ويقيمون الصلاة) يعنى يقيمون بناموس المرتبة الالهية فى وجودهم بالاتصاف بحقيقة
الأسماء والصفات (ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يتصرفون فى الوجود من ثمرة ما أنتجته
هذه الأحدية الالهية فى ذواتهم» (٤٤٠) .

ونقل عبد الحليم محمود عن أبى الحسن الشاذلى تفسير قول الله عز وجل على
لسان موسى عليه السلام :

«(هى عصاى) معرفتى بك، أعتمد عليها.

(أهش بها على غنى) أولادى فى التربية.

(ولى فيها مآرب أخرى) من باب لى وقت مع ربى لا تسعنى فيه أرض ولا

سما» (٤٤١) .

وفسر ابن عجيبة الآية القرآنية :

«(رب أدخلنى) فى الأشياء حقوقا كانت أو حظوظا (مدخل صدق) . أى

(٤٣٩) لطائف الإشارات للتفسيرى ج ١ ص ٥٣ ، ٥٤ بتحقيق دكتور إبراهيم بسيونى الطبعة الثانية الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ .

(٤٤٠) الإنسان الكامل للجيلى عبد الكريم ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤٤١) المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى لعبد الحليم محمود ص ٤٠٣ . ط القاهرة .

إدخال صدق، بأن يكون ذلك الإدخال بك، معتمدا فيه على حولك وقوتك، متبرئا من حولى وقوتى ومن شهود نفسى .

(وأخرجنى) منها (مخرج صدق) أى إخراج صدق، بأن أكون مأذونا فيه بإذن خاص، مصحوبا بالخشية وسر الإخلاص، وهذا معنى قوله [ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى] فى الأشياء [وإنقيادى إليك إذا أخرجتنى] منها :

(واجعل لى من لدنك) أى من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب (سلطانا) أى برهانا قويا، وليس ذلك إلا وارد قوى من حضرة قهار لا يصادمه شىء إلا دمه، فيحق الحق ويزهق الباطل، ويكون ذلك السلطان ينصرنى ولا ينصر علىّ، أى ينصرنى على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى حتى نبعد عنها برؤية مولاها ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية .

ثم بين ذلك فقال : [ينصرنى على شهود نفسى] أى يقوينى على الغيبة عنها فإذا انتصرت على شهودها انهزم عنى وذهب شهودها وبقي شهود ربها، فالنصرة على الشىء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع وكأن شهود النفس عدو يجاربك ويقطعك عن شهود ربك، فإذا نصرك الله عليه ودفعته عنك، فتصل حينئذ بشهود محبوبك، وإذا فنى شهود النفس فنى حينئذ وجود الحس، وهو معنى قوله [ويفينى عن دائرة حسى] فإذا فנית دائرة الحس بقى متسع المعانى وقضاء الشهود، وهذه هى الولادة الثانية، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه وهى الولادة الأولى بقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، قد التقمه الهوى، وصار فى بطن الحس والوهم . وسجن الأكوام المحيطة بجسمانيته، فإذا فנית دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه، نقبت روحه الكون بأسره، وخرجت إلى شهود مكونها فقد ولد مرة ثانية، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت» (٤٤٢) .

وقال الشعرانى ناقلا عن سيده على الخواص فى تفسير قول الله عز وجل :
«(إن الذين قالوا ربنا الله) كَمَلُ الأنبياء (ثم استقاموا) محمد ﷺ (تتنزل عليهم الملائكة) عامة النبيين (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) كَمَلُ العارفين (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) جميع المؤمنين فقد بينت هذه الآية مراتب الكَمَل، كما بينت التى تليها صفاتهم وأحوالهم . وهذه الآية من الجوامع .

قال : ولولا خوف الهتك لأستار الكمّل لأظهرنا لك من هذه الآية عجبا» (٤٤٣)

والتأويلات كهذه لا عدّها ولا حصر، والقوم أشبعوا الكلام في علم الباطن والتأويل الباطني ، وملؤا كتبهم به ، وهذه الفكرة لم تتدرج إليهم إلا من التشيع والشيعة ، كالأفكار الأخرى .

والشيعة بدورهم أخذوها من اليهودية . وهكذا أدخل الصوفية أنفسهم في الفرق الباطنية لأن الاسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرها من الفرق الباطنية لم يسمّوا بالباطنية إلا لقولهم : ان لكل ظاهر باطنا ، حسب اعتراف الشعراني نفسه ، حيث يقول :

«الاسماعيلية : وهم قوم يسمون بالباطنية لكونهم يقولون : لكل ظاهر باطن» (٤٤٤) .

وأما تسمية المتصوفة العلماء والفقهاء والمسلمين الآخرين الذين لا يؤمنون بباطنيتهم ، بأهل الظاهر ، والعامة ، وأهل الرسوم ، والنكير عليهم فمتشرفي كتبهم ، كما يقول ابن عربي : «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته ، العارفين به من طريق الوهب الالهى ، الذين منحهم أسرارهم في خلقه ، وفهم معاني كتابه وإشارات خطابه ، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسول عليهم السلام» (٤٤٥) .

وقال لسان الدين بن الخطيب :

«ان كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وقعدت الصوفية على الحقائق» (٤٤٦) .
أى أن الصوفية هم أهل الحقائق ، وسائر الناس أهل الرسوم .

ويقول الكمشخانى : «الذين اقتصروا على الشريعة فهم العامة» (٤٤٧) .

والترمذى الملقب بالحكيم يقول في كتابه (ختم الأولياء) :

«أكثر الشريعة جاءت على فهم العامة» (٤٤٨) .

(٤٤٣) درر الغواص للشعراني ص ٥٠ بهامش الابريز للدباغ . ط مصر .

(٤٤٤) انظر البواقيت والخواهر للشعراني ج ٢ ص ١٢٨ .

(٤٤٥) الفتوحات المكية لابن عربي الباب الرابع والخمسون .

(٤٤٦) روضة التعريف ص ٣٧٠ .

(٤٤٧) انظر جامع الأصول في الأولياء للكمشخانى ص ٨٩ .

(٤٤٨) ختم الأولياء للترمذى ص ٢٣٧ . ط المطبعة الكاثوليكية . بيروت .

نسخ الشريعة ورفع التكاليف

ومن العقائد الشيعية الباطنية المعروفة: نسخ الشريعة، ورفع التكاليف.

أما نسخ شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه فيؤمن به جميع فرق الباطنية ولأنهم يتظاهرون بانكاره كما ذكر الغزالي (٤٤٩).

وكما ورد ذلك في أدعية الأيام السبعة للإمام الاسماعيلي المعز لدين الله (٤٥٠).

وكما قال أبويعقوب السجستاني:

«أما القائم عليه السلام فانه يرفع الشرائع» (٤٥١).

وأیضا في الكتب النصيرية والدروزية وغيرها من الفرق الباطنية الأخرى.

وأما رفع التكاليف فيقول الداعي الاسماعيلي طاهر بن ابراهيم الحارثي اليماني:

«حجج الليل هم أهل الباطن المحض، المرفوع عنهم في أدوار الستر التكاليف الظاهرة لعلو درجاتهم» (٤٥٢).

وبمثل ذلك نقلوا عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال:

«من عرف الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر. . . ورفعت عنه الأغلال والأصفاد واقامة الظاهر» (٤٥٣).

ويشاركهم في ذلك فرق الشيعة الأخرى، مثل المعمرية من الخطابية والجناحية والمنصورية وغيرها من الفرق الشيعية الأخرى (٤٥٤).

(٤٤٩) انظر فضائح الباطنية ص ٤٦. ط مؤسسة دار الكتب الثقافية الكويت.

(٤٥٠) انظر لذلك كتابنا الاسماعيلية القدامى تاريخ وعقائد الباب الخامس منه، أيضا كتاب زهر المعاني للداعي الاسماعيلي ادریس من مجموعة المنتخب لأيوأناوف. ط بومبي، أيضا الأنوار اللطيفة للحارثي اليماني الباب الثاني من السرداق الثالث من الفصل الخامس ص ١٣٠.

(٤٥١) كتاب النصرة للسجستاني عن كتاب الرياض للكرماني ص ٢٠١. ط دار الثقافة بيروت.

(٤٥٢) الأنوار اللطيفة الباب الثاني السرداق الثاني ص ١٠٢.

(٤٥٣) كتاب الهفت الشريف للمفضل الجعفي ص ٤٢ تحقيق مصطفى غالب الاسماعيلي. ط دار الأندلس بيروت.

(٤٥٤) انظر لذلك فرق الشيعة للنوبختي، وكتاب المقالات والفرق لسعد بن عبد الله القمي الشيعي، وكتب السنة أيضا من مقالات الإسلاميين للأشعري، والتبصير في الدين للأسفرائيني، والاعتقادات للرازي وغيرها.

مؤولين قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ (٤٥٥)، وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ (٤٥٦).

سالكين في ذلك منهج التأويل الباطنى الخبيث، فتركوا الواجبات، وأباحوا المحرمات، وأتوا المنكرات.

والشيعة الاثنا عشرية أيضا، كاذبين على أئمتهم، متهمين إياهم بمقولات هم منها براء. كما روى الكلينى في كافيه عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال لشيعة: «ان الرجل منكم لتملأ صحيفته من غير عمل» (٤٥٧).

بل «كان مع النبيين في درجتهم يوم القيامة» (٤٥٨).

وذكر ابن بابويه القمى أن على بن موسى الرضا - الامام الثامن المعصوم عند الشيعة - قال:

«رفع القلم عن شيعتنا، فقلت: يا سيدى، كيف ذاك؟ قال: لأنهم أخذ عليهم العهد بالتقية في دولة الباطل، يأمن الناس ويخوفون، ويكفرون فينا ولا نكفر فيهم، ويقتلون بنا ولا نقتل بهم، ما من أحد من شيعتنا ارتكب ذنبا أو خطأ إلا ناله في ذلك غم يححص عنه ذنوبه، ولو أتى بذنوب عدد القطر والمطر، وبعدد الحصى والرمل، وبعدد الشوك والشجر» (٤٥٩).

ويذكر مفسر شيعى آخر وهو على بن ابراهيم القمى، عن جعفر أنه قال: «إذا كان يوم القيامة يدعى بعلى أمير المؤمنين عليه السلام... ثم يدعى بالأئمة... ثم يدعى بالشيعة، فيقومون أمامهم، ثم يدعى بفاطمة ونسائها من ذريتها وشيعتها، فيدخلون الجنة بغير حساب» (٤٦٠).

ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتابنا الشيعة وأهل البيت (٤٦١).

(٤٥٥) سورة النساء الآية (٢٨).

(٤٥٦) سورة المائدة الآية (٩٣).

(٤٥٧) انظر كتاب الروضة من الكافي للكلينى ج ١ ص ٧٨. ط ايران.

(٤٥٨) مقدمة البرهان في تفسير القرآن لمفسر شيعى هاشم البحرانى ص ٢١. ط طهران.

(٤٥٩) عيون أخبار الرضا لابن بابويه القمى ج ٢ ص ٢٣٦.

(٤٦٠) تفسير القمى ج ١ ص ١٢٨.

(٤٦١) انظر ص ٢٣٠ وما بعد الطبعة الثامنة. ط إدارة ترجمان السنة باكستان.

وكذلك الشيعة والسنة (٤٦٢)

وأما المتصوفة فيقولون بكل هذا، سالكين مسلك هؤلاء الضالة المنحرفين
«وفي النساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى درجة تزول فيها عنهم
العبادات، وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم من الزنا وغيره مباحات
لهم» (٤٦٣).
وقالوا:

«إذا وصلت إلى مقام اليقين سقطت عنك العبادة، مؤولين قول الله عز وجل:
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» (٤٦٤).

ولقد أقر صوفي قديم بوجود هؤلاء المتصوفة ومن هم على منوالهم - وما
أكثرهم - فقال:

«وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة،
ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام،
واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات،
وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه
من السوق والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق
والأحوال، وادّعوا أنهم تحرروا من رقّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم
تجربى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه
عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واحتطفوا عنهم بالكلية،
وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية،
والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل
صرفوا

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوّحت ببعضه من هذه القصة،
وكنّت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الانكار، غير على هذه الطريقة أن يذكر أهلها

(٤٦٢) انظر ص ٥١، ٥٢ الطبعة الجديدة، الثلاثون. ط إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان.

(٤٦٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٢٨٩. ط هلموت ريتز الطبعة الثالثة فرانزستاز ١٩٨٠م.

(٤٦٤) تحاف السادة للزبيدي ج ٨ ص ٢٧٨ المنقول من كتاب نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها للدكتور عرفان

عبد الحميد ص ٧٤. ط المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٤م.

بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغا، اذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة» (٤٦٥).

كما أقرّ باباحتهم للمحظورات، الطوسى فى كتابه:
«زعمت الفرقة الضالة، فى الحظر والاباحة، أن الأشياء فى الأصل مباحة، وانما وقع الحظر للتعدّى، فاذا لم يقع التعدّى تكون الأشياء على أصلها من الاباحة، وتأولوا قول الله عز وجل: ﴿فَأَنْبِئْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعَنْبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم﴾».

فقالوا: هذا على الجملة غير مفصل، فأدّاهم ذلك بجهلهم، الى أن طمعت نفوسهم بأن المحذور الممنوع منه المسلمون: مباح لهم، اذا لم يتعدّوا فى تناوله.

وانما غلطوا فى ذلك بدقيقة خفيت عليهم، من جهلهم بالأصول، وقلة حظهم من علم الشريعة، ومتابعتهم شهوات النفس فى ذلك. . . فظنت هذه الطائفة الضالة بالاباحة، لأن ذلك كان منهم على حال، جاز لهم ترك الحدود، أو أن يجاوزوا حد متابعة الأمر والنهى، فوقعوا من جهلهم فى التيه، وتاهوا، وطلبوا ما مالت اليه نفوسهم: من اتباع الشهوات، وتناول المحظورات، تأويلا، وحिला، وكذبا، وتقميها» (٤٦٦).

وذكرهم السهروردي بقوله:

فقوم من المفتونين سمّوا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية، لينتسبوا بها إلى الصوفية، وما هم من الصوفية بشيء، بل هم فى غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتا تارة، ودعوى أخرى، ويتنهجون مناهج أهل الاباحة، ويزعمون أن ضمايرهم خلصت الى الله تعالى، ويقولون: هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام، والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليدا، وهذا هو عين الالحاد والزندقة والابعاد، فكل حقيقة ردّتها الشريعة فهى زندقة، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هى حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وصار مطالبا بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل الى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربة التكليف،

(٤٦٥) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٣٢، ٣٣، ٢٤ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

(٤٦٦) كتاب اللع للطوسى ص ٥٣٨، ٥٣٩.

ونخامر باطنه الزيف والتحريف . . . ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحللول ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفیها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى في اللاهوت والناسوت .

ومنهم من يستيبح النظر الى المستحسنات اشارة الى هذا الوهم (٤٦٧) .

وهؤلاء الذين ذكرهم ابن الجوزى بقوله :

«اعلم أن أكثر الصوفية المتصوفة قد سدوا على أنفسهم باب النظر الى النساء الاجانب لبعدهم عن مصاحبتهم وامتناعهم عن مخالطتهن ، واشتغلوا بالتعبد عن النكاح ، واتفقت صحبة الاحداث لهم على وجه الارادة وقصد الزهادة ، فأماهم ابليس اليهم ، واعلم ان المتصوفة في صحبة الاحداث على سبعة أقسام :

القسم الأول - أخبث القوم ، وهم ناس تشبهوا بالصوفية ويقولون بالحللول .

اخبرنا محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان ، نا أبو علي الحسين بن محمد بن الفضل الكرماني ، نا سهل بن علي الخشاب ، نا أبو نصر عبد الله بن السراج ، قال : بلغني ان جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى اصطفى أجساما حل فيها بمعاني الربوبية . ومنهم من قال : هو حال في المستحسنات . وذكر أبو عبد الله بن حامد من أصحابنا أن طائفة من الصوفية قالوا : انهم يرون الله عز وجل في الدنيا ، وأجازوا أن يكون في صفة الآدمي ولم يأبوا كونه حالا في الصورة الحسنة حتى استشهدوه في رؤيتهم الغلام الأسود .

القسم الثاني - قوم يتشبهون بالصوفية في ملبسهم ويقصدون الفسق .

القسم الثالث - قوم يستيبحون النظر الى المستحسن . وقد صنف أبو عبد الرحمن السلمى كتابا سماه «سنن الصوفية» فقال في أواخر الكتاب : باب في جوامع رخصهم ، فذكر فيه الرقص والغناء والنظر إلى وجه الحسن .

وذكر فيه ما روى عن النبي عليه السلام أنه قال : أطلبوا الخير عند حسن الوجوه . وانه قال : ثلاثة تجلو البصر : النظر الى خضرة ، والنظر الى ماء ، والنظر الى الوجه الحسن (٤٦٨) .

ثم حكى حكايات كثيرة عن هؤلاء المتصوفة ، تدل على فسقهم وفجورهم .

(٤٦٧) عوارف المعارف للسهروردي ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤٦٨) تليي ابليس لابن الجوزى ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ . ط دار الوعي العربي بيروت لبنان .

ومما ذكرها أن صبيبا أمرد حكى له، قال: قال لى فلان الصوفى وهو يجيبنى : يا بنى، لله فيك اقبال والتفات، حيث جعل حاجتى اليك.

وحكى أن جماعة من الصوفية دخلوا على أحمد الغزالى وعنده أمرد، وهو خال به وبينهما ورد، وهو ينظر الى الورد تارة، والى الأمرد تارة، فلما جلسوا قال بعضهم: لعلنا كدنا، فقال: أى والله، فتصايح الجماعة على سبيل التواجد.

وحكى أبو الحسين بن يوسف أنه كتب اليه فى رقعة: انك تحب غلامك التركى، فقرأ الرقعة ثم استدعى الغلام فصعد اليه النظر فقبله بين عينيه، وقال: هذا جواب الرقعة.

قال المصنف رحمه الله: قلت: انى لأعجب من فعل هذا الرجل والقائه جلباب الحياء عن وجهه، وانما أعجب من البهائم الحاضرين كيف سكتوا عن الانكار عليه، ولكن الشريعة بردت فى قلوب كثير من الناس (٤٦٩).

ومن الأبيات التى يستمع اليها الصوفية، ويرقصون عليها، ويغنون بها أبيات ذكر طرفا منها فى كتابه:

«أتذكر وقتنا وقد اجتمعنا	على طيب السماع الى الصباح
ودارت بيننا كأس الأغاني	فاسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم إلا نشاوى	سرورا والسرور هناك صاح
إذا لبى أخو اللذات فيه	منادى الهوى على الفلاح
ولم نملك سوى المهجات شيئا	أرقناها لألحاظ ملاح» (٤٧٠)

وأیضا قال يوسف بن الحسين:

«كل ما رأيتمونى أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث فانها أفتن الفتن، ولقد عاهدت ربى أكثر من مائة مرة أن لا أصحب حدثا، ففسخها على حسن الحدود، وقوام القدود، وغنج العيون، وما سألتى الله معهم عن معصية، وأنشد صريح الغوانى فى معنى ذلك شعرا:

ان ورد الحدود والحدق النج	ل وما فغى الثغور من أقحوان
واعوجاج الأصداغ فى ظاهر الحد	وما فى الصدور من رمان

(٤٦٩) انظر ص ٢٩٨ من تليس ابليس لابن الجوزى .

(٤٧٠) أيضا ص ٢٩٩ .

تروكتنى بين الغوانى صريعا فلهذا أدعى صريع الغوانى» (٤٧١)

فمن هؤلاء قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

«فكل الرسل دعوا الى عبادة الله وحده لا شريك له، والى طاعتهم والايمان بالرسول هو الأصل الثانى من أصلى الاسلام، فمن لم يؤمن بأن هذا رسول الله الى جميع العالمين وأنه يجب على جميع الخلق متابعتة، وإن الحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه فهو كافر مثل هؤلاء المنافقين، ونحوهم من يجوز الخروج عن دينه وشريعته وطاعته، إما عموما وإما خصوصا. . . ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله، وإن الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم، وكل هذا ضلال وباطل، وإن كان لأصحابه زهد وعبادة» (٤٧٢).

وقال الحافظ ابن حزم الظاهرى :

«أدعت طائفة من الصوفية أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا :

من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك، واستباحوا بهذا نساء غيرهم، وقالوا بأننا نرى الله ونكلمه، وكلما قذف فى نفوسنا فهو حق.

ورأيت لرجل منهم يعرف بابن شمعون كلاما نصه أن الله تعالى مائة اسم، وإن الموفى مائة هوستة وثلاثون حرفا ليس منها فى حروف الهجاء شىء إلا واحد فقط، وبذلك الواحد يصل أهل المقامات الى الحق. وقال أيضا: أخبرنى بعض من رسم لمجالسة الحق أنه مَدَّ رجله يوما فنودى: ما هكذا مجالس الملوك، فلم يمدَّ رجله بعدها. يعنى أنه كان مديما لمجالسة الله تعالى» (٤٧٣).

ولذلك قال أبو على وفا :

«وبعد الفنا بالله كن كيفما تشا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر» (٤٧٤)

ونقل الدكتور عبد الحليم محمود قاعدة عامة للصوفية بقوله :

(٤٧١) أيضا ص ٣٠٥ .

(٤٧٢) مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٤٤، ٤٥ .

(٤٧٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل للحافظ ابن حزم ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٤٧٤) كتاب سيدى أحمد الدردير للدكتور عبد الحليم محمود ص ٩٥ . ط دار الكتب الحديثة القاهرة .

«اعرف الله وكن كيف شئت» (٤٧٥).

هذا ولقد ورد في كتب الصوفية حكايات كثيرة لا تعد ولا تحصى ، تدل على اتیان المتصوفة المنكر ، وابتاحتهم المحظورات ، وتركهم الواجبات ، ومع ذلك عدّوهم من أولياء الله وكبار المستجابين عند الرب تبارك وتعالى عما يقوله الأفاكون علوا كبيرا ، عن أن يختار الفسقة الفجرة أولياءه وأصفياه .

منهم من ذكره «القطب الربانى والهيكل الصمدانى العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى» فى طبقاته ذكر أن سيده على وحيش «كان رضى الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال ، وكان يأتى مصر والمحلة وغيرهما من البلاد ، وله كرامات وخوارق ، واجتمعت به يوما فى خط ما بين القصرين ، فقال لى : ودّينى للزلزبانى فودّيته له ، فدعا لى وقال : الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى .

وأخبرنى الشيخ محمد الطنخى رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ وحيش رضى الله عنه يقيم عندنا فى المحلة فى خان بنات الخطا ، وكان كل من خرج يقول له : قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج ، فيشفع فيه ، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب فى شفاعته ، وقال يوما لبنات الخطا : اخرجوا فان الخان رائج يطبق عليكم فما سمع منهم إلا واحدة ، فخرجت ، ووقع على الباقى فمتن كلهن .

وكان إذا رأى شيخ بلد وغيره ينزله من على الحمارة ويقول له : أمسك رأسها لى حتى أفعل فيها ، فان أبى شيخ البلد تسمر فى الأرض لا يستطيع أن يمشى خطوة ، وان سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرّون عليه ، وكان له أحوال غريبة» (٤٧٦)

وماذا نستطيع أن نقول بعد سرد هذه الرواية عن الشعرانى ، ثم مدحه لمثل هذا الفاجر الخبيث ، وجعله من أعيان المجاذيب ، وأرباب الأحوال ، وصاحب الكرامات والخوارق ، ومستجاب الدعوات ، مأذونا بالشفاعة عند الله ، وليس مأذونا فحسب ، بل شفيعا مقبولا ، مبشرا بقبول شفاعته فيمن أراد أن يشفع فيهم ، وهل هناك استهزاء بالشرعية ، وتعطيل لحدود الله ، وتلاعب بأوامر الله ونواهيه ، وزندقة والحاد ، وفسق وفجور أكبر من هذا؟

(٤٧٥) المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى ص ٥٣ ط القاهرة .

(٤٧٦) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

هذا ما لا يوجد له نظير حتى لدى الشيعة، منبع كل فساد، ومصدر كل رذيلة.

ولكن التلميذ قد فاق أستاذه، والمريد مرشده، والمتعلم معلمه.
وهناك آخر من كبار مشائخ القوم، يسمونه قطب الواصلين عبد العزيز الدباغ، يقول:

«إن بعض المريدين قال لشيخه: ياسيدى دلّنى على شىء يريحنى مع الله عز وجل.

فقال له الشيخ: إن أردت ذلك فكن شبيها له فى شىء من أوصافه عز وجل، فإنك إن اتصفت بشىء منها فانه يسكنك يوم القيامة مع أوليائه فى دار نعيمه ولا يسكنك مع أعدائه فى دار جحيمه.

فقال المريد: وكيف لى بذلك ياسيدى وأوصافه تعالى لا تنحصر.

فقال الشيخ: كن شبيها فى بعضها، فقال: وما هو ياسيدى؟

فقال: كن من الذين يقولون الحق، فإن من أوصافه تعالى قول الحق، فإن كنت من الذين يقولون الحق فان الله سيرحك، فعاهد الشيخ على أنه يقول الحق، وافترقا.

وكان بجوار المريد بنت فدخل الشيطان بينهما حتى فجر بها وافتضاها، فلم تقدر البنت على الصبر مع أنها هى التى طلبت منه الفعل، لأنها تعلم أن الافتضا لا يخفى بعد ذلك، فأعلمت أباه فرفعه الى الحاكم، وقال: ان هذا فعل بيتى كذا وكذا.

فقال الحاكم للمريد: اسمع ما يقول؟

فقال: صدق، قد فعلت ذلك، وكان مستحضرا للعهد الذى فارق الشيخ عليه، فلم يقدر على الجحود والنكران، فلما سمع منه الحاكم ما سمع، قال: هذا أحق، اذهبوا به الى المارستان، فان العاقل لا يقرّ على نفسه بما يعود عليه بالضرر، فدخل المارستان، ثم جاء من رغب الحاكم، وشفع فيه فسرّحوه» (٤٧٧).

وأحد كبار القوم و«شهيد التصوف الامام الأجل نجم الملة والدين قطب الاسلام والمسلمين، برهان السنة، محبى الحق نجم الدين الكبرى» يخبر عن فسقه

وفجوره بأسلوب صوفي : فيقول :

«عشقت واحدا ببلاد المغرب فسلطت عليه الهمة فأخذته وربطته ومنعته عن
سواي، إلا أنه كان عليه رقباء، فسكت عن صريح المقال، وجعل يكلمني بلسان
الحال، فأفهمه وأكلمه كذلك فيفهمه، وانتهى الأمر الى أن صرت أنا هو، وهو أنا،
ووقع العشق الى محض صفاء الروح، فجاءتني روحه سحرا تترغ وجهها في التراب
وتقول: أيها الشيخ الأمان، الأمان، قتلتنى، أدركنى، فقلت: ماذا تريد؟
قالت: أريد أن تدعنى حتى أقبل قدمك، فأذنت لها، ففعلت ورفعت
وجهها، فقبلتها حتى استراحت واطمأنت الى صدرى» (٤٧٨).

ومادمنا تطرقنا الى هذا الموضوع فاننا نقول: ان جماعة من الصوفية ولو أنهم
تظاهروا بالصلاح والتقوى لم يستطيعوا أن يخفوا ويكتموا عشقهم وفسقهم، وشهدوا
عليهم بعدم مبالاة الشرع وأحكامه، والتطرق الى المنكرات والمحظورات.

فهذا هو الشيخ الأكبر للصوفية محيى الدين بن عربى يرفع الستار عن شخصه.
وكنهه، مثلما شهد تلميذه نجم الدين الكبرى على نفسه، فيقول شارحا لديوانه
(ترجمان الأشواق) الذى فضحه هو وعشقه بينت أحد مشائخ مكة، وتشبيهه وغزله
فيها، وقد كثر الكلام والغمز واللمز فيه «وأحدث هذا الشعر دويًا وأقاويل حوله مما
جعل بدل الحبشى واسماعيل بن سودقين يطلبان اليه شرح هذا الديوان» (٤٧٩).

فأراد أن يغطى ما قاله فيها من الغزل الركيك المتندح عشقا وحبا وجذبا وشوقا
الى تلك الحسناء المكية بغطاء صوفي بدهاء ومكر، فما استطاع إلا اظهار ما كان خافيا
من قبل أكثر بكثير.

فانظره ماذا يقول فى مقدمة ذخائره، والعبارة ناطقة بصوت رفيع ولا بصوت
خافت، بما هو مكنون بين جنباتها وتراكيبها:

«فانى لما نزلت مكة سنة خمسائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء،
وعصابة من الأكابر والأدباء والصلحاء بين رجال ونساء، ولم أرفيهم مع فضلهم
مشغولا بنفسه، مشغوبا فيما بين يومه وأمسه، مثل الشيخ العالم الامام، بمقام ابراهيم
عليه الصلاة والسلام، نزيل مكة البلد الأمين مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم

(٤٧٨) فوائح الجمال وفوائح الجلال لنجم الدين الكبرى ص ٦٤، ٦٥. ط المانيا.

(٤٧٩) مقدمة ذخائر الأعلاق لمحمد عبد الرحمن الكروى ص (و) ط مطبعة السعادة مصر.

بن أبى الرجاء الأصفهاني رحمه الله . . . وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتزين المحاضر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين الشمس وإليها من العبادات العالمت السابحات الزاهدات شيخة الحرمين ، وتربية البلد الأمين الأعظم بلامين ، ساحرة الطرف ، عراقية الطرف ، إن أسهبت أثعبت ، وإن أوجزت أعجزت ، وإن أفصحت أوضحت إن نطقت خرست قس بن ساعدة ، وإن كرمست خنس معن بن زائدة ، وإن فست قصر السموأل خطاه ، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامطاه ، ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض ، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن ، وفي خلقها الذى هوروضة المزن ، شمس بين العلماء ، بستان بين الأدباء ، حقة مخومة ، واسطة عقد منظومة ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، سابعة الكرم ، عالية الهمم ، سيدة والديها ، شريفة ناديمها ، مسكها جياذ وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد أشرفت بها تهامه ، وفتح الروض لمجاورتها أكمامه ، فتمت أعراف المعارف ، بها تحمله من الترقائق واللطائف ، علمها عملها ، عليها مسحة ملك وهمة ملك ، فراعينا في صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد ، فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس ، ويشيره الأنس ، من كريم ودها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها ، إذ هي السؤال والمأمول ، والعذراء البتول ، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق ، من تلك الذخائر والأعلاق ، فأعربت عن نفس تواقه ، ونبهت على ما عندنا من العلاقة ، اهتماماً بالأمر القديم ، وإيثاراً لمجلسها الكريم ، فكل اسم أذكره في هذا الجزء فمنها أكنى ، وكل دار أندبها فدارها أعنى» (٤٨٠).

ولم تكن واحدة هذه التى علق بها قلب الشيخ ، وهام وراءها ، بل كانت هناك أخرى أيضا ، وفي بيت الله الحرام وجنب الكعبة ، انظره ماذا يقول :

«كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتي ، وهزنى حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطففت على الرمل ، فحضرتني أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى - لو كان هناك أحد - وهى قوله :

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أي شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفى بكف ألين من الحز، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهاً، ولا أعذب منطقاً، ولا أرق حاشية، ولا ألطف معنى، ولا أدق إشارة، ولا أظرف محاورة منها، قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفة، فقالت: ياسيدى كيف قلت؟ فقلت:

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا
فقالت: عجباً منك وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا؟ أليس كل مملوك معروف؟ وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعور يؤذن بعدمها والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا؟ قل ياسيدى: ماذا قلت بعده؟ فقلت:

وفؤادى لو درى أي شعب سلكوا
فقالت: ياسيدى الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له من المعرفة، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة، والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا ياسيدى؟! فماذا قلت بعده؟ فقلت:

أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
فقالت: أما هم فسلموا، ولكن أسأل عنك فينبغى أن تسأل نفسك: هل سلمت أم هلكت ياسيدى؟ فما قلت بعده؟ فقلت:

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا
فصاحت وقالت: يا عجباً كيف يبقى للشغوف فضلة يحاربها، والهوى شأنه التعميم. يخدر الحواس ويذهب العقول ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه فى الذاهيين فأين الحيرة وما هنا باق فيحار والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق. فقلت: يا بنت الخالة ما اسمك؟ قالت: قرة العين. فقلت: لى. ثم سلمت وانصرفت. ثم إنى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف الأربع ما لا يصفه واصف» (٤٨١).

ولا أدري كيف يستسيغ المدافعون عن ابن عربي أن يرثوه من هذه الشهادة التي شهد بها على نفسه، وأن يخلصوه من ذلك المأزق الذي وقع نفسه بنفسه فيه، وهل يبيع أحد هؤلاء المدافعين عنه أن يذكره أحد - لاسمح الله - هكذا باسمه، ثم يذكر كريمته ويتسبب فيها ويتغزل كما تغزل وتشبب شيخهم الأكبر في كريمة ذلك الشيخ المكي، فكيف يرضون لغيرهم ما لا يرضون لأنفسهم؟

ومادمننا بدأنا بذكر الاعترافات نورد ههنا اعترافا آخر من أحد مشائخ القوم يدل على سيرتهم وعلى سريرتهم أيضا، وهو أن أحمد بن المبارك راوية عبد العزيز الدباغ يذكر أن كاتبه عبد الله بن علي وأخاه عبد الرحمن صعدا يوما على سطح مدرسة العطارين، ثم ماذا حدث؟

اسمع عنهما، ما يقولان :

«فرأينا على سطوح الدور نسوة مجتمعات ومتفرقات، فجعلنا ننظر اليهن ونتذاكر أمرهن فيما بيننا، ونضحك أحيانا، ثم وثب أحدهما مرة إلى الهواء من قوة ما غلب علينا من المزاح.

فلما قدمنا دار الشيخ رضى الله عنه وجلسنا في الصقلاية المعروفة جعل رضى الله عنه يضحك ضحكا كثيرا. ويقول : ما أملح الشيخ الذى لا يكشف، ثم قال : أين كنتما؟ أصدقاني، ولا تكذبا علىّ. فذكرنا له الأمر الذى كان.

فجعل رضى الله عنه يذكر لنا أمر النسوة ومكانتهن في السطوح كأنه حاضر معنا، وذكر لنا أيضا الوثبة المتقدمة من غير أن نذكرها له، فذكر لنا رضى الله عنه أنه كان حينئذ جالسا مع بعض من قصده للزيارة فلم يشعروا به حتى تفرقع بالضحك، وذلك حين شاهد تلك الوثبة فظن من حضر أنه كان يضحك عليه» (٤٨٢).

هذا وإن هناك صوفيا كبيرا من شبه القارة الهندية الباكستانية لا زال مشهده قائما يزار ويقام عليه العرس سنويا، ولعله من أكبر الأعراس في باكستان، وهو مشهد الصوفي المشهور بهاد هولعل حسين.

وإن أصحاب السير والطبقات ذكروا في ترجمته أنه كان من أولياء الله ومستجاب الدعوات، وما كان يطلب شيئا من الرب إلا لبي طلبه، فكان حافظا للقرآن وعالما فقيها، ويوما من الأيام كان يدرس عند شيخه سعد الله تفسيرا مدارك التنزيل، فلما

بلغ إلى قوله عز وجل : (انما الحياة الدنيا لهو ولعب) طراً عليه الوجد، وبدأ يرقص ويقول : مادام أن الحياة لهو ولعب فلماذا لا نلهو ونلعب؟

فأخذ كتبه ورمائها في البثر، وحلق لحيته وشواربه، وأخذ كأس الخمر، وبدأ يرقص في الشوارع والأسواق، كما بدأ يرتاد بيوت المومسات، ويقضى أوقاته فيها، إلى أن وقع نظره على أمرد هندوكى جميل، فوله به وكلف، وعشقه، وما زال يطوف حول بيته ست عشرة سنة حتى أوقعه في حباله وفخه، وجعل اسمه جزء اسمه، فصار مدهولعل حسين، بعد أن كان حسيناً فقط، وبعد وفاته صار مزاره مهبط الأنوار، ومحط البركات، مثل ما كان هو في حياته (٤٨٣).

هذا من جانب. ومن جانب آخر يذكر الشعراني صوفياً آخر صاحب كشف، فيقول :

«سيدى شريف رضى الله عنه ورحمه كان يأكل في نهار رمضان، ويقول : أنا معتوق، أعتقنى ربى» (٤٨٤).

ومثل هذا يذكرون عن أبى يزيد البسطامى أنه «أخرج من كمه رغيفا، وأخذ في أكله في المدينة، وكان هذا في شهر رمضان» (٤٨٥).

وينقلون عن الشبلى أنه كان يقول :

«يا ويلاه، إن صليت جحدت، وإن لم أصل كفرت» (٤٨٦).

والقصص والحكايات مثل هذه كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى، تدل على رفع التكاليف وإسقاط الشريعة، وقد نورد بعضاً منها في محله في الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله.

وهناك عقائد وآراء وأفكار أخرى عديدة، فيها تشابه كامل وتوافق تام مع الشيعة، تدل على أنها مأخوذة مقتبسة منهم، ولكننا نكتفى بهذا القدر منها، لجلاء الموضوع ووضوح المبحث، بعد ما أثبتناها من كتب الفريقين، المعتمدة الموثوقة، وبسرد ألفاظهم وعباراتهم، ومع تأييد الشيعة، وتوثيق السنة، وشهادة الآخرين من اليهود والنصارى من المستشرقين.

(٤٨٣) انظر تذكرة أولياء الباكستان والهند للدكتور ظهور الحسن شارب ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعد.

(٤٨٤) طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٥١.

(٤٨٥) كشف المحجوب للهبجويرى ترجمة عربية ص ٢٦٢.

(٤٨٦) التعرف للكلاباذى ص ١٦٣.

فإن الشيعة الإيراني المعاصر قد صرّح في كتابه :

«تذهب جماعة إلى أن التصوف ليس إلا رد فعل أوجده الفتح العربي الاسلامي في نفوس العنصر الآري الإيراني ، وخلاصة قولهم أن الإيرانيين بعدما غلبوا على أمرهم بسيف العرب في مواقع القادسية وجلولاء وحلوان ونهاوند ، أدركوا أنهم فقدوا استقلالهم وأضاعوا مجدهم ، ثم انهم اعتنقوا الديانة الاسلامية ، ولكن العرب الذين كان الإيرانيون ينظرون إليهم منذ القدم بنظرة غير راضية لم يستطيعوا أن يغيروا رغم انتصارهم مجرى التفكير الإيراني ، وأن يجعلوهم مشاركين لهم في أسلوب تفكيرهم واتجاهاتهم وميولهم وسليقتهم ومنطقهم وكذلك في آمالهم وأمانيتهم وغاياتهم الروحية المثالية لأن التباين الشكلي والمعنوي أى الفروق العنصرية والاختلافات في أسلوب المعيشة والأوضاع الاجتماعية بين هاتين الأمتين كان شديدا للغاية . وبناء على ذلك بعدما انتهت المعارك الحربية باندحار الإيرانيين بدأت الانفعالات والتأثيرات المعنوية والروحية تظهر عند الإيرانيين بأسلوب المساجلات الفكرية التي كان لها أثر بالغ في التاريخ الأدبي والمذهبي والاجتماعي والسياسي للعرب والاسلام .

ومن أهم تلك الانعكاسات التي ترتبت على تلك الانفعالات الفكرية التشيع أولا والتصوف ثانيا . وينبغي أن نضيف إلى هذه الملاحظة أن الغرض من ذكر الانفعالات في هذا الباب ليس القول بأن الإيرانيين أقدموا على هذا العمل اختيارا أو تعمدا وقد تأتت في أكثر الظروف بحكم الانفعالات النفسية وبتأثير العواطف والأحاسيس الخفية بصورة ثابتة كما يرى علماء النفس ؛ أى من غير أن يعرف الناس أنفسهم غالبا السبب الحقيقي أو يستطيعوا تحليل أفكارهم وأحاسيسهم انساقا أفكارهم إلى أمثال هذه الانفعالات العكسية» (٤٨٧) .

وأما الشيعة العراقي فقد كتب كتابا مستقلاً لاثبات تأثر التصوف بالتشيع ، واستفادة الصوفية من الشيعة ، وأخذهم عنهم ، فيقول في كتابه :

«وينبغي أن نذكر الدور الذي قام به الفرس من ادخالهم مثلهم الدينية في التشيع الغالى الأول حين نصرروا المختار ، وعاضدوا حركة الغلو العجلية ، وانضموا

(٤٨٧) تاريخ النصف في الإسلام للدكتور قاسم غنى الايراني ترجمة عربية لصاديق نشأت ص ١٤ . ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .

إلى حركة أبى هاشم، وانضافوا الى الحركة السريّة العباسية التى ورثت حركة أبى هاشم، حتى أدّى بهم الأمر الى تأليه أبى مسلم الخراسانى، كما فعلوا مع أئمة الشيعة من العلويين. يضاف الى ذلك أنهم نصروا حركة عبد الله بن معاوية فى فارس أيضا، وأسبغوا عليه النور الالهى الذى سنجده فى التصوف واضحا جليا.

وهذا كله يعنى أن الفرس قد بدؤوا اضافة القداسة الى البيت النبوى باعتبارها أساسا موازيا لأسسهم السياسية والدينية السابقة من تأليههم الملوك، وقولهم بالنور الذى ينتقل من ملك إلى آخر، فثبتت الولاية لعلّى بن أبى طالب على نحو مبالغ فيه، وانتقلت هذه الولاية المقدسة مع زيادات واضافات وحواش الى الأئمة من بعده حتى بلغ الأمر حدّ التأليه (٤٨٨).

وأما السنة فلقد نقلنا فيما سبق رأى شيخ الاسلام ابن تيمية، وابن خلدون وغيرهما فى ذلك الخصوص، كما ذكرنا أيضا رأى المستشرق الانجليزى المشهور المتعاطف مع التصوف والصوفية - وهو نيكلسون -، وبمثل ما قاله قال جولد زهر (٤٨٩).

وأخيرا نختم كلامنا فى هذا الخصوص على مقولة المستشرق براون (BROWN) المشهورة:

«ان التشيع والتصوف كانا من الأسلحة التى حارب بها الفرس العرب» (٤٩٠).

(٤٨٨) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى ج ١ ص ٣٧٢. ط دار الأندلس بيروت

(٤٨٩) انظر العقيدة والشرعية فى الإسلام لجولدزهر ص ١٣٩ وما بعد.

Brown : A Literary History of Persia Vol. 1 P. 410. (٤٩٠)

مصادر الكتاب ومراجعته

كتب الصوفية :

- * - الإبريز لعبد العزيز الدباغ . ط مصر .
- ١ - أحاسن المجالس لأبي إسحاق إبراهيم . ط المكتبة السلفية . مكة المكرمة ١٣٩٠هـ .
- ٢ - أحمد بن مخلوف الشبابة لعلی الشبابة . ط المكتبة الشبابة . الجزائر ١٩٧٩م .
- ٣ - أحوال وآثار فريد الدين مسعود كنج شكر (أردو) . ط باكستان .
- ٤ - أحوال وأقوال شيخ أبي الحسن الخرقاني (فارسی) الطبعة الثالثة ١٣٦٣هـ جری . قمری ایران .
- ٥ - أحوال ابدال لمحمد عبد العزيز مزنگوی (اردو) . ط باكستان .
- ٦ - إحياء علوم الدين للغزالي . ط . دار القلم . بيروت .
- ٧ - الأخلاق المتبوية لعبد الوهاب الشعراني . ط مطبعة دار التراث العربي . القاهرة .
- ٨ - آداب الصوفية لنجم الدين كبرى (فارسی) . ط كتاب فروشی زوار ایران .
- ٩ - أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبی للدكتور عبد الحليم محمود . ط دار الكتب الحديثة . القاهرة .
- ١٠ - أسرار الأولياء ملفوظات فريد الدين . ط باكستان .
- ١١ - اسرار نامه (فارسی) لعطار نیشابوری . ط ایران .
- ١٢ - الاسراء لابن عربي . ط حيدر آباد دکن الهند ١٣٦٧هـ .
- ١٣ - الاسم الأعظم للغزالي . ط مكتبة نصير . القاهرة .
- ١٤ - اصطلاحات الصوفية لكمال الدين عبد الرزاق القاشاني . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر .
- ١٥ - الألواح العمادية للسهروردي بتحقيق نجف قلی ط مركز تحقیقات فارسی ایران وباكستان .

- ١٦ - الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق لابن عربى بتحقيق محمد عبد الرحمن الكردى . ط القاهرة .
- ١٧ - الانتصار لطريق الصوفية الأخير لزمزمى بن محمد . ط دارمرجان للطباعة . مصر .
- ١٨ - الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلى الطبعة الرابعة ١٩٨١ م .
- ١٩ - إنشاء الدوائر لابن عربى ط . مطبعة بريل ليدن ١٣٣٦ هـ .
- ٢٠ - أرواد الأحباب وفصوص الآداب لأبى المفاخر يحيى الباخرزى . ط طهران ١٩٦٦ م .
- ٢١ - الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية لعبد الوهاب الشعرانى ، ط دار إحياء التراث العربى بغداد ١٩٨٤ م .
- ٢٢ - إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسنى . ط مصطفى البابى الحلبي . القاهرة .
- ٢٣ - أيها الولد للغزالي . ط دار الاعتصام . القاهرة .
- ٢٤ - آئينه شاه ناصر أولياء لمحمد أنور بدخشانى . ط كراتشى . باكستان .
- ٢٥ - بايزيد الأنصارى للدكتور ميرولى خان . ط مجمع البحوث الإسلامية . باكستان ١٣٩٦ هـ .
- ٢٦ - البرهان المؤيد لأحمد الرفاعى . ط القاهرة .
- ٢٧ - بيان الأحكام في السجادة والخرقه والأعلام لعلى بن ميمون المغربى مخطوط .
- ٢٨ - تأييد الحقيقة الجليلة للسيوطى .
- ٢٩ - تاريخ مشائخ جشت (اردو) لخليق أحمد نظامى . ط باكستان .
- ٣٠ - التجليات لابن عربى . ط دكن الهند .
- ٣١ - التذيرات الإلهية لابن عربى . ط ليدن ١٣٣٦ هـ .
- ٣٢ - تذكرة الأولياء (اردو) لفريد الدين العطار . ط باكستان .
- ٣٣ - تذكرة أولياء باك وهند (اردو) للدكتور ظهور الحسن شارب . ط باكستان .
- ٣٤ - تذكرة أولياء بر صغير (اردو) لميرزه محمد اختر الدهلوى . ط باكستان .
- ٣٥ - تذكرة أولياء كرام لصباح الدين عبد الرحمن (اردو) . ط باكستان .
- ٣٦ - تذكرة صوفياء بلوچستان (اردو) للدكتور انعام الحق كوثر . ط باكستان .

- ٣٧ - تذكرة صوفياء بنجاب (اردو) لاجاز الحق قدوسی . ط باكستان .
- ٣٨ - تذكرة غوثيه (اردو) لشاه كل حسن قادری . ط باكستان .
- ٣٩ - التراجم لابن عربی . ط دكن الهند .
- ٤٠ - ترتيب السلوك للقشیری . ط المعهد المركزى للأبحاث الإسلامية اسلام آباد باكستان .
- ٤١ - ترتيب السلوك إلى ملك الملوك لجمال الدين محمد بن عمر بحرق الحضرمی . ط جامعة بنجاب لاهور باكستان .
- ٤٢ - ترصيع الجواهر المكية لعبد الغنى الرافعی . ط المطبعة العامرية مصر ١٣٠١هـ .
- ٤٣ - تحقيق الأسفار الأربعة لحسن نوری . ط شیراز ایران .
- ٤٤ - التصوف في الإسلام لعرجون محمد الصادق مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ١٩٦٧م .
- ٤٥ - التصوف والأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى لجواد المرابط . ط دار اليقظة دمشق ١٩٦٦م .
- ٤٦ - التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى لطفه عبد الباقي سرور . ط دار نهضة مصر .
- ٤٧ - التصوف في تراث ابن تيمية للدكتور طبلاوى محمد سعد . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .
- ٤٨ - التصوف الإسلامى الخالص للمنوفى . ط دار نهضة مصر .
- ٤٩ - تصوف اسلام (اردو) لعبد الماجد دريا آبادی . ط باكستان .
- ٥٠ - التعرض لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذى الطبعة الثالثة مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٤٠٠هـ .
- ٥١ - التعريفات للجرجانى مخطوط .
- ٥٢ - تفسير ابن عربی . ط انتشارات ناصر خسرو طهران .
- ٥٣ - تنبيه المغتر بين لعبد الوهاب الشعرانى . ط مصر .
- ٥٤ - تنبيه الغافلين لأبي الليث بن نصر محمد . ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة ١٩٣٣م .
- ٥٥ - ثلاث رسائل لشهاب الدين السهروردی . ط مركز تحقيقات فارسى ايران وباكستان .

- ٥٦ - جامع الأصول في الأولياء لأحمد الكمشخانوى . ط المطبعة الوهبية طرابلس الشام ١٢٩٨ هـ .
- ٥٧ - جامع كرامات الأولياء لابن عربى . ط دار صادر بيروت .
- ٥٨ - جامى (فارسى) لعلى اصغر حكمت . ط انتشارات توس ايران .
- ٥٩ - جهرة الأولياء لأبى الفيض المنوفى الحسينى . ط مؤسسة الحلبي القاهرة .
- ٦٠ - الجواب المستقيم لابن عربى مخطوط .
- ٦١ - الجواهر والدرر للشعرانى . ط مصر .
- ٦٢ - الجواهر اللماعة لعلى المرزوقى . ط مصطفى البابى الحلبي مصر .
- ٦٣ - جهل مجلس لعلاء الدين سمنانى بتصحيح عبد الرفيع حقيقت (فارسى) .
- ٦٤ - الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية . ط باكستان .
- ٦٥ - الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى لمحمد مصطفى حلمى . ط القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٦٦ - حضرات القدس (فارسى) لبدر الدين سرهندي . ط لاهور ١٩٧١ م .
- ٦٧ - حقائق عن التصوف لعبد القادر عيسى الطبعة الرابعة . المطبعة الوطنية عمان ١٤٠١ هـ .
- ٦٨ - حكمة الاشراق لشهاب الدين السهروردي .
- ٦٩ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهاني . ط دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٠ م .
- ٧٠ - الحلاج لظه عبد الباقي سرور . ط دار نهضة مصر القاهرة .
- ٧١ - حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب بهامش قوت القلوب . ط دار صادر بيروت .
- ٧٢ - الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد للسيوطى مخطوط .
- ٧٣ - ختم الولاية للحكيم الترمذى . ط المطبعة الكاثوليكية بيروت .
- ٧٤ - خزينة الأصفياء (اردو) لمفتى غلام سرور . ط باكستان .
- ٧٥ - خزينة معرفت (اردو) للصوفى محمد إبراهيم قصورى . ط باكستان .
- ٧٦ - درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص لعبد الوهاب الشعرانى . بهامش الأبريز للدباغ . ط مصر .

٧٧ - الدر المنظم في الاسم الأعظم للسيوطي . ط مكتبة نصير القاهرة .
٧٨ - الدرر الثمين والمورد المعين لمحمد بن أحمد المالكي . ط مصطفى البابي

الحلبى ١٩٥٤م .

٧٩ - الدرر السنية في الطريقة التيجانية لمحمد سعد الرباطي . ط مكتبة

القاهرة .

٨٠ - دلائل الخيرات . ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٤٦هـ .

٨١ - ديوان ابن عربى . ط مكتبة محمد ركابى الرشيدى القاهرة .

٨٢ - ديوان ابن فارض . ط مكتبة القاهرة ١٣٩٩هـ .

٨٣ - ديوان البرعى . ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة .

٨٤ - ديوان البوصيرى لشرف الدين بوصيرى . ط مصطفى البابي الحلبي

مصر .

٨٥ - ديوان الحلاج الطبعة الثانية بغداد ١٤٠٤هـ .

٨٦ - ديوان منصور حلاج (فارسي) ط انتشارات كتابخانه سنائی طهران .

٨٧ - ديوان فريد الدين عطار نيشابورى (فارسي) ط كتابخانه سنائی طهران .

٨٨ - ذخائر الاعلاق لابن عربى . ط مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة .

٨٩ - راحة القلوب ملفوظات فريد الدين كنج شكر (اردو) ط باكستان .

٩٠ - الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري . ط دار الكتب الحديثة القاهرة

١٩٧٤م .

٩١ - رسالة النصوص لمحمد بن إسحاق القونوى . ط مشهد ايران .

٩٢ - الرستميات (فارسي) لأبي سعيد محمد بن محمد الرستمى . ط مجمع

البحوث الإسلامية إسلام آباد باكستان .

٩٣ - روح السنة وروح النفوس المطمئنة لأحمد بن ادريس . ط دار إحياء

الكتب العربية مصر .

٩٤ - روضة التعريف بالحب الشريف للسان الدين بن الخطيب . ط دار الفكر

العربى .

٩٥ - زبدة الحقائق لعزيز الدين النسفى تقديم حق وردى ناصرى . ط

كتابخانه طهورى طهران .

٩٦ - ساعة مع العارفين لسعيد الأعظمى . ط دار الاعتصام القاهرة .

- ٩٧ - سبيل الأذكار والاعتبار لعبد الله باعلوى الحداد بهامش النصائح الدينية للمؤلف المذكور. ط مطبعة إحياء الكتب العربية القاهرة.
- ٩٨ - سبيل الجنة في التربية بالطريقة القادرية لمحمد ناصر. ط الهند.
- ٩٩ - سر سردكانه (فارسی) لمحمد على. ط کتابخانه منوشری ایران.
- ١٠٠ - سیدی أحمد الدردیر للدكتور عبد الحليم محمود. ط دار الكتب الحديثة القاهرة.
- ١٠١ - السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة للدكتور أحمد صبحى منصور الطبعة الأولى مطبعة الدعوة الإسلامية مصر.
- ١٠٢ - السيد البدوى لأحمد محمد حجاب. ط مؤسسة سعيد للطباعة مصر.
- ١٠٣ - سير الأقطاب (اردو) لعبد الرحيم. ط باكستان.
- ١٠٤ - سير الأولياء لمحمد بن مبارك علوى. ط مؤسسة انتشارات إسلامی باكستان.
- ١٠٥ - سير العارفين (اردو) لحامد بن فضل الله جمالى. ط لاهور باكستان.
- ١٠٦ - شجرة الكون لابن عربى. ط باكستان ١٩٨٠م.
- ١٠٧ - شرح الحجب والأستار لروزبهان أبى محمد ط حيدر آباد الهند ١٣٣٣هـ.
- ١٠٨ - شرح الزيارة للجماعة الكبيرة لأحمد بن زين الدين مطبع السادات ایران.
- ١٠٩ - شرح المسائل الروحانية لابن عربى ضمن كتاب ختم الولاية للحكيم الترمذى. ط المطبعة الكاثوليكية بيروت.
- ١١٠ - شرح مقدمة التائية الكبرى لداود القيصرى مخطوط.
- ١١١ - شرح شطحيات (فارسی) لروزبهان بقلی شیرازى بتصحيح هنرى كربين. ط طهران.
- ١١٢ - شرح الفصوص للقيصرى مخطوط.
- ١١٣ - شرح حال الأولياء لعز الدين المقدسى مخطوط.
- ١١٤ - الشريعة والحقيقة للدكتور حسن محمد شرقاوى. ط القاهرة.
- ١١٥ - شمس الأنوار لابن الحاج تلمسانى. ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة.

١١٦ - شهاب الدين السهروردى للدكتور إبراهيم مذكور. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١٧ - صوم القلب لعمار البديلى مخطوط .

١١٨ - الصلاة الكبرى لابن عربى مخطوط .

١١٩ - الطبقات للسلمى . ط مطابع الشعب القاهرة ١٣٨٠هـ .

١٢٠ - طبقات الأولياء لابن الملقن . ط مكتبة الخانجى القاهرة ١٣٩٣هـ .

١٢١ - الطبقات الكبرى للشعرانى . ط دار العلم للجميع ، وط المطبعة

العامة العثمانية ١٣٠٥هـ القاهرة .

١٢٢ - الطبقات الصغرى للشعرانى . ط مكتبة القاهرة الطبعة الأولى

١٣٩٠هـ .

١٢٣ - الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان

لمحمد ضيف الله الجعلى الفضلى . ط المكتبة الثقافية بيروت . لبنان .

١٢٤ - الطريق إلى الله لأبى سعيد الخراز . ط دار الكتب الحديثة مصر .

١٢٥ - طريق النجاة (فارسى) لكريم خان كرماني مطبع السادات ايران

١٣٩٦هـ .

١٢٦ - طهارة القلوب لعبد العزيز الدرينى . ط مصطفى البابى الحلبي

القاهرة .

١٢٧ - الطواسين للحلاج . ط المعارف باكستان .

١٢٨ - عبد الله الأنصارى الهروى للدكتور محمد سعيد عبد المجيد . ط دار

الكتب الحديثة مصر .

١٢٩ - عبد الله خویشكى قصورى (أردو) لمحمد اقبال مجددى . ط باكستان .

١٣٠ - عبد الرحمن الثعالبي والتصوف لعبد الرزاق قسوم . ط الشركة الوطنية

الجزائر .

١٣١ - العظة والاعتبار في حياة السيد البدوى لأحمد محمد الحجاب . ط

القاهرة .

١٣٢ - العروة للسمنانى مخطوط .

١٣٣ - عقلة المستوفز لابن عربى . ط مطبعة بريل ليدن ١٣٣٦هـ .

١٣٤ - عقيدة أهل المعانى في شرح قصيدة بدء الأمالى لأبى الحسن محمد

الدوسى . ط مكتبة ايشيق تركيا .

- ١٣٥ - العقل وفهم القرآن للحارث بن أسد المحاسبى . ط دار الكندى الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ .
- ١٣٦ - العلوم الإلهية والأسرار الربانية لابن عربى . ط مكتبة نصير القاهرة .
- ١٣٧ - عوارف المعارف لعبد القاهر السهروردى . ط دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٣هـ .
- ١٣٨ - غزليات شمس تبريزى (فارسى) ط طهران .
- ١٣٩ - غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية للنفذى الرندى . ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م .
- ١٤٠ - الفتح الربانى والفيض الرحمانى لعبد القادر الجيلانى . ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة .
- ١٤١ - الفتح المبين فيما يتعلق بترىاق المحبين لأبى الظفر القادرى الطبعة الأولى المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦هـ .
- ١٤٢ - الفتح الربانى لعبد العزيز نابلوسى . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٠م .
- ١٤٣ - الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسنى . ط عالم الفكر القاهرة .
- ١٤٤ - الفتوحات المحمدية لمبارك على . ط باكستان ١٩٨١م .
- ١٤٥ - الفتوحات المكية لابن عربى . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٥هـ .
- ١٤٦ - فتوحات نامہ لعبد الرزاق كاشانى (فارسى) . ط طهران .
- ١٤٧ - فرائد اللآلى من رسائل الغزالى بتحقيق محمد بخيت . ط فرج الله ذكى الكردى مصر ١٣٤٤هـ .
- ١٤٨ - فرحة الناظرين لمحمد اسلم (أردو) . ط باكستان .
- ١٤٩ - فصوص الحكم لابن عربى بتعليقات الدكتور أبى العلاء العفيفى . ط دار الكتاب العربى بيروت .
- ١٥٠ - فوائح الجمال وفوائح الجلال لنجم الدين كبرى .
- ١٥١ - فوائد الفواد ملفوظات خواجه نظام الدين اولياء (أردو) . ط أوقاف لاهور باكستان .
- ١٥٢ - الفوائد فى الصلوات والعوائد لشهاب الدين الشرحى اليمنى . ط مصطفى البابى الحلبي مصر ١٣٨٨هـ .

- ١٥٣ - فوائد العز الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وخواصها لمحمد الشبراوى الشافعى بهامش الفوائد لشهاب الدين الشرجى . ط مصطفى البابى الحلبي . مصر .
- ١٥٤ - قرة العيون ومفرّح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى . ط دار إحياء الكتب العربية مصر .
- ١٥٥ - القصد للشاذلى مخطوط .
- ١٥٦ - قلادة الجواهر في ذكر الرفاعى وأتباعه الأكابر لمحمد أبى الهدى الرفاعى . ط بيروت ١٤٠٠هـ .
- ١٥٧ - قواعد التصوف لأحمد بن زروق . ط مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٦م .
- ١٥٨ - قوانين حكم الاشراق لأبى المواهب الشاذلى . ط مكتبة الكليات الأزهرية مصر .
- ١٥٩ - قوت القلوب لأبى طالب المكي . ط دار صادر بيروت .
- ١٦٠ - كتاب الاستبصار لأهل الأذكار لأحمد محمود زين الدين الحسينى . ط مطبعة الأنوار القاهرة .
- ١٦١ - كتاب البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر لمحمود رجب حلمى .
- ١٦٢ - كتاب المخاطبات لمحمد بن عبد الجبار النفزى . ط مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة .
- ١٦٣ - كتاب المواقف لمحمد بن عبد الجبار النفزى . ط مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة .
- ١٦٤ - كشف الحجاب لأحمد بن الحاج العياشى . ط ١٣٨١هـ - ١٩٣٤م .
- ١٦٥ - كشف الخفايا للنسفى بتصحيح الدكتور أحمد مهدى (فارسى) ط طهران ١٣٥٩هـ .
- ١٦٦ - كشف الغمة عن جميع الأئمة للشعرانى . ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة .
- ١٦٧ - كشف المحجوب للهجویری ترجمة عربية . ط دار النهضة العربية بيروت .
- ١٦٨ - كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء للبكرى المكي الدمياطي . ط دار الكتب العربية الكبرى مصر ١٣٢٥هـ .

١٦٩ - كلزار ابرار لمحمد غوثی شطاری (اردو) ط باكستان .

١٧٠ - كلزار صوفياء (اردو) لعالم فقری . ط باكستان .

١٧١ - كلمة الحق لعبد الرحمن (أردو) . ط لکنوا الهند ١٨٨٣ م .

١٧٢ - کلیات و دیوان شمس تبریزی (فارسی) لجلال الدین محمد بلخی . ط

نشر طلوع ایران .

١٧٣ - الکندی وآراءه الفلسفیه للدکتور عبد الرحمن شاه ولی . ط مجمع

البحوث العلمیة باكستان .

١٧٤ - کنجینه کوهر (فارسی) لملا أحمدی قاضی . ط مطبعة الحوادث ایران .

١٧٥ - لطائف المنن والأخلاق لعبد الوهاب الشعرانی . ط القاهرة .

١٧٦ - لطائف المنن لابن عطاء الله الأسکندری . ط مطبعة حسان القاهرة .

١٧٧ - اللطف الدانی لعبد الوهاب محمد امین . ط القاهرة .

١٧٨ - اللمع للسراج الطوسی . ط دار الكتب الحدیثة مصر .

١٧٩ - اللمحات لشهاب الدین السهروردی . ط مرکز تحقیقات فارسی ایران

وباكستان ١٩٨٤ م .

١٨٠ - اللمعات لفخر الدین عراقی (فارسی) ط ایران .

١٨١ - لوائح لعبد الرحمن جامی (فارسی) . ط لاهور باكستان .

١٨٢ - المثنوی العربی النوری لسعید النوری . ط مطبعة الزهراء بغداد .

١٨٣ - المجالس الرفاعیة لأحمد الرفاعی . ط مطبعة الإرشاد بغداد .

١٨٤ - مجموع مخطوط بالفاتیکان عربی رقم ١٢٤٢ .

١٨٥ - مجموعة فی الحکمة المشرقیة لشهاب الدین السهروردی .

١٨٦ - المحبة والشوق للغزالی . ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة .

١٨٧ - محاسن المجالس لابن العریف . ط باريس ١٩٣٣ م .

١٨٨ - محمد سلیمان تونسوی (اردو) للدکتور محمد حسین للهقی . ط باكستان .

١٨٩ - محیی الدین ابن عربی (فارسی) للدکتور محسن جهانگیری الطبعة

الثانية طهران .

١٩٠ - محیی الدین ابن عربی لظه عبد الباقي سرور . ط القاهرة .

١٩١ - مختصر تذکرة القرطبي لعبد الوهاب الشعرانی . ط دار احیاء الكتب

العربیة مصر .

- ١٩٢ - المدرسة الحديثة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي للدكتور عبد
الحليم محمود. ط دار الكتب الحديثة القاهرة.
- ١٩٣ - مدينة الأولياء (اردو) لمحمد دين كلیم قادری. ط باكستان.
- ١٩٤ - مشتهى الخارف الجاني لمحمد الخضر الشنقيطي.
- ١٩٥ - مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم لأحمد بن حسن الرصاص. ط دار
الاعتصام القاهرة.
- ١٩٦ - مطالع المسرات لمحمد المهدي بن أحمد. ط مصطفى البابي الحلبي
١٩٧٠ م.
- ١٩٧ - معارج المقربين لمحمد ماضی أبي العزائم. دار الثقافة العربية للطباعة
مصر.
- ١٩٨ - المعارضة والرد لسهل بن عبد الله التستري. ط دار الإنسان القاهرة.
- ١٩٩ - المقدمات للفرغاني مخطوط.
- ٢٠٠ - مقصود المؤمنین لبایزید الأنصاری. ط مجمع البحوث الإسلامية
إسلام آباد باكستان.
- ٢٠١ - مكاشفة القلوب للغزالي. ط الشعب القاهرة.
- ٢٠٢ - مناقب العارفين للأفلاكي (فارسی) ط دنيا كتاب الطبعة الثانية
١٣٦٢ هجرى قمرى.
- ٢٠٣ - مناقب الصوفية لقطب الدين المروزي. ط طهران.
- ٢٠٤ - مناقب الصوفية (فارسی) لأبي المظفر المروزي باهتمام محمد تقى وايرج
اخشار. ط طهران.
- ٢٠٥ - مناقب الصوفية (فارسی) لمنصور بن اردشير ط إيران.
- ٢٠٦ - مناقب العارفين لشمس الدين الأفلاكي (فارسی) ط دنيا كتاب
ایران.
- ٢٠٧ - من أعلام التصوف الإسلامى لطفه عبد الباقي سرور. ط دار نهضة
مصر.
- ٢٠٨ - المنتخبات من مكتوبات المجدد (فارسی). مكتبة ايشيق تركيا.
- ٢٠٩ - المنقذ من الضلال للغزالي. ط دار الكتاب اللبناني بيروت.
- ٢١٠ - المنقذ من الضلال مجموعة مؤلفات عبد الحليم محمود. ط دار الكتاب
اللبناني بيروت.

- ٢١١ - منازل السائرين مع العلل والمقامات لعبد الله الأنصارى الهروى . ط
ايران .
- ٢١٢ - منبع أصول الحكمة لأبي العباس أحمد بن على بنونى . ط مصطفى
البابى الحلبى .
- ٢١٣ - منح المنة لعبد الوهاب الشعرانى . ط مكتبة عالم الفكر القاهرة
١٣٩٩هـ .
- ٢١٤ - منطق الطير لفريد الدين العطار . ط دار الأندلس بيروت .
- ٢١٥ - منهاج العابدين للغزالى . ط مصطفى البابى الحلبي مصر .
- ٢١٦ - المنهج الموصل إلى الطريقة الأنهج لمصطفى الصادقى مخطوط .
- ٢١٧ - المواقف الإلهية لابن قضيبة البان ضمن كتاب الإنسان الكامل
للبدوى . ط الكويت .
- ٢١٨ - مولانا رومى لبشير محمود اختر (اردو) ط إدارة ثقافت إسلامية
باكستان .
- ٢١٩ - مواقع النجوم لابن عربى . ط مطبعة السعادة مصر ١٣٢٥هـ .
- ٢٢٠ - مهرمنير لمهر على شاه (اردو) ط باكستان .
- ٢٢١ - نزهة المجالس لعبد الرحمن الصفورى . ط مكتبة الشرق الجديد
بغداد . العراق .
- ٢٢٢ - نساء فاضلات لعبد البديع صفر . ط دار الاعتصام القاهرة .
- ٢٢٣ - نسيم الأنس لزين الدين بن رجب مخطوط .
- ٢٢٤ - نشاط التصوف الإسلامى لابراهيم بسيونى . ط دار المعارف القاهرة
١٩٦٩م .
- ٢٢٥ - النصائح الدينية لعبد الله باعلوى الحداد . ط مطبعة دار احياء الكتب
العربية القاهرة .
- ٢٢٦ - نص النصوص لحيدر الاملى مخطوط .
- ٢٢٧ - النفحة العلية في أورداد الشاذلية لعبد القادر زكى . ط مكتبة المثنى
القاهرة .
- ٢٢٨ - نفحة الروح وتحفة الفتوح لمؤيد الدين جندى . ط طهران ١٣٦٢
هجري قمرى .
- ٢٢٩ - نفحات الأنس (فارسي) لعبد الرحمن جامى . ط ايران ١٣٣٧هـ .

- ٢٣٠ - نواذر الأصول للحكيم الترمذى . ط الأستانا .
- ٢٣١ - الوصية الكبرى لعبد السلام الأسمر الفيتورى . ط مكتبة النجاح طرابلس ليبيا ١٩٧٦ م .
- ٢٣٢ - اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر لعبد الوهاب الشعرانى . ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة ١٣٧٨ هـ .
- كتب غير الصوفية من المسلمين :
- ٢٣٣ - ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفاء الغنيمى التفتازانى . ط دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٣ م .
- ٢٣٤ - أبونعيم وكتابه الحلية لمحمد ططفى الصباغ . ط دار الاعتصام القاهرة .
- ٢٣٥ - تحاف السادة للزبيدى . ط المكتب الإسلامى بيروت ١٩٧٤ م .
- ٢٣٦ - أخبار الحكماء للقفطى .
- ٢٣٧ - أديان الهند الكبرى للشلبى . ط القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٢٣٨ - أساس البلاغة للزمخشرى . ط إحياء المعاجم العربية القاهرة .
- ٢٣٩ - أضواء على التصوف للدكتور طلعت غنام . ط عالم الكتب القاهرة .
- ٢٤٠ - الاعتصام للشاطبى . ط مطبعة السعادة مصر .
- ٢٤١ - الأنساب للسمعانى . ط محمد امين دمج بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ .
- ٢٤٢ - الإنسان الكامل في الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى . ط وكالة المطبوعات الكويت .
- ٢٤٣ - البداية والنهاية لابن كثير . ط بيروت .
- ٢٤٤ - بين التصوف والحياة لعبد البارى الندوى . ط دار الفتح دمشق ١٩٦٣ م .
- ٢٤٥ - بوارق الأسماع في إلحاد من يحل السماع (أردو) لمير عالم . ط مطبع منشى فخر الدين . ط باكستان .
- ٢٤٦ - تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور عبد الرحمن بدوى . ط وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٨ م .
- ٢٤٧ - تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غنى ترجمة عربية لصاقد نشأت . ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

- ٢٤٨ - تاريخ تصوف للدكتور محمد اقبال (أردو). ط لاهور باكستان .
- ٢٤٩ - التبصير في الدين للأسفرائيني ط القاهرة .
- ٢٥٠ - تذكرة الحفاظ للذهبي . ط القاهرة .
- ٢٥١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن بدوي . ط وكالة المطبوعات الكويت .
- ٢٥٢ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك . ط دار الجيل لبنان .
- ٢٥٣ - التصوف بين الحق والخلق لمحمد فخر شفقة . ط الدار السلفية الكويت .
- ٢٥٤ - التصوف بين الدين والفلسفة للدكتور ابراهيم هلال . ط دار النهضة العربية القاهرة .
- ٢٥٥ - التصوف في تهامة لمحمد بن أحمد العقيلي . ط دار البلاد جده .
- ٢٥٦ - التنبيه والرد للملطى تحقيق محمد زاهد الكوثري . ط مصر ١٣٦٠ هـ .
- ٢٥٧ - تلبس ابليس لابن الجوزي . ط دار الوعي بيروت أيضا . ط دار القلم بيروت .
- ٢٥٨ - تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني . ط بيروت .
- ٢٥٩ - جستجودر تصوف ايران (فارسي) للدكتور عبد المحسن زرین كوب . ط مؤسسة انتشارات امير كبير طهران ١٣٦٣ هـ .
- ٢٦٠ - حادی الأرواح لابن قيم الجوزية . ط دار القلم بيروت لبنان .
- ٢٦١ - الخضر في الفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق . ط الدار السلفية الكويت .
- ٢٦٢ - الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها مذهب الشيعة الاثني عشرية للسيد محب الدين الخطيب .
- ٢٦٣ - خلاصة الأثر للمجيبى .
- ٢٦٤ - دائرة المعارف الإسلامية (أردو) ط جامعة بنجاب لاهور باكستان .
- ٢٦٥ - دراسات في التصوف الإسلامي للدكتور محمد جلال شرف . ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م .
- ٢٦٦ - دنباله جستجودر تصوف (فارسي) للدكتور عبد الحسين زرین كوب . ط ايران .

- ٢٦٧ - ذم ما عليه مدعو التصوف لأبي محمد موفق الدين . ط المكتب الإسلامي بيروت .
- ٢٦٨ - روضة المحبين لابن قيم الجوزية . ط دار الكتب العلمية بيروت .
- ٢٦٩ - سير اعلام النبلاء للإمام الذهبي . ط بيروت .
- ٢٧٠ - الشيعة وأهل البيت للمؤلف . ط إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان .
- ٢٧١ - الشيعة والسنة للمؤلف . ط إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان .
- ٢٧٢ - صحيح البخاري .
- ٢٧٣ - صحيح مسلم .
- ٢٧٤ - الصوفية، الوجه الآخر للدكتور محمد جميل غازي . ط القاهرة .
- ٢٧٥ - الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية . ط دار الفتح القاهرة .
- ٢٧٦ - الصوفية في ضوء الكتاب والسنة لعبد المجيد محمد . ط القاهرة .
- ٢٧٧ - الصوفية في نظر الإسلام لسميع عاطف الزين . ط دار الكتاب اللبناني بيروت .
- ٢٧٨ - ضحى الإسلام لأحمد أمين . ط القاهرة ١٩٥٢م .
- ٢٧٩ - الطبقات لابن سعد . ط بيروت .
- ٢٨٠ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية . ط إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان .
- ٢٨١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل للحافظ ابن حزم . ط بيروت .
- ٢٨٢ - فضائح الباطنية للغزالي . ط مؤسسة دار الكتب الثقافية الكويت .
- ٢٨٣ - فلسفة الهند القديمة لمحمد عبد السلام ط الهند الرامبوري .
- ٢٨٤ - الفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود . ط دار الفكر العربي القاهرة .
- ٢٨٥ - القاديانية للمؤلف ط باكستان .
- ٢٨٦ - القاموس المحيط للفيروز آبادي . ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة .
- ٢٨٧ - القول المنبئ في تكفير ابن عربي للنحاوي مخطوط .
- ٢٨٨ - لسان العرب لابن منظور الأفريقي . ط دار صادر بيروت .
- ٢٨٩ - مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية . ط دار الكتب العلمية بيروت .
- لبنان .
- ٢٩٠ - مدخل إلى التصوف الإسلامي للأبي الوفاء الغنيمي ط مصر .

- ٢٩١ - المسند للإمام أحمد .
- ٢٩٢ - المقدمة لابن خلدون . ط مطبعة مصطفى محمد مصر .
- ٢٩٣ - الملامتية وأهل الفتوة والصوفية لأبي العلاء العفيفي . ط دار احياء الكتب العربية مصر .
- ٢٩٤ - منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية . ط لاهور باكستان .
- ٢٩٥ - الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل لابن حزم . ط بيروت .
- ٢٩٦ - المؤطأ للإمام مالك .
- ٢٩٧ - نشأة الفلسفة الصوفية للدكتور عرفان عبد الحميد . ط المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٤ م .
- ٢٩٨ - النجوم الزاهرة للتغري البردي الأتابكي . ط وزارة الثقافة مصر .
- ٢٩٩ - وفيات الأعيان لابن خلكان . ط بيروت .
- ٣٠٠ - الوافي بالوفيات .
- ٣٠١ - ولاية الله والطريق إليها للإمام الشوكاني . ط القاهرة .
- ٣٠٢ - هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل . ط دار الكتب العلمية .

كتب الشيعة والاسماعيلية :

- ٣٠٣ - أجزاء عن العقائد الاسماعيلية للداعى إبراهيم . ط امبرين نيشنل بريس ١٧٨٤ م .
- ٣٠٤ - أربعة نصوص اسماعيلية للداعى الاسماعيلى المجهول بتحقيق ماسينيون . ط باريس .
- ٣٠٥ - أساس التأويل للقاضى الاسماعيلى النعمان . ط دار الثقافة بيروت .
- ٣٠٦ - الأصول من الكافي للكليني . ط دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٨٨ هجرى قمرى .
- ٣٠٧ - أعلام النبوة لأبي حاتم الرازى تحقيق صلاح الصادى . ط ايران ١٣٩٧ هجرى قمرى .
- ٣٠٨ - أعيان الشيعة لمحسن الأمين . ط دار التعارف للمطبوعات بيروت .
- ٣٠٩ - اعتقادات الصدوق لابن بابويه القمى . ط ايران .
- ٣١٠ - الافتخار للداعى أبى يعقوب السجستانى . ط بيروت .
- ٣١١ - الأمالى للمفيد . ط قم ايران .

- ٣١٢- بحار الأنوار للمجلسي . ط ايران .
- ٣١٣- البرهان في تفسير القرآن لهاشم البحراني . ط ايران .
- ٣١٤- بصائر الدرجات الكبرى للصفار . ط منشورات الأعلمي طهران
- ١٤٠٤هـ .
- ٣١٥- بيت الدعوة الأسماعية مخطوط .
- ٣١٦- بين التصوف والتشيع لهاشم معروف حسيني . ط دار القلم بيروت .
- ٣١٧- تلخيص الشافي للطوسي . ط قم ايران .
- ٣١٨- تنقيح المقال للمامقاني . ط طهران .
- ٣١٩- حق اليقين (فارسي) للمجلسي . ط ايران .
- ٣٢٠- حديقة الشيعة (فارسي) لأحمد بن محمد الأردبيلي . ط طهران .
- ٣٢١- الخصال لابن بابويه القمي . ط ايران .
- ٣٢٢- الذريعة إلى تصانيف الشيعة لآقا بزرك الطهراني . ط ايران .
- ٣٢٣- الرجال للحلي . ط ايران .
- ٣٢٤- رجال الطوسي . ط نجف العراق .
- ٣٢٥- رجال الكشي . ط كربلاء .
- ٣٢٦- الزهد للحسين بن سعيد الأهوازي . ط ايران .
- ٣٢٧- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . ط إيران .
- ٣٢٨- شرح اعتقادات الصدوق . ط ايران .
- ٣٢٩- الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشبيبي . ط بيروت ١٩٨٢م .
- ٣٣٠- طرائق الحقائق للحاج معصوم علي شاه . ط ايران .
- ٣٣١- عيون أخبار الرضا لابن بابويه القمي . ط طهران .
- ٣٣٢- فرق الشيعة للنويختي . ط المطبعة الحيدرية نجف العراق .
- ٣٣٣- الفصول المهمة في معرفة الأئمة للحر العاملي . ط مكتبة بصيرتي قم ايران .
- ٣٣٤- الفكر الشيعي والنزعات الصوفية للدكتور كامل مصطفى الشبيبي .
- مكتبة النهضة بغداد .
- ٣٣٥- كمال الدين وتمام النعمة لابن بابويه القمي . ط دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٩٥هـ .

- ٣٣٦ - مشارق أنوار اليقين للحافظ رجب البرسى . ط دار الأندلس بيروت
- ٣٣٧ - المقالات والفرق لسعد بن عبد الله الأشعري القمى . ط طهران .
- ٣٣٨ - منهج المقال للأستر آبادى . ط ايران .
- ٣٣٩ - منهاج الكرامة للحلى . ط باكستان .
- ٣٤٠ - النصرة للسجستانى . ط دار الثقافة بيروت .
- ٣٤١ - نهج البلاغة المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه بتحقيق
صبحى صالح بيروت .
- ٣٤٢ - اهفت الشريف للمفضل الجعفى تحقيق مصطفى غالب الاسماعيلى .
ط بيروت .
- ٣٤٣ - ثلاث رسائل في الحكمة الإسلامية لمحمد كاظم عصار . ط المكتبة
المرتضوية ايران .
- كتب غير المسلمين :
- ٣٤٤ - انجيل .
- ٣٤٥ - آئين جوانمردى (فارسى) لهنرى كارين . ط ايران .
- ٣٤٦ - ابن عربى حياته ومذهبه لآسين بلاثيوس ترجمة عربية دكتور عبد الرحمن
بدوى . ط وكالة المطبوعات الكويت .
- ٣٤٧ - التاريخ العام للتصوف ومعاله لميركس .
- ٣٤٨ - تاريخ العرب لحتى .
- ٣٤٩ - التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ترجمة عربية للدكتور أبى الوفاء
العفيفى . ط القاهرة .
- ٣٥٠ - التصوف لماسينيون . ط دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨٤ م .
- ٣٥١ - العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدزهر .
- ٣٥٢ - فلسفة البوجاليوجى راما شاراكه ط القاهرة .
- ٣٥٣ - الفكر العربى ومكانته في التاريخ للمستشرق أوليرى ترجمة تمام
حسان . ط القاهرة .
- ٣٥٤ - قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة عربية لمحمد بدران . ط القاهرة
١٩٦٤ م .
- ٣٥٥ - للت دستر كتاب بوذى مقدس ط الهند .
- ٣٥٦ - هذه هي الوجودية لبول فولكبيه .

فهرست الكتاب

٣	إهداء
٥	المقدمة
١١	الباب الأول : التصوف نشأته، تاريخه وتطوراته :
١١	الفصل الأول : الإسلام عبارة عن الكتاب والسنة
٢٠	الفصل الثاني : أصل التصوف واشتقاقه
٣٦	الفصل الثالث : تعريف التصوف
٤٠	الفصل الرابع : بدء التصوف وظهوره
٤٩	الباب الثاني : مصادر التصوف ومآخذه :
	الزواج
٧٩ - ٤٩	المسيحية
	ترك الدنيا
٨٠	الزواوية والملبس
٩٣	مصطلحات الصوفية
٩٧	المذاهب الهندية والفارسية
١٢١	الأفلاطونية الحديثة
١٣٧	الباب الثالث : التشيع والتصوف :
١٣٩	جابر بن حيان
١٤٣	عبدك
١٤٧	سلاسل التصوف
١٥٩	نزول الوحي وإتيان الملائكة
١٨٦	المساواة بين النبي والولي
١٨٨	تفضيل الولي على النبي
١٩٧	اجراء النبوة
٢٠١	العصمة
٢١٢	عدم خلو الأرض من الحجة
٢١٥	وجوب معرفة الإمام

٢١٨	الولاية والوصاية
٢٢٣	الحلول والتناسخ
٢٣١	مراتب الصوفية
٢٣٦	التقية
٢٤٣	الظاهر والباطن
٢٦٠	نسخ الشريعة ورفع التكاليف
٢٧٧	مصادر الكتاب ومراجعته

الكتب باللغة الانجليزية :

- (1) Oxford history of Church, London 1953.
- (2) The story of Christian Church - 1933.
- (3) A short history our Religion - London - 1922.
- (4) Origin Christian Church Art Oxford - 1933.
- (5) Buildings L6 EB Lib.
- (6) History of an Cient Art, Finlay 195.
- (7) The Buddha and the Cristle, by B,H Streeter London 1932.
- (8) Brown A literary History of Persia.